خمسة آلاف يوم في عالم البرزخ

مذكرات الأسير

حسن عبد الرحمن سلامة

في العزل الانفرادي داخل السجون الإسرائيلية

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

Five Thousand Days in the World of Barzakh (Isthmus)
The Memoirs of the Prisoner Hassan Abd al-Rahman Salameh
in Solitary Confinement in Israeli Prisons

جميع الحقوق محفوظة ©
الطبعة الأولى
2022م – 1444هـ
بيروت – لبنان

ISBN 978-614-494-030-3

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطّي من الناشر.

(الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة عن وجهة نظر مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات)

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
تلفون: 44 36 80 1 961 +
تلفاكس: 43 36 80 1 961 +
ص.ب.: 14-5034، بيروت – لبنان

بريد إلكتروني: info@alzaytouna.net **الموقع:** www.alzaytouna.net

يمكنكم التواصل معنا والاطلاع على صفحات المركز عبر الضغط على التطبيقات أدناه:

تصميم وإخراج
ربيع معروف مراد

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات 3
الإهداء 5
تقديم خالد مشعل 7
المقدمة 11

الفصل الأول: تجربة العزل الأولى ..... (13–65)
مقدمة: حياة العزل 15
أسباب عدم النوم 20
أقسام العزل 23
النوع الأول من العزل 24
النوع الثاني من العزل 25
المرحلة الأولى من العزل في سنة 1997 28
قسم العزل أيالون "القسم القديم" 31
عصام 34
إيذاء وصمود 36
رياضة على الرغم من القيود 37
الإضراب عن الطعام 39
سجينان من عائلتي مقداد ويونس 46
زيارة الوالدة 47
كتب ووسائل تسلية 50
نقل عصام 52
قصة المعلبات 53
المشاكل مع السجناء اليهود 53
فك القيود 54
زيارات هشام عبد الرازق 55
زيارة أخي أكرم 55
مرور عام ووصول تيسير سليمان 56
قصة الفأر 57
وفاة والد تيسير 58
الإضراب الجديد 62
الانتقال إلى عزل عسقلان 63

الفصل الثاني: تجربة العزل الثانية .....(67–135)
نبذة بسيطة عن الفترة الوسط ما بين العزلين الأول والثاني 69
الانتقال إلى هدريم..... 70
الانتقال إلى عزل شطة..... 71
قسم العزل في شطة..... 74
أيامي الأولى في الزنزانة 76
زيارات المدير والإدارة الأسبوعية 78
الإضراب وخروجي من شطة..... 83
عزل بئر السبع 85
أشخاص وأسرى أمنيون عشت معهم 101
في العزل في سجن أيالون 112
قصص حدثت معنا..... 118
عزل عسقلان 123
عزل ريمون..... 124
عزل السبع من جديد (عزل إيشل) 128
عزل ريمون للمرة الثانية 133

الفصل الثالث: العزل بطعم الحب.....(137–173)
إلى عزل ريمون من جديد..... 144
محكمة الولايات المتحدة الأمريكية 146
إجراءات الخطوبة 148
العريس آخر من يعلم 149
عزل أيالون من جديد 153
عزل عسقلان من جديد 158
إضرابي عن الطعام وصفقة وفاء الأحرار 161
عزل ريمون من جديد..... 165
إضراب الكرامة والخروج من العزل..... 168

الخاتمة..... 175
الملاحق..... 177
فهرست 211
الكاتب في سطور..... 224

الإهـــداء

إلى أبناء الشعب الفلسطيني في أماكن وجوده كلها

إلى المظلومين والمعذبين والمسجونين والمعزولين دفاعاً عن حقوقهم

من أجل تحرير أوطانهم

إلى أحرار العالم وعشاق الحرية

إلى غفران زامل خطيبتي الصابرة، رفيقة دربي، وشريكة معاناتي، وَمن لها

الفضل بعد الله في إتمام هذا الكتاب بتشجيعها لي، وتحمّلها الساعات

الطوال تكتب، وتفرّغ ما أرسله لها حتى يرى هذا الكتاب النور

تقديم

خالد مشعل*

إنها ليست مذكرات سجين في أي سجن أو كأي سجين، ولا هي صفحات من أدب السجون المعتادة؛ بل هي "خمسة آلاف يوم في عالم البرزخ"، هكذا سماها كاتبها الأخ الحبيب القائد حسن سلامة، الذي ما زال أسيراً خلف القضبان.

فهذا العالم الاستثنائي الذي عاشه ثلاثة عشر عاماً وزيادة، لا هو بالحياة المعتادة في السجون ولا هو بالموت، بل حالة بينهما، "وسط بين عالم الأحياء وعالم الأموات"، "سجون صغيرة داخل السجون"، "صناديق مغلقة كعلب السردين"، "أقسام مصنوعة للموت البطيء"، بل "هي زنازين أشبه بالقبور"، "يتم انتقاؤها من قبل خبراء متخصصين في تعذيب البشر"، لإشباع ساديّتهم بالانتقام من أبطال المقاومة وقادتها ورموزها، وإلحاق أكبر قدر من الأذى فيهم، في أجسادهم وأبعد من ذلك، لعلهم يظفرون منهم بانكسار أو يأس أو استسلام أو تغييب!

"كل شيء في تلك الزنازين، الصناديق، القبور، وفي حياة المعزولين غير طبيعي"، "الحرمان هو الشيء الأساس فيها"، "الحرمان بمفهومه الحقيقي"، "حرمان الإنسان من إنسانيته"... .

حرمان من الشمس، القمر، النجوم، من السماء والأرض، من الهواء، من الليل والنهار، من الفصول الأربعة وتواليها ومعناها،... من النوم المنتظم، من التواصل مع محيطهم الإنساني.

خمسة آلاف يوم عاشها بكل ثقلها المُضني، متنقلاً بين أقسام العزل في سجون الاحتلال الصهيوني؛ "أيالون" داخل سجن الرملة، "عسقلان"، "شطة"، "بئر السبع"، "ريمون". مثل هذا الزمن الطويل يكون لكثير من الناس ثقيلاً مملاً حتى مع النعماء والحياة الطبيعية، لا سيّما إن تخلله بعض الكَدَر، فكيف بتلك الآلاف من الأيام التي تمضي على أبطال المقاومة وقادتها، ومنهم صاحب هذه المذكرات،

* رئيس حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في الخارج.

يعيشونها على حدّ السيف، وحافة الموت، "على قلقٍ كأن الريح تحتي" على حدّ قول المتنبي، وإن كان يصف حالة أخرى متعلقة به.

أضف إلى ذلك ما يعانيه أبطالنا في العزل من إيذاء السجناء اليهود الجنائيين والمجرمين والمتطرفين، وبذاءاتهم، حيث يتعمدون وضعهم في أقسام العزل قريباً منهم، وغيرها من صور الإيذاء النفسي والجسدي الممنهج.

لكن، في قلب تلك المعاناة وصناديق العذاب ثمة صور أخرى، ولحظات من الفرح والحب وتجدُّد الأمل، مع حالة سامية في العلاقة مع الله سبحانه وتعالى، واليقين به، والتضرع إليه، في أجواء روحانية من العبادة والصلاة والقيام وصحبة القرآن والأذكار، لا تَعلّق فيها إلا بالله.

في هذه المذكرات الجميلة الصادقة يُشْرِكنا الأخ الحبيب حسن أبو علي معه في لحظات الفرح بلقاء إخوانه في السجون، خصوصاً بعد طول العزل، وهي المشاعر الأخوية الصادقة التي تزداد قيمتها في مثل تلك الظروف القاسية، حيث السَّنَد والمدد من الله ثم من الإخوة والرفقاء، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾، وفي مثل تلك الأجواء ثمة قصص طريفة، ووصف مؤثر لخلجات النفس والمشاعر الفياضة، تستحق التوقف عندها.

أما "غفران" فقد دخلت عالم الأخ "حسن" في أصعب لحظات المعاناة، فكانت منبعاً للحب، باعثاً آخر للأمل، وعوناً على الصمود والثبات ومضاعفة التحدي. إنها خطيبته من وراء الأسوار، في صورة من صور الفداء والإيثار الملهمة حين تربط زهراتٌ من فلسطين مصيرهن برموز المقاومة ورجالها الشجعان ممن يحملون على أكتافهم عشرات السنوات من السجن المؤبد، في زواج يبدو مستحيلاً، لكنه في أعراف الإيمان والنضال والوطنية والروح المحلِّقة يظل ممكناً ومحفوفاً بالكثير من الأمل والرجاء.

وسيصاب قارئنا الكريم بكثير من الدهشة حين يجد في هذه المذكرات إصراراً على مواصلة الدور الجهادي حتى من داخل السجن، بل العزل، ويرى كيف تواصل القائد أبو علي مع إخوانه في قيادة القسام وساعدهم في فتح خطوط عمل جديدة للمقاومة! إنها الإرادة التي لا تعرف المستحيل، ولا تقنع بالأعذار وإن كانت حقيقية.

وفي صورة من المشاعر المختلطة بين الفرح والحزن، تأتي صفقة وفاء الأحرار في تشرين الأول/ أكتوبر 2011، يفرح فيها أبو علي لإخوانه الذي شملتهم الصفقة بالإفراج، ويحزن لاستثنائه منها، وهي المشاعر الإنسانية الطبيعية. لكنه بالرغم من ذلك، وحين استمع لتصريح رئيس الشاباك الصهيوني آنذاك: (أنّ حسن سلامة لن يُفرَج عنه)، مطَمئناً بذلك الجمهور الإسرائيلي، الذي يعلم مَنْ هو حسن سلامة، ويدركون خطورته ووقوفه خلف العمليات الاستشهادية العظيمة للثأر من اغتيال الشهيد يحيى عياش رحمه الله في سنة 1996؛ حين سمع أبو علي ذلك، واجه التحدي بالتحدي، وحرص على استعراض القوة أمامهم من خلال ممارسة الرياضة بقوة، على الرغم من جسده المنهك جرّاء الإضراب الطويل الذي سبق تلك الصفقة، لتكون رسالة بليغة في الروح المعنوية العالية وعدم الانكسار، حتى في لحظة فوات فرصة كبيرة للحرية.

أما الإضراب عن الطعام فهو أحد أهم الوسائل التي يملكها الأسرى في السجون الصهيونية للخروج من زنازين العزل وانتزاع حقوقهم ومطالبهم. وفي مذكرات صاحبنا تناولٌ لتلك الإضرابات ووصفٌ لها ولدقائق أيامها، وصراع الإرادة مع السجان الصهيوني الذي يعمل على كسرها بكل الوسائل؛ لا سيّما "إضراب الكرامة" في ذكرى يوم الأسير الفلسطيني في 2012/4/17، والذي نجح أبو علي وإخوانه بعد 28 يوماً في انتزاع مطلبهم الذي أصروا عليه دون هوادة ولا مساومة؛ وهو الخروج من العزل، وتحقق لهم ما أرادوا بفضل الله تعالى، ثم بفضل ما سطروه هم وبقية إخوانهم في الحركة الأسيرة من أروع التضحيات والبطولات، والإرادة العظيمة في أعلى تجلياتها.

إنه الإنسان حين يتفوق على نفسه وعلى كل الصعاب والتحديات، الإنسان ذلك المخلوق الذي أبدعه الله وأودع فيه طاقة خلّاقة عظمى، فإذا ما توفر للإنسان حظ وافر من الإيمان، والاعتزاز بالنفس، والإصرار على الحرية، وألّا يكون عبداً إلا لله، وكان إلى جانب ذلك صاحبَ قضية عظيمة ورسالة سامية، فإنّه يُحوِّل تلك الطاقة الكامنة فيه إلى إبداع وإبهار وتجاوز المستحيل، وإنسانية رفيعة راقية تمنح الخير للبشرية جميعاً.

وتحسب أنك جِرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومما يسعدني في سياق هذه المقدمة أن أشير إلى أنّ الأخ (أبو علي) حسن سلامة، وشقيقه الأخ (أبو الحسن) ماجد، جمعتني بهما صحبة طيبة وأيام جميلة، في إطار مشروعنا الجهادي ونضالنا ضدّ الاحتلال، وهما فرعان طيّبان أصيلان من شعب عظيم، ومن أسرة مباركة؛ عرفتُ منها الوالدة الكريمة (أم نبيل)، والتي لا أنسى تلك اللحظات الجميلة التي زرت فيها غزة (كانون الأول/ ديسمبر 2012)، ونحن ننتقل، بالسيارة بصحبة الأخ الحبيب أبو العبد هنية من جنوب القطاع إلى شماله، بكل تلك الحفاوة والمشاعر الفياضة الصادقة من جماهير شعبنا، وفي تلك اللحظات لَمَحْنا (أم نبيل) وابنها الحبيب ماجد على جانب الطريق في خان يونس، يقفان مع تلك الجموع المباركة، فترجلنا وقَبّلنا رأس تلك الأم العظيمة التي أنجبت أبطالاً عظماء ما زالوا يقبضون على جمر الجهاد والمقاومة حتى التحرير والعودة بإذن الله.

وفي الختام؛

شكراً لك أخي الحبيب أبا علي وأنت تطوف بنا وتُحلِّق في هذه العوالم الجميلة الفسيحة على الرغم من ضيق الزنازين، لأنها عوالم نابعة من امتداد النفس، واتساع القلب، وعمق الإرادة، وتحليق الروح في الأعالي، بينما الجسد النحيل يقبع مُجبَراً في ذلك الضيق.

ولئن عشتَ فرحة الخروج من العزل، فإنك بإذن الله ستعيش أنت وإخوانك فرحة الخروج من تلك السجون اللعينة، وكسر قيودها وأغلالها، والعودة إلى الحياة الطبيعية مع أهلكم وشعبكم وأمتكم، ومع الوالدة الكريمة، والخطيبة العزيزة "غفران"، ثم مواصلة النضال والدور والرسالة، حتى نلقى الله جميعاً ونحن ما زلنا على العهد بإذن الله.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

خالد مشعل

24 صفر 1444 هـ

20 أيلول/ سبتمبر 2022 م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي جعل الابتلاء وسيلة لتمحيص عباده المؤمنين فقال في كتابه الكريم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (سورة البقرة: الآية 214)، ونصلي ونسلم على سيدنا وقائدنا وقدوتنا وحبيبنا محمد ﷺ.

فقد بدأت العمل في هذا الكتاب منذ أعوام، وكانت البداية عندما كنت في العزل أكتب يومياتي التي صودر كثير منها من إدارة مصلحة السجون الإسرائيلية في جولات التفتيش اليومية التي استهدفتني، ومع ذلك كنت أعود لكتابتها من جديد، وأمارس مهاراتي في إخفائها عنهم، وقد تمكنت من إرسال كثير من هذه اليوميات التي كنت أتحدث فيها عن هذا العالم الذي أطلقنا عليه اسم "عالم البرزخ" من خلال المحامي، أو داخل الرسائل التي كنت أرسلها لخطيبتي.

وبعد خروجي من العزل، حاولت أن أكتب عن حياتي في العزل مكملاً ما بدأتُه بتشجيع من خطيبتي غفران، ولكن أوضاع السجون وتقلباتها، وما يحدث فيها من قمع، خصوصاً بحقي، كان عائقاً لي في الاستمرار، فكنت أتوقف عن الكتابة أزمنة طويلة، ثم أستأنف من جديد، لمعرفتي بأهمية الأمر، واستجابةً لإلحاح غفران التي كان لها اهتمام كبير بأوضاع الأسرى. لذلك احتاج هذا الكتاب كل هذه الأعوام ليصبح جاهزاً، وكان آخر ما كتبته في سنة 2021 متمنياً أن أكون قد وُفّقت بكشف الغطاء عن هذه الحياة القاسية، وهذا العزل غير القانوني، الذي يمارس فيه الاحتلال وإدارة السجون كل ساديّتهم وعنصريتهم وحقدهم بحق أبطال الشعب الفلسطيني؛ قمعاً وتنكيلاً في زنازين وأقسام خصصت من أجل قتل الحياة في نفوس هؤلاء الأبطال.

وهي معركة حقيقية وشرسة نخوضها مجردين من كل شيء إلا إيماننا بالله الذي نستمد منه القوة لتحمّل ما نتعرض له من انتهاكات لحياتنا، وحرماننا من أبسط حقوقنا في أوضاع أقلّ ما يقال عنها إنها غير إنسانية؛ فإن وُفّقت في ذلك فهذا فضلٌ

من الله، وهو وحده صاحب الفضل والمنّة، راجياً منه سبحانه أن يصبح هذا الكتاب وثيقة رسمية يستخدمها العالم الحرّ وأحراره وشرفاؤه من أجل تجريم هذا المحتل المجرم، وهذا ما أتمناه، وهو هدف الكتاب منذ البداية.

شكراً

أخوكم الأسير الفلسطيني

حسن عبد الرحمن سلامة

2021/5/1م

19 رمضان 1442هـ

الفصل الأول

تجربة العزل الأولى

تجربة العزل الأولى

مقدمة: حياة العزل:

فكرة الكتابة عن العزل، وهذا الواقع المؤلم، أو عن هذه الحياة التي هي خارج أجواء الحياة، أو بالتوصيف الدقيق هي وسطٌ ما بين عالم الأحياء وعالم الأموات "البرزخ"، وهي للبرزخ أقرب. هذه الفكرة راودتني منذ زمن، بل منذ العزلة الأولى التي استمرت ثلاثة أعوام من سنة 1997 حتى منتصف سنة 2000. وقد كانت لي محاولات كثيرة سجّلتُ وقتها، ودوّنت على بعض كراريسي يوميات وأحداثاً ومواقف ومشاعر وأحاسيس، لكنها للأسف بقيت مدونات أو يوميات لم تزد عن ذلك، وكثيراً منها ما صادروه، ولم أجد من يشجعني على الكتابة عن هذه المأساة المؤلمة. ومرت الأعوام وخرجت بحمد الله من العزلة الأولى أنا وجميع إخواني المعزولين بعد الإضراب الشهير للأسرى سنة 2000، وفرحة الخروج من العزل أو انتقالي لعالم الأحياء، وفرحتي بذلك كأنني خرجت من السجن، كانت حينها فرحة كبيرة أنستني وقتها تماماً فكرة الكتابة، وانتهى الأمر، واحتفظت بيومياتي داخلي في صندوق مغلق. وكنت أعلم عاجلاً أم آجلاً أنني سأعود للعزل، هذا أمر لا شكّ فيه عندي، لمعرفتي الجيدة بهذا العدو، ولقراءتي ما بين السطور لأحاديث كثير من المسؤولين عندما كانوا يأتون عندنا في زيارتنا، لذلك أحببت أن أنسى كل شيء ولو كان النسيان مؤقتاً، وأعيش أجواء أخرى مع الشباب والحياة الاجتماعية التي حرمت منها. وعلى الرغم من ذلك لم أستطع التخلص نهائياً من هذا الشعور المزعج الذي ما فارقني: احتمالية الرجوع للعزل من جديد، وفعلاً صدق حدسي فقد نقلوني من سجن نفحة في منتصف سنة 2002 في قمع قاسٍ إلى قسم افتتح حديثاً في سجن بئر السبع (إيشل)، وهو بمثابة محطة انتقالية لمرحلة العزل والعودة إليه التي كانت فعلياً سنة 2003 أول شهر كانون الثاني/ يناير، واستمرت حتى لحظتي هذه التي أكتب فيها، أو التي بدأت أكتب فيها عن العزل، وحياتي في العزل، وعن هذا العالم القريب من عالم الأموات. ووافقت على الكتابة في هذا الوقت على الرغم من مرور ما يقارب تسعة أعوام متواصلة على وجودي في هذا العزل، والفضل في ذلك يعود لخطيبتي الحبيبة

التي دخلت حياتي وعالمي، ووافقت أن تقرن حياتها بحياتي فأنقذتني، وكان بيني وبين عالم الأموات خطوة واحدة، فإذا بصوتها العذب ويدها الحنونة تعيدني خطوات وخطوات بعد أن زرَعتْ بداخلي الأمل من جديد، وأعادت إلى حياتي شمسها وقمرها ونجومها وهواءها وطعمها. بل كان لها الفضل باستفزازي الإيجابي الذي جعلني أقتنع برأيها ومنطقها بلزوم الكتابة عن هذا العالم، وهذا العزل المؤلم، من الأشخاص والأسرى أنفسهم الذين عاشوا لأعوام طويلة في هذه المقابر، وعايشوا كل ما فيها من آلام وعذابات؛ لذلك ها أنا أكتب الآن بفضل الله أولاً، ثم بفضلها راجياً من الله أن يجزيها كل خير، ويجمعني بها قريباً خارج العزل وخارج هذه السجون، وأيضاً هو القدر الذي تزامنت كتابتي فيه عن العزل بذكرى دخولي العام الخامس عشر في 2011/5/17، قضيت منها ثلاثة عشر عاماً في زنازين العزل الانفرادي، على فترتين.

أكتب لكم، أو لمن يهمه الأمر، أو لمن يهتم ويتألم لعذابات المعذبين وآهاتهم، أو أنني أكتب لنفسي عن نفسي، عن حياتي، عن واقع عشت فيه، وعايشته، وما زلت حتى وأنا أكتب لكم أعيش فيه، لذلك أجد نفسي لا أرسو على برّ، أو متحيراً: كيف أبدأ، ومن أين أبدأ! لذلك سأترك الكتابة في هذا الموضوع، أو عن هذا العزل لمشاعري كي تقودني، وتكتب ما تشعر به، وما يحلو لها، مشاعر تحدثكم عن الحرمان بمفهومه الحقيقي، عندما يُحرم الأسير من أن يكون إنساناً له حق حتى في سجنه من أشياء قد يكون عليها إجماع عالمي، أو قل: إجماع ديني، أو قل إنساني! يُحرم من الشمس، من الهواء، من التواصل مع العالم الذي ينتمي له تحت حجج ومبررات أصلها الحقيقي عنصري، ودافعها الكره الأعمى. إنه الظلم الذي فاق كل حدّ، وتجاوز كل خط، هذا الذي سيكون سبباً أساسيّاً بإذن الله في زوال هذا الكيان الظالم القائم على الظلم، وهل هناك ظلم أشد من أن يحرم الإنسان من إنسانيته ككيان متكامل خلقه ربّ العالمين بمشاعر وأحاسيس، ميّزه بعقل يفكر، وقلب ينبض بنبض الحياة!

كثيراً ما أفكر، وأقول: هل يستطيع أن يتفوق الإنسان بشرّه وإجرامه على الشيطان صاحب الاختصاص! فإذا بهؤلاء القوم يتفنّنون بكل شيء لا أخلاقي لا إنساني، بل يبدعون في مجال الشر والخبث، وابتكاراتهم لا تتوقف في هذا المجال، والعالم خير شاهد، وبصمتهم في هذا المجال معروفة وموجودة في كل أنحاء العالم.

وما على المتشكك إلا أن يدقق في أغلب المصائب التي تعرض لها هذا الكون، وكانت من صنع البشر، وسيجد بصمتهم واضحة وضوح الشمس، أو فلينظر إلى فلسطين وشعبها، وما حلّ به حتى هذه اللحظة، فهو الشاهد الحق، والمثل القديم الجديد، والجرح النازف الذي سيكون داء الكي لقطع دابر هؤلاء القوم، والقضاء على شرهم، وتخليص أرضنا وشعبنا من احتلالهم بإذن الله.

الشمس، القمر، النجوم، السماء، الأرض، الهواء النقي الطبيعي، الليل والنهار، كل هذه الأمور التي خلقها الله لكي نستمتع بها، لا فرق في ذلك بين غني وفقير، مسلم أو مسيحي أو يهودي، أشياء سخرها خالق هذا الكون لكي تقوم بوظائفها التي خُلقت من أجلها، يستطيع كل مخلوق على هذه البسيطة الاستمتاع بها في أي وقت، دون أن يدفع مقابل ذلك. الشمس التي تشرق فيشرق بنورها الكون معلنة افتتاح اليوم فتدبّ الحياة، ويبدأ النشاط، وتباشر الخلائق أعمالها، وهي تلهج بالحمد، هذه الشمس وأشعتها التي تبثها في هذا الكون متلألئة، وكأنها انعكاسات الضوء المنبعثة من حبات الماس، بكل هذه الروعة والجمال التي لا يستطيع جسد الإنسان وخلاياه الاستغناء عنها، أما جمالها عند الغروب، ذلك المنظر الجميل الرائع! إذا نظرت له من على شاطئ البحر أدهشك ذلك الجمال، وللحظة ظننت أن البحر قد ابتلعها عندما تختفي داخله، ويسود الظلام، وتبدأ النجوم تصوير جمال هذه المناظر: الأرض الرملية أو الطينية الطاهرة ذات العبق الجميل الممزوج بعرق الفلاحين والمزارعين، الهواء العليل بروائح الزهور. كل هذا الكون بكل ما فيه من جمال وهبة من الله لنا لكي نستمتع به، ونتذوقه، يُحرم المعزولون في زنازين العزل من كل هذا الجمال من كل هذه الحقوق، من كل هذه الهبات الربانية، بفعل سياسة العزل القائمة على حرمان السجين المعزول من حقه بالاستمتاع بجمال الكون الذي خلقه الله للجميع، السجناء يعيشون داخل السجون التي قد تكون وسط المدينة أو قريبة من العمران ومن الناس، يفصلهم عن حياة الناس وحركتهم جدران وأسلاك وأبراج عالية. أما نحن المعزولين فنعيش في سجون صغيرة جداً مغلقة داخل هذه السجون نفسها في زاوية من زواياه، جرى انتقاؤها واختيارها من قبل خبراء متخصصين في تعذيب البشر، تقام على هذه المناطق المنزوية أقسام العزل الانفرادي بحيث تكون بعيدة عن السجناء، فإن كان يفصلهم عن العالم جدارٌ فنحن تفصلنا جدران عديدة، وأسلاك عديدة، ومسافات، لا تعرف أين أنت

كائن! ولا تستطيع تحديد موقع لك سوى عنوان السجن الكبير. فأنا الآن، وأنا أكتب، موجود في عزل أيالون، عنواني: سجن أيالون – العزل الانفرادي؛ وسجن أيالون المعروف أنه في مدينة الرملة، لكن أين هو في هذا السجن! لا أحد يعرف! فقط في العزل الانفرادي التابع للسجن، كل شيء في حياتنا غير طبيعي: المكان، التعامل، القوانين والظروف الأكل وحتى ما تحدثنا عنه من الكون وجماله وما فيه من أشياء كالشمس، لكن شمسنا تختلف، قمرنا يختلف، الهواء الذي يصلنا هواء مختلف، يُمرِض أبداً ولا يُنعش، هي المسميات نفسها لكن أبعد ما تكون عن أن تكون بالمضمون نفسه، لذلك هي عندنا أبعد ما تكون من أن نستطيع الاستمتاع بها، والاستفادة منها، صدقوني! إنه الحرمان الذي يمتد ليصل إلى كل شيء، ويبقى الشوق والحنين لهذه الأشياء.

نُحرم من أبسط حقوقنا في الحياة، إنسانيتنا في التواصل مع محيطنا الإنساني أو مع أي شيء قد يمت للإنسانية بأي علاقة، حتى نحن المعزولون داخل زنازين العزل نحرم من أن نرى بعضنا، أو أن يسلم أحدنا على الآخر، نكون بجانب بعض، كل في زنزانته أو داخل قبره، نشترك بجدار واحد. ومرات نستطيع التحدث، ونتناقش، ونتحاور، ويتعرف كل منا على الآخر، لكن لا نرى بعضنا، وهذا من الأشياء المبكية المضحكة! فأنت قد تتحدث مع جارك في الزنزانة، وقد تصبحون أصدقاء، لكن لا يرى أحدنا الآخر، وقد يحدث خطأ مثلاً من قِبل السجّان، بأن تخرج للعيادة أو المحامي أو لأي أمر آخر، فيراك من يحدثك، وإذا به يسألك وبشكل سريع: من الأخ!؟ اسمك لو سمحت؟ وتُفاجَأ بأن الذي يسأل، ويجيب هما الجاران في الزنزانة اللذان يتحدثان، وأصبحا أصدقاء!

ومن أجمل ما حدث معي أنني كنت في عزل عسقلان في سنة 2009، وجاء إلى العزل الرفيق أحمد سعدات (أبو غسان) أمين العام الجبهة الشعبية، وكنا نتحدث، وكان لا يراني، ولا أراه، وكل منا سمع بالآخر، وتحدثنا كثيراً، وبعد مدة نقلوه إلى عزل رامون، وبعده بمدة نقلوني إلى العزل نفسه، وكان القرار أن أكون معه في الزنزانة نفسها، وهذا نوع آخر من أنواع العزل، المهم: وصلت الزنزانة، وفتحوها، ودخلت عنده، وكان على بابها، وسلمت عليه، وعانقته، لأنني أعرفه عبر صوره التي كانت تنزل بالتلفزيون، ولأنهم أخبروني أنني ذاهب عند أحمد سعدات، وعندما سلمت عليه شعرت بأنه لا يعرفني، ولكنه خجلاً لم يسألني! خصوصاً أنني كنت أسلّم عليه

بطريقة الصديق الحميم، وبعدما أدخلت ملابسي، فإذا به يسألني: عذراً، مَن الأخ !؟ وبكل الاستغراب قلت له: أنا حسن سلامة، فإذا به يعيد التسليم من جديد معتذراً أنه لم يعرفني على الرغم من أننا تحدثنا كثيراً. وهذه قصة من قصص العزل ونوادره، وهذه قصة من قصص كثيرة، وذلك يعود للقوانين المفروضة علينا في أقسام العزل، وأيضاً لقسم العزل نفسه المبنيّ بطريقة كلّ ما فيها ضدّ الإنسان، سواء الزنزانة أم بابها أم الدخول والخروج للقسم، وسنتحدث عن ذلك. ولا تستغربوا أننا في أحاديثنا مع بعضنا في زنازين العزل على حسب المسموح إن تذكرنا نبدأ نعطي لبعضنا وصفاً لأجسامنا "طويل، قصير، رفيع، أبيض، أسمر، الشعر وهكذا"، ولكن هناك حتى الأحاديث ممنوعة، ففي بعض أقسام العزل يمنع الحديث، ومن يتحدث مع جاره يعاقب، وكثيراً ما عُوقبنا لأننا نتحدث، نوضع في أقسام عزل أغلبها أسرى جنائيّون، ويكونون بجانبنا، ونمنع في الوقت نفسه من الحديث معهم أو مع غيرهم، وإن كان مسموحاً فقد لا تستطيع سماع جارك بسبب عدم وجود هدوء نهائياً في هذه الأقسام. أبداً لا ترى أي شيء خارج القسم الذي تعيش فيه، وإن أمكن رؤية شيء فهو عبر مربعات صغيرة، سواء من فتحة صغيرة في الباب مغلقة تماماً، أم عبر شبكٍ مربع مسقوف به المكان الذي تخرج إليه ساعة في اليوم، كما يقولون لشمّ الهواء، وأنا أقول لزيادة المعاناة، والألم لدى المعزول.

أكتب هذه الكلمات، أو أتحدث عن تجربتي في العزل، وما زلت في كتابة المقدمة، وأنا شديد الشوق لأن أرى السماء دون حاجب أو حاجز، أو استمتع بأشعة الشمس، أو أن أرى النجوم أو القمر، أو حتى يصلني بسيرانه الطبيعي دون أن يصطدم بجدران وأسلاك، ويعبر مساحات حتى يصل إلى باب زنزانة أحدنا، فلا يجد له مكاناً ليدخل إلا من أسفل باب الزنزانة، أو من فتحة صغيرة مغلقة دائماً ينتظر الهواء أن تُفتح على يد الشرطي، لكي ينظر كل فترة داخل الزنزانة نظرة أمنية يطمئن على سلامة الزنزانة من تخريب أو تكسير قد نُحْدثه فيها، أو ليكون أول من يزفّ الخبر للمسؤولين عنده بأن الأسير الأمني الذي اسمه كذا في زنزانة رقم كذا وجدته معلّقاً في وسط الزنزانة شانقاً نفسه. وقد تستغربون إن قلت لكم: توجد أقسام عزل مغلقة تماماً كصندوق مغلق نكون بداخلها كعلبة السردين، زنازين بجانب بعض، لا يوجد

بها شباك، ولا تدخلها الشمس، وإن كان فيها فتحة صغيرة للحمام لا تعرف داخلها الشتاء من الصيف، وهي سبب رئيسي لأمراض كثير من المعزولين.

نُحرم في العزل حتى من حرية أعضاء جسدنا داخل هذه القبور الصغيرة، التي لا تفتح إلا بعد تقييد اليدين من الخلف من فتحة خاصة بالباب لا تفتح إلا لذلك، أو لتدخيل الأكل، وتقيّد أقدامنا من فتحة أخرى خاصة أيضاً موجودة أسفل باب القبر، وبعد الاطمئنان أنك مقيد يفتح باب الزنزانة، وحولك يكون ضابط وعدة شرطة، وكلهم متأهبون للانقضاض عليك إن صدرت منك حركة، وكثيراً ما حدثت هذه الأمور بفتح غاز على سجين مقيد توقّع الشرطي أنه أراد أن يعتدي عليه، "يعتدي عليه وهو مقيد من الخلف"!

أُحرم من النوم بشكل طبيعي أو أي وقت أريده وإن حدث ونمت تنام كما قال الشاعر:

ينام بإحدى مُقلتَيه ويتّقي ... بأخرى المنايا فهو يقظانُ نائمُ

أسباب عدم النوم:

1. أنك في قسم لا يوجد به نظام، حولك أسرى جنائيون مدمنون على كل أنواع المخدرات، وهؤلاء طوال الوقت يطرقون على الأبواب، ويكسّرون في زنازينهم، ويتقاذفون المسّبات والشتائم التي لا أظن أنها مألوفة عند أحد، أو يرغب أحد في سماعها. وكثيراً ما ينالنا من السبِّ جانب تحت أسباب وذرائع عنصرية، وإن صدر منا احتجاج فبكل بساطة يقولون: هؤلاء مجانين! وبِاسم أنهم مجانين فمسموح لهم أن يسبونا، ويشتمونا بكل أنواع الشتائم، ويسبون أهلنا وأمهاتنا وأخواتنا، ويشتمون ديننا، ولا يتركون لنا أي فرصة هدوء لنصلّي.

2. إجراء العدد والإحصاء اليومي الذي في أقسام العزل ليس له موعد محدد، قائم على المزاجية، وخصوصاً عدد الصباح والمساء، ويجب ألا تكون في الحمّام، وإن كنت نائماً يجب أن تستيقظ لكي تقف للعدد حتى إنك لا تستطيع تنظيم حياتك أو نومك، لأنه عندنا في العزل لا يوجد نظام، الأمر قائم على المزاجية للضابط أو المسؤول. والعدد على حسب الضابط يكون بشكل استفزازي سواء من يطرق على الباب،

أم من يفتح "الطاقة" (شباك صغير) بصورة قوية مزعجة، أم بصوت فيه نوع من العنف.

3. التفتيشات المتكررة والمستمرة التي ليس لها موعد، سواء نهاراً أم ليلاً، وقد تكون كل يوم أو شبه يومي أو أسبوعية، وغالباً ما تكون مباغتة، تجدهم فجأة داخل الزنزانة، وقد فتحوها دون أن تشعر، واقتحموها، وهجموا عليك لكي يمنعوك من الحركة؛ ويقيدونك فوراً، ويكونون جاهزين بلبس القمع "خوذات، وعصي كهربائية، وعلب غاز مدمع، وأمور كثيرة تستخدم لقمع السجين، وإرهابه، وتخويفه"، ويستمر التفتيش ساعات، تبقى طوال وقت التفتيش مقيد اليدين من الخلف واقفاً رغماً عنك، وكأنهم لا يطبقون القانون إلا في ما يؤذي السجين، فعلى حسب قانونهم يجب أن يكون التفتيش أمام السجين الذي لا يستطيع رؤية شيء، لأن من يقوم بالتفتيش يتجاوز مرات الخمسة من أفراد شرطة في زنزانة صغيرة.

4. فحص الزنزانة الصباحي، ويجري تقييدك، والدخول للزنزانة وتفقدها مساءً أيضاً مرتين في اليوم بشكل دائم، ولكن أكثر الأشياء مزعجة هي فتحة الطاقة الموجودة في الباب، وهي فتحة مربعة 15 سم^2 مغلقة بشكل دائم في أقسام، وفي أقسام مفتوحة، لكنها مغلقة، وهي فعلاً نوع من أنواع التعذيب، لأنه إن كانت مفتوحة يغلقونها كل ربع ساعة أو أقل، إن جاء سجين أو إن خرج سجين، أو أي أمر في القسم لا يجري تنفيذه بسرعة، حيث يقوم الشرطي بإغلاق هذه الطاقات الحديدية بإحكام واستفزاز بعد خروج السجين أو دخوله، خمس دقائق أكثر أقل يعود يفتحها بالأسلوب نفسه. وهكذا ما بين الفتح والإغلاق وفتحها وإغلاقها يصدر صوت مزعج جداً في كل زوايا القسم، وفي الأقسام التي تكون هذه الطاقة مغلقة تشترك مع الأقسام الأخرى في الإزعاج الليلي الذي يبدأ بعد انتهاء العدد المسائي تقريباً بعد الثامنة ليلاً، حيث يبدأ الشرطي كل ربع ساعة بتفقد الزنازين بفتح هذه الطاقة، والنظر إلى الزنزانة وتفقّدها وتفقد الأسير وإغلاقها، وهكذا يستمر الأمر طوال الليل ما بين فتح وإغلاق بصوت مزعج جداً. وقد تكون هذه الطاقة من أكثر الأشياء المزعجة لنا طول اليوم، خصوصاً ليلاً، ولا يوجد أمامك حلّ سوى أن تنسجم مع صوتها، وتتعامل معه كلحن أو مقطوعة أو صوت مغنٍّ، ويجب أن تقنع نفسك حتى يقتنع دماغك بذلك فيسمح لك

بالنوم. أضف إلى ذلك الحر الشديد أو البرد الشديد أو الحشرات، وخصوصاً كل أنواع البعوض التي تكون سعيدة، وهي تُغِير على أجسامنا، وتستمتع بلدغنا وامتصاص دمائنا، وما أكثر المعارك الليلية التي خضناها مع هذه الحشرات نلاحقها حتى نتعب، وما تغلبنا عليها، فنعود للنوم، وتعود هي للّدغ والقرص.

قصتنا مع الحرمان في هذا العزل هي فعلاً العزل نفسه، ومن خلال شرحنا وتفصيلنا عن كل شيء في العزل سيكون الحرمان الشيء الأساسي والأمر الرئيسي الذي يفرض على السجين المعزول، هذا السجين الذي ليس له حول ولا قوة، يوضع في أقسام العزل مجرداً من أهم سلاح خارجي كان يتسلح به: محيطه، وأصدقاؤه، وإخوانه الذين كان يشعر معهم بالأنس والقوة والمؤازرة، بمن يسأل عنه، ويدافع عنه، ويحدثهم، ويتحدثون إليه، يجردونه من هذا السلاح، ويوضع وحيداً في زنازين العزل بما يملك من أسلحة نفسية تساعده على الصمود، بقدر قوة هذه الأسلحة؛ كالإرادة، وقوة الشخصية، والشكيمة، والجرأة، وقوة الإيمان، وبما يملكه من مخزون ثقافي ومفاهيم ومبادئ وأمور أخرى نفسية تساعده جداً في معركة فرضت عليه فرضاً، وتمّ جلبه إليها قسراً، وللصدق أقول: إن الأمر ليس سهلاً، وليس بسيطاً، لأن هؤلاء الشياطين يملكون الإمكانيات الكبيرة التي يسخّرونها من أجل تحطيم نفسية هذا السجين وهذا المعزول، قد يكون هناك أسرى مستهدفون لأسمائهم أو لأفعالهم أو لمكانتهم القيادية أو لمدى خطورتهم، لكن الاستهداف هو استهداف عام لكل أسير، ولكل سجين، يستطيعون النيل منه أو تحطيمه بصورة عنصرية قائمة على أنهم ينظرون إلينا جميعاً، إلى كل أبناء شعبنا، أن وجودنا، مجرد وجودنا، في هذه الحياة يشكل خطراً عليهم، وعلى مشروعهم الاحتلالي، لذلك هم لا يستثنون أحداً حتى مَن سقط في منتصف الطريق، وخارت قواه، أو رفع الراية؛ هم لا يتركونه أبداً، بل يجهزون عليه حتى الرمق الأخير، وهذا يعود لطبيعة هؤلاء الناس، وكيف يفكرون، ولقد كشفهم رب العزة في كتابه العزيز، ومن يقرأ القرآن ويتدبر آياته يقف على حقيقة هؤلاء القوم، ويعرف كم هو الشر والحقد المجبولة بها شخصيتهم.

ومن خلال ما سنتحدث عنه حول جريمة العزل وهذه السياسة العنصرية ستتضح كثير من الصور عن تفكير هؤلاء القوم، ولكي نتعرف جيداً على هذه

السياسة يجب أن نتحدث عن هذه الأماكن بشيء من التفصيل، كشرح عام وحديث خاص عندما يأتي حديثنا عما عايشناه داخل كل قسم من هذه الأقسام.

أقسام العزل:

أقسام العزل، أو أقسام الموت البطيء، أو أقسام البرزخ كما يحلو لكثير أن يسموها، وأنا أسميها كما تحدثت، فهي حياة الوسط ما بين الحياة الطبيعية وحياة البرزخ، وهي لحياة البرزخ أقرب، وهي كل لحظة تتسع المسافة بينها وبين الحياة العادية، وتضيق المسافة بينها وبين حياة البرزخ، أيهما سيسبق! الأمر متروك، ومفتوح لعوامل كثيرة، ومتغيرات كثيرة قد تكون معك، وأحياناً تكون ضدك، وأتمنى كغيري أن تمتد لنا أيدي أبناء شعبنا، وأن يصلنا نفَسُهم، وبهمتهم وإحساسهم العالي بواجبهم يوقفون انحدار عالمنا نحو البرزخ، ويبدأ سَحبنا وجذبنا إلى عالمهم الذي نحن جزء منه، وننتمي له، وأملنا بالله كبير جداً أن يكون ذلك قريباً، خصوصاً بعد أن زادت آلامنا عن حدّ الألم، وعلت أصوات آهاتنا التي وصلتهم بالتأكيد، ولامست فيهم الضمير والنخوة والحس الوطني، كلنا أمل بذلك وأملنا بالله ليس له حدود أن بزوغ الفجر سيكون قريباً جداً لنا نحن المعزولين، ولجميع أسرانا بالفرج القريب العاجل.

عندما أريد أن أتحدث عن هذه الأقسام، والتي هي في نظري أقسام للموت البطيء تعود بي الذاكرة إلى كل هذه الأقسام التي عشت بها، وخبرتها جيداً، وعلى الرغم من الاختلافات فيما بينها سواء من حيث تركيبة القسم: بعضها جديد وبعضها قديم، أم بعض الاختلافات الشكلية في بعض القوانين بخصوص ما هو مسموح، أو ما هو ممنوع؛ لكن كل هذه الأماكن لها هدف واحد: الانتقام من الأسير، وتحطيم نفسيته، وإن اختلفت في بعض الشكليات التي لا تقدم ولا تؤخر عند السجين. وهنا، ومن باب التوضيح، القادمُ الجديد لهذه الأقسام في أيامه الأولى لا يشعر بأجواء هذه الأقسام التي نتحدث عنها، بل عندما تسأله في أول عزلته قد تتفاجأ عندما يخبرك بأنه سعيد ومبسوط، ولأنه قادم من أقسام مليئة بالأسرى، وكل غرفة هناك يوجد فيها أكثر من عشرة أسرى، يعني لا يوجد هناك خصوصية للشخص يحتاجها في حياته، فينتقل فجأة من تلك الأقسام إلى زنزانة يعيش فيها وحده، أو يشاركه فيها أسير واحد، فيشعر بشيء من الخصوصية التي حُرم منها، لذلك عندما يُسأل في أيامه

الأولى تجده سعيداً مبسوطاً، لكن سرعان ما تبدأ هذه السعادة بالأفول رويداً رويداً مع مرور الأيام والشهور، وتبدأ هذه الحياة بقوانينها وصعوبتها تؤثر عليه، وتنال من سعادته، ويبدأ يشعر بالمعنى الحقيقي للعزل، حتى وإن توفر له داخل زنزانته كل ما يسليه من تلفزيون ومذياع وأمور أخرى لتجهيز الطعام أو ما شابه؛ وهذه نقطة أساسية ومهمة كان يجب الإشارة إليها.

أقسام العزل تقريباً في كل سجن من هذه السجون المترامية الكثيرة العدد؛ حيث يوجد قسم عزل أو ما يسمى قسم العقوبات، يوضع فيها مَن هو بنظرهم المخالف للقوانين والتعليمات؛ والعزل هو نوعان، وكل نوع يختلف عن الآخر اختلافاً كبيراً من حيث كيفية التعاطي مع الأسير، أو أين يكون لوحده أو معه شخص آخر.

النوع الأول من العزل:

هو النوع الذي يتحكم به مدير السجن، ويخضع القرار فيه بإيقاع عقوبة أقصى حدّ عزل لمسؤول المنطقة، سواء الجنوبية أم الشمالية في إدارة السجون، ويكون السبب في ذلك مخالفة الأسير لبعض الأمور الحياتية، مثلاً: يمسك معه شيء ممنوع في نظرهم، أو أن يدافع عن نفسه أمام اعتداء شرطي، أو عدم الوقوف على العدد، ومخالفاتٌ هذا هو طابعها يجري فيها إخراج الأسير من قسمه، ووضعه في قسم "السنوك" حتى يتم محاكمته، أو يوضع في قسم العزل تحت قوانين السنوك، وهذا يعني لا يكون عنده شيء على حسب العقوبة. والسنوك هي زنازين لا يوجد بها حمّام أو أي شيء، وهي مخصصة للعقاب، ولأن القانون يمنع استمرار الأسير في السنوك بشكل متواصل أكثر من أسبوع، وحكمه يكون 14 يوم سنوك، لذلك يعيش الأسبوع الأول في وضع سنوك كامل، لا يوجد عنده شيء، وبعدها يرفع عنه السنوك ويخبروه أنه الآن في أسبوع العزل ولا يُعطى أيضاً أي شيء سوى يسمح له بالخروج ساعة من هذه الزنزانة التي كان محروم منها في الأسبوع الأول، وحتى بعد انقضاء أسبوع العزل يعود لأسبوع السنوك الباقي من العقوبة. وبعد انتهاء عقوبته يكون بين أمرين: إما العودة للأقسام، أو وضعه في أقسام العزل، ويصبح معزولاً، ويكون قرار خروجه من العزل بيد مدير السجن أو مسؤول المنطقة، ويبقى في العزل، يجدد له العزل كل شهرين، وفي مرات يتم إبلاغه، ومرات لا يبلغ، وفي هذه الحالة يستمر

عزله إن كان في زنزانة لوحده لمدة ستة أشهر، خلال هذه المدة يجدد له داخل السجن، ولا يخرج لأي محكمة؛ وفي الغالب أن هؤلاء المعزولين وفق هذه المخالفات أو بناء على هذا النوع لا يزيد عن ستة شهور، ويخرج خلالها، أو عندما تنتهي المدة، إلا إذا كان هناك قرار باستمرار بقائه في العزل، وفي هذه الحالة يتم إخراجه للمحكمة لكي تقوم بتمديد عزله كل ستة أشهر إن كان لوحده، أو عام كامل إن كان يعيش مع شخص آخر. وموضوع هذه المحاكم صوري، ولا يساعد السجين، بل هو تشريع وجودِه في العزل لا أكثر ولا أقل، ويصبح هذا المعزول خاضعاً لهيئة أعلى، وهي لجنة العزل التابعة لإدارة السجون، والمسؤول عنها مدير إدارة السجون نفسه، وهذا المعزول قد يتم إخراجه في أي وقت على حسب قرار مسبق عندهم لا يبلغ فيه، أو في حالة احتياجهم لأماكن، ومثل هؤلاء الأسرى يزوروننا في هذه الأقسام باستمرار، وقد تكون هذه ميزة إيجابية لنا، نحن المعزولين، نرى وجوهاً جديدة، ونسمع أخبارهم وأخبار العوالم الأخرى.

النوع الثاني من العزل:

أما القسم أو النوع الثاني من العزل يكون بدافع أمني "خطر على أمن الدولة"، وبدون سابق إنذار، وفجأة، وبدون مقدمات يتم إخراج الأسير من السجن أمام دهشة الجميع من الأسرى، وبدون إعطاء أي مبررات، ويتم وضعه في قسم من أقسام العزل دون أن يعرف السبب لمدة 48 ساعة أو 72 ساعة حتى يحضر مسؤول المنطقة أو نائبه، ويجلس معه ويخبره بأنه تمّ أخذ قرار من جهات عليا أمنية، أو من جهاز الأمن العام الإسرائيلي (الشاباك) Israel Security Agency—ISA (Shabak) بوضعه في العزل لأنه يشكل خطراً على أمن الدولة، أو لأنه، حسب معلوماتهم، يواصل نشاطه من داخل السجن، وحجج كثيرة من هذا النوع؛ ويكون العزل مفتوحاً، ويتم تجديده مبدئياً لشهرين من قِبَل هذا المسؤول، وبعدها يجدد كل شهرين غيابي لمدة ستة أشهر إن كان لوحده، وبعد ستة أشهر يتم تجديده عن طريق المحكمة، وإن شاركه أحد في الزنزانة يتم تمديده عام كل مرة عبر محكمة، ويبقى في العزل "هو ونصيبه" أعوام، كم عددها! الله أعلم! وها أنا مثال حيّ أكتب عن العزل من داخل العزل، وأنا تقريباً في نهاية العام الثامن بشكل متواصل.

وهناك نوع آخر من العزل يطلبه السجين نفسه لأسباب لها علاقة بظروف ومشاكل لهذا السجين مع باقي السجناء، سواء مشاكل إدارية، أم مشاكل لها طابع أمني، كارتباطه مع جهاز المخابرات الإسرائيلي.

تخضع هذه الأقسام "أقسام العزل" لرقابة شديدة، باستمرار التفتيش، والفحص المستمر، والتدقيق على كل شيء، وتحديد الأغراض المسموح أن تكون معك، والملابس والكتب. طبعاً في أقسام العزل ممنوع زيارة الأهل، وممنوع من الدراسة في الجامعة، ونادراً ما يتم إحضار صحيفة القدس، ويسمح لك بالاشتراك بالصحيفة العبرية على حسابك الشخصي، ويسمح لك بشراء أغراض أكل وشرب وأمور أخرى من الكنتينا على حسابك الشخصي؛ طبعاً الأكل الذي يأتي من الإدارة لا يكفي وغير جيد، وإن جاء شيء مقبول يتم إعادة طبخه من جديد، وأحياناً وليس في كل الأقسام يُسمح لنا بشراء خضروات: "بطاطا، بندورة، ليمون، الفلفل" كل شهر، وأحياناً يسمح لنا بشراء الدجاج، ولكن هذا تمّ بعد ضغط كبير من قِبل الأسرى الأمنيين، ولكن ليس في كل الأقسام، والأمر مزاجي متروك لمدير السجن.

القسم قائم على المنع من كل شيء، وخصوصاً للأسير الأمني الذي يُستفرد به في هذه الأقسام لمصادرة كل حقوقه، وعدم إعطائه أي شيء، والتعامل معه بقمع في حالة حاول عمل أي خطوة احتجاجية.

المعاملة في هذه الأقسام سيئة بكل معنى الكلمة، فعلاً تتكشف لك حقيقة هؤلاء القوم من خلال احتكاكك اليومي معهم، لأنك مضطر لذلك لكي تعالج أمورك اليومية، فلا تجد من يسمع، فقط التسويف الدائم، والرفض لكل شيء تطلبه، والتعامل بحقد ومكر واضح، وخصوصاً من قِبل الشرطة، نادراً ما يأتي مدير السجن لمعالجة المشاكل، وإن جاء فقط لكي ترى في عيونه كمية الحقد، وإن تحدثت معه، أو تحدث معك فلا يعطيك شيئاً، لأنه لا يريد إعطاءك أيّ شيء.

أما المحاكم في وضعنا هذا فلا تعطينا أي شيء، وقصتها معنا قصة طويلة من الممتع سماعها، وستسمعونها، لكي تتعرفوا على المحاكم الإسرائيلية التي نتقدم لها، وكيف تتلاعب بالقانون الذي ليس له وجود إن توجه أحدنا إلى المحكمة، بل تُستخدم المحكمة لإعطاء شرعية لكل الممارسات التي ترتكب بحقنا كمعزولين وأسرى.

طبعاً كما قلت أقسام العزل متشابهة مع وجود بعض الفروقات سنذكرها؛ في سجن السبع (إيشل Eshel) يوجد قسم عزل هو كقسم عزل عسقلان نفسه إن لم يكن أسوأ؛ وفي سجن السبع أوهليكدار Ohlikdar يوجد قسم عزل، وفي الفترة الأخيرة تمّ إجراء تحسينات عليه بتوسيع زنازينه؛ وفي سجن أيالون يوجد قسم عزل، وهو يُعدّ أسوأ أقسام العزل، وسنتحدث لماذا! على الرغم من أن زنازينه أكبر! وفي الشمال في سجن جلبوع يوجد قسم عزل؛ في سجن شطة يوجد قسم عزل أيضاً، وهو من أسوأ الأقسام القمعية؛ وفي سجن ريمونيم يوجد قسم عزل؛ وفي سجن رامون يوجد قسم عزل، وهذا العزل تمّ فتحه حديثاً، ويعدّ أحدث أقسام العزل، وتمّ إدخال بعض التحسينات التي تضيع حلاوتها وجمالها، إن جاز لنا أن نقول عنها ذلك، بسبب السوء الكبير في تعامل الإدارة هناك، فهي إدارة قمعية جداً، وفي سجن نفحة تمّ تحويل أحد الأقسام إلى قسم عزل بشكل مؤقت. تقريباً هذه هي أقسام العزل الموجودة، والتي يتنقل بينها الأسرى الأمنيون كل عام أو كل ستة أشهر، وعلى حسب القانون الجديد ينقل المعزول كل ستة أشهر من عزل إلى عزل، طبعاً أنا من يتحدث إليكم دخلت كل هذه الأقسام، وعشت فيها، وكان هناك قسم عزل في أيالون قبل القسم الجديد وكان ذلك في سنة 1997، وكان أسوأ الأقسام، ومن شدة سوئه تمّ إغلاقه بقرار محكمة، وسنتحدث عنه خلال حديثنا عن الحياة في أقسام العزل. على الرغم من التشابه الكبير بين هذه الأقسام المترامية لكن لكل قسم طابعه الخاص الذي سيلمسه القارئ في أثناء حديثنا.

وهذه الأقسام جميعها على الرغم من الاختلافات البسيطة والطفيفة جميعها تطبِّق سياسة الحرمان التي تحدثنا عنها على الأسير، ومسلسل الحرمان للمعزول يطول، وقد تحدثنا عن جزء منه. فاستكمالاً لما تحدثنا عنه من الحرمان يحرم المعزول من أن يختار محطات التلفاز، فنحن مجبورون على متابعة ما هو مسموح من قبل الإدارة من محطات؛ وبعد إضرابات كثيرة استطاع الأسرى فرض قناة الجزيرة على الإدارة، وبالفعل تمّ ذلك، ولكنهم بالفترة الأخيرة سحبوها. كما نُحرم من أن نقرأ ما نريد، أو أن نتصفح ما نريد، لأنه بالأساس لا يوجد عندنا كتب أو صحف عربية أو حتى عبرية إلا إذا عملنا لها اشتراك، وفقط للصحيفة العبرية؛ والكتب مصدرها

الصليب الأحمر التي كانت نادراً ما تصلنا، وإن وصلت تكون باختيار الصليب، وكلها ذات طابع واحد، وليس لنا حقّ بتحديد أسماء كتب نريدها، أو نرغب في قراءتها.

أعوام طويلة حُرمت خلالها من زيارة أهلي، أو الاتصال بهم، أو أن أسمع أخبارهم، بل إنني في فترة من الفترات حُرمت من مجرد مراسلتهم، والآن لي أكثر من عشرة أعوام لم أرَ الوالدة، وما يقارب خمسة عشر عاماً لم أرَ أحداً من أهلي، حتى شقيقي أكرم لم يُسمح لي بزيارته في سجنه، ولم أرَه منذ أكثر من عشرة أعوام، ومع أنني أكتب الآن هذه الكلمات موجود في السجن نفسه الذي يوجد فيه أخي، وهو في سجن مستشفى الرملة، وأنا في عزل الرملة أيالون، فهو بجانبي، ومع ذلك لا يُسمح لي بزيارته، ورُفض كل طلب تقدمت به، وكل التماس للمحكمة.

وهذه نظرة سريعة عن حياة الحرمان التي فُرضت علينا كمعزولين، وهي دائرة متكاملة من الحرمان لا تنتهي، ندور بداخلها، وكل يوم تكبر، وتتسع، وتزداد قساوة، ونزداد حرماناً، ونزداد شوقاً.

المرحلة الأولى من العزل في سنة 1997:

تجربتي مع هذا العزل أو مع هذه الأقسام المصنوعة للموت البطيء، وهي أقرب ما تكون لحياة البرزخ، قديمة قدم سجني أو اعتقالي الذي يدخل في 2011/5/17 عامه الخامس عشر، وكانت عزلتي الأولى مع بداية اعتقالي، فقد اعتقلت في 1996/5/17، ومكثت في غرف التحقيق حتى شهر كانون الأول/ ديسمبر من السنة نفسها. أخرجوني للأقسام لأقل من شهر، ثم عدت مرة أخرى لقسم التحقيق، ومكثت شهراً آخر، وخرجت في الشهر الثاني من سنة 1997، هذه الفترة عشتها في قسم عسقلان في داخل أقسام المعتقلين الأمنيين، وكانت فترة نزول للمحاكم، وهي فترة عذاب حقيقي بسبب عمليات التنكيل التي كنت أتعرض لها من قِبل وحدة النحشون؛ المسؤولة عن تنقلات الأسرى بين السجون والمحاكم والمستشفيات، وكنت وقتها أنزل للمحاكم بشكل خاص بمفردي، وهذا كان يجعلني عرضة دائماً للتنكيل، ونادراً ما كنت أعود من المحكمة بدون أن أتعرض للضرب. وقد حاول المعتقلون عمل شيء لمساعدتي لكنهم لم يستطيعوا، واستمر هذا المسلسل، وكانت محاكمتي في هذه الفترة تتم في إيرز Erez، وفي محكمة بيت إيل في رام الله، وفي محكمة المجنونة في الخليل.

ومن الأمور المهمة التي يجب ذكرها وأنا في بداية حديثي عن تجربة العزل، وهو حدث مؤلم مضحك، أنهم أخرجوني للمحكمة في آخر أيامي في قسم التحقيق، وكانت رحلة عذاب، فقد أخذوني مقيداً من الخلف، والكيس في رأسي طوال الطريق، حتى وصلت لباب المحكمة في الخليل، ورفعوا الكيس عن رأسي على باب المحكمة، وكان شعري طويلاً جداً، وشكلي يوحي بأنني قادم من عالم الأموات، دخلت القاعة فإذا هي ساحة مليئة بالصحافة: أشكال وألوان، وأعداد كبيرة من الجنود والمجندات يجلسون داخل قاعة المحكمة، وكأن الكل ينتظرني! وبمجرد دخولي بهذا الشكل، وأنا مقيد، تزاحم الصحفيون حولي، كلٌّ يريد أن يسأل سؤالاً واحداً كان يتردد على ألسنة الجميع، أشعرني أنني قادم لتنفيذ حكم الإعدام فوراً، لأنهم جميعهم سألوني السؤال نفسه؛ هل تتوقع حكم الإعدام!

صدقاً كان موقفاً رهيباً، خصوصاً أنني قادم من قسم التحقيق الذي أصبح لي فيه ما يزيد عن أربعة أشهر، وقتها تداخلت عندي كل المشاعر والأحاسيس، وأحسست فعلاً أنني قادم من أجل الموت، وسيتم تنفيذه الآن، ولا أعلم من أين جاءتني رباطة الجأش وقتها، لكن الفضل يعود لله سبحانه وتعالى، فهو الذي ثبتني، فدخلت قاعة المحكمة وأنا أبتسم رافعاً رأسي، وبكل برودة أعصاب أجبتهم عن سؤالهم عن الموت باليقين التام أن الإفراج عني سيكون أقرب مما تتصورون، وبمجرد أن سمعوا إجابتي ضجت القاعة بالضحك على هذا السجين المطلوب له الإعدام، وهو يتحدث عن الإفراج، وأعدتُ لهم إجابتي عدة مرات، ولم ينتهِ الضحك والهرج والمرج إلا عندما دخل القاضي لقاعة المحكمة.

ما قصدت قوله هو وضع قارئ المذكرات داخل الأجواء التي كنت أعيشها، والتي كانت مفروضة على حياتي حتى قبل عزلي وأنا موجود بين الأسرى. استمر الأمر هكذا حتى بداية شهر تموز/ يوليو 1997، وكانت أيامها أيام تصعيد وتوتر مع إدارة السجون، ووسط هذا التوتر أبلغونا ليلاً أنني يجب أن أكون جاهزاً غداً صباحاً في 1997/7/3 للخروج للعزل، ويومها أرسلت لقيادة المعتقلين في الأقسام أنني سأرفض الخروج، وفعلاً كان موقفهم داعماً لي، وطلبوا مني عدم الخروج، وهذا فعلاً ما حدث في الصباح؛ رفضت الخروج، ورفضت تجهيز نفسي، وتمّ إغلاق الأقسام، ومنعوا

أحداً أن يخرج أو يدخل، وكانت قوات النحشون القمعية جاهزة للقمع تنتظر التدخل لأخذي بالقوة، وفعلاً كل المعتقلين في القسم الموجود أنا به وقفوا معي وقفة رجل واحد، وهو رفض خروجي، وإن كان لا بدّ فيجب أن يكون بناءً على اتفاق يحدد فترة خروجي، واستمر الوضع على هذا التوتر حتى الظهر، ووقتها حضر ممثل المعتقل الناطق باسم الأسرى، وكان قد أخذ قراراً هو وقيادة المعتقلين أن يطلبوا مني الخروج لكي يجنبوا السجن قمعاً هم في غنى عنه، وفعلاً جاء، وتحدث معي، وأخبرني بقرارهم، فلم أجد أمامي سوى الرضوخ والموافقة على الخروج أمام رفض كل الأسرى عندنا في القسم. وفعلاً جهزت أغراضي سريعاً بمساعدة الشباب، وتمّ أخذي من قبل وحدة النحشون إلى قسم التفتيش، وهناك، وبسبب رفضي الخروج، تعاملوا معي بكل استفزاز خصوصاً في التفتيش، فقد وضعوا كل الأغراض فوق بعضها البعض: الأكل، والعصير، والملابس، والسكر، والملح، كلها كانت فوق بعضها، وأدخلوا جميع هذه الأغراض في الحقائب، ووضعوني، ووضعوها في قسم العزل في سيارة البوسطة التي انطلقت معلنة بدء حياة العزل في أول قسم أدخله، وهو قسم عزل الرملة أيالون "القسم القديم".

وصلت سجن الرملة عصراً، أنزلوني هناك مع كل أغراضي، وبدأت حملة التفتيش، طبعاً وأنا مقيد طول الفترة، ومع هذه القيود كنت أحمل الحقائب وأنقل أغراضي حتى انتهوا من التفتيش ليلاً. ثم نقلوني من مكان التفتيش إلى قسم العزل المشؤوم، وأغلق الباب، وبدأت حياتي الجديدة في قسم من أقسام الموت البطيء وقتها، ولأنني لا أعرف ماذا ينتظرني، وإلى أين أنا ذاهب! كل شيء مجهول، وغامض، وحتى مشاعري كانت غامضة، كانت تنتابني كثير من المشاعر، منها: الخوف من المجهول، والرغبة في المغامرة التي لا يفرق معها شيء، والتوتر، ومشاعر إيمانية فأكون هادئاً راضياً بقدري وصابراً ومحتسباً. وهكذا كانت مشاعري، لكن لا أخفيكم! وقتها كان عندي هاجس أن هؤلاء القوم أحضروني لهذا القسم من أجل التخلص مني، أو الاعتداء عليّ، أو النيل من صمودي، وكسر إرادتي، أو تشويهي، وهكذا أمور؛ وكلها أقسى من بعض، وأصعب، وكان أصعبها هو أن كل شيء مجهول الآن، لا أحد يتحدث معك أو تحدثه!

قسم العزل أيالون "القسم القديم":

كان دخولي لهذا القسم في 1997/7/3، وهذه المرة الأولى التي سأدخل فيها هذا القسم أو أقسام العزل. كان هذا القسم يقع في زاوية من زوايا سجن الرملة، ويُدخل إليه عبر باب بغرفة للشرطي يجلس فيها باستمرار؛ وهي زاوية من السجن تحتوي على هذا القسم، وعلى المطبخ، وعلى مكان لوضع أغراض الكنتينا، ومكان العيادة، وقسم خاص للأسرى الجنائيين على قضايا اغتصاب؛ وهؤلاء في العادة يتم وضعهم في أقسام خاصة بعيداً عن كل الأسرى.

قسم العزل كان في أول هذه المنطقة تدخل إليه عبر باب صغير، لا تتصور أن هذا الباب قد يوصلك إلى أي مكان، لا يوحي بذلك، وقفت بجانب أغراضي أو ما تبقى من أغراضي بعدما صادروا كل شيء كهربائي، وكل شيء مكتوب، كل الكتب، وكل أدوات الأكل، وتمّ إعطائي بعض الملابس، وبعض أغراض الكنتينا الموجودة في أكياس بلاستيك، وصحنين بلاستيك، ومعلقة بلاستيك، وكأس بلاستيك، بعد فترة طويلة من عذاب التفتيش لكل شيء، وحتى لجسدي بشكل عارٍ، وبشكل استفزازيّ، فقد أخرجوا كل ما في حقائبي، ووضعوا كل الأغراض فوق بعضها، وكأنها في سوق للتدليل، وكنت صامتاً طوال الوقت أفكر في حالي، وإلى أين أنا ذاهب، وماذا سيحدث معي! وأفكر في هؤلاء الشرطة، وهم يقومون بعملهم المستفز؛ كانوا يتفننون في استفزازي باستفزاز أغراضي، وقذفها، ورميها، والعبث في كل شيء؛ لم يكونوا وقتها يقومون بعملية التفتيش أبداً، كانوا يلعبون معي لعبة الأعصاب عبر ما يقومون به، ونظراتهم الحاقدة التي كانوا يوجهونها لي بنوع السخرية. على الرغم مما كنت أشعر به من رهبة الوضع بجانب باب هذا القسم، وقفت مع هذه الأغراض يقودني أكثر من شرطي مقيد الأقدام والأيدي من الأمام فقط من أجل حمل الأغراض ونقلها من باب إلى باب، وفجأة فتح الباب لهذا القسم، وإذا أمامي درج طويل يؤدي إلى الطابق الثاني دخلت ومعي الأغراض حاملاً إياها على مراحل، وصعدت الدرج الطويل حتى نهايته، وبدأنا نصعد الدرج الثاني حتى وصلنا إلى باب مغلق طبعاً، نزلت وصعدت الدرج عدة مرات بهذه القيود حتى أنقل أغراضي لأن القاعدة تقول "ساعد نفسك بنفسك".

بدخولي في البداية من هذا الباب أصبحت طبعاً لا أسمع شيئاً خارج هذا القسم، ولا أرى أيّ شيء، عزلة تامة ووحشة حقيقية، لا أعرف! خفتُ قليلاً، وزاد الخوف عندما فُتح الباب الثاني، ودخلت إلى هذا القسم، وكان أمامي مسؤول القسم وبعض الشرطة، ولكنني سمعت أصوات أناس يتحدثون، موسيقى، دوشة... كان هذا القسم قديماً جداً، وكل شيء فيه قديم: جدران مهترئة، ومواسير صدئة، وعليها كل أنواع العفن.

القسم عبارة عن سبع عشرة زنزانة، بجانب باب الدخول فوراً يكون أمامك جدار، وهو عبارة عن الجدار الخلفي لإحدى الزنازين، على يميني كانت أربع زنازين على صف واحد، أبوابها مقابل الجدار الخلفي للزنازين الأخرى، الزنزانة الأولى والثانية في آخر الممر بينهما فاصل حديدي كباب يفصلهما عن الزنزانة الثالثة والرابعة، يفصلهما أيضاً باب حديدي عن غرفة خاصة توجد بها مغسلة لغسل الغسيل، ومكان، يتواجد بها عامل "سجين مدني" يعمل كخادم في القسم، عندما دخلت تمّ إدخاله داخل هذه الغرفة، وإغلاقها عليه، طبعاً هذه الأمور تعرفت عليها لاحقاً، هذا على الجهة اليمنى، وعلى الجهة اليسرى حيث سأسير توجد غرفة للشرطي يجلس الشرطي فيها وحوله شاشات يراقب من خلالها كل القسم عبر كاميرات مزروعة في كل الممرات من القسم، وفي الساحة الصغيرة التابعة للقسم التي يخرج إليها سجناء هذا القسم لكي يشموا الهواء العليل!!؛ بجانب غرفة الشرطة توجد زنزانة خمسة، وبجانبها زنزانة ستة، وبجانبها زنزانة كمخزن لوضع الأغراض، وهي مغلقة تماماً، وبجانب هذا المخزن مكتب صغير يجلس داخله مسؤول القسم وعنده وحوله ملفات الأسرى، وأمام هذا المكتب زاوية مفتوحة تمر من خلالها لكي تصل إلى الجهة الأخرى من القسم، وهي صف واحد والزنازين بجانب بعضها البعض من زنزانة سبعة حتى زنزانة سبعة عشر؛ آخر القسم تسير في ممر ضيق عرضه تقريباً 1.5م، أمام أبواب هذه الزنازين جدار مغلق تماماً إلا من شباكين في هذا الجدار "شباك أوله وشباك وسطه"، وعليه جميع وسائل الحماية.

فعلاً! القسم كان قديماً جداً، كل شيء فيه مهترئ، مليء بالمواسير الغليظة المعلقة على الجدران وفي الأعلى، أرضية القسم قديمة، بلاطه قديم، وغالبيته مكسّر،

النظرة الأولى لهذا القسم تكفي لأن تملأ قلبك بالكآبة والتشاؤم، وتوحي إليك بأنك في قسم خاص.

كانت زنزانتي هي الأخيرة في آخر القسم، زنزانة رقم سبعة عشر، أبواب هذه الزنازين مغلقة تماماً إلا من فتحة في الوسط يتم فتحها من أجل تدخيل الأكل، أو أي أمور أخرى، أو تقييد الأسير، وفتحة علوية صغيرة جداً مشبكة يتم إغلاقها فوراً بمجرد دخول أو خروج أي سجين، فهي مغلقة باستمرار، مكان الساحة في وسط هذا الممر، وهي عبارة عن مساحة خارج القسم مضافة له مساحة مربعة بمساحة 3.5م^2، لها باب في داخل القسم، مغلقة تماماً خصوصاً من الأعلى بأسلاك وشبك طبقات وطبقات، بداخلها أكثر من كاميرة مراقبة، لمراقبة كل حركات الأسير، طبعاً يتم الخروج لها ساعة واحدة كل يوم بناء على جدول يضعه مسؤول القسم.

عندما وصلت إلى جانب زنزانتي، وبعد فتحها دخلت إليها، وأغلق الشرطي الباب، وقاموا بفك قيودي، وكنت بغاية التعب والجوع، كنت كمن يدخل على قبر، ما هذه الزنزانة المغلقة تماماً! وسخة الجدران، مهترئة جداً، وخالية من أي شيء إلا خزانة حديد على الأرض، وفرشة إسفنجية قديمة بدون غطاء، كانت حارة جداً، ولا يوجد مجال لدخول الهواء سوى من جهة الحمام، فتحة صغيرة تدخل منها مواسير المياه، أخذت أطرق على باب هذه الزنزانة لكي يأتي الشرطي، وعندما حضر طلبت منه مواد تنظيف، وأن يحضر قنينة ماء، فكنت أريد أن أشرب ماءاً بارداً فأخبرني أنه لا يستطيع، لأنه يجب أن تكون لي قنينة مسبقة موجودة في الثلاجة مكتوب عليها رقم زنزانتي، كنت ثائراً وغاضباً، وأكاد أختنق، فأخبرني أنه سيحاول أن يدبر لي قنينة. بدأت على الرغم من تعبي بالتنظيف في هذه الزنزانة باستخدام الماء، وكنت من شدة الحر قد خلعت ملابسي إلا ما يستر عورتي، فعلاً كانت اللحظات الأولى قاسية جداً على الرغم مما كنت أرى نفسي أنني أتحلى به من شخصية مرحة، أو ما أملكه من قوة إرادة، لكن صدقاً! كان هذا القسم كل ما فيه يوحي بالكآبة، وما زالت هذه اللحظات شاخصة في ذاكرتي على الرغم من مرور كل هذه الأعوام، وعلى الرغم من عودتي للعزل من جديد، لكن تلك اللحظات كانت من الأصعب على نفسي، لم يكن معي في زنزانتي شيء، كنت أشعر أنني فعلاً غادرت الحياة بمفهومها العادي،

كانت تصلني أصوات وأحاديث، أسمعها تأتي من بعيد، لا أعرف من أين وكيف! حتى أنا لم أكن أعرف أين أنا بالضبط، ولا حتى رقم زنزانتي، أو موقعها، وكل ما حدثتكم به سابقاً عرفته لاحقاً بعد مرور الأيام والأسابيع، وأصبحت أتعرف جيداً على محيطي، وأستفيق من هذه الصدمة.

كنت السجين الوحيد الأمني في هذا القسم، وجميع مَن حولي سجناء جنائيون عرب ويهود، وجميع قضاياهم من أخطر القضايا التي لا تسمح لهم كجنائيين بالتواجد مع أصدقائهم في باقي الأقسام، لأنهم يعدون حتى عند الجنائيين أسرى منبوذين، لذلك يتم وضعهم في قسم العزل، كل أسير في زنزانة لوحده لحمايته، كانت الأغلب قضيته: اغتصاب، واعتداءات جنسية، والبعض الآخر متهم بالتعامل مع الشرطة كجواسيس، وتمّ كشفهم، هؤلاء من كانوا رفقائي وزملائي في هذا القسم، كانوا مجانين أقرب من كونهم أشخاصاً عاديين، جميعهم كان مدمناً على المخدرات، ليلهم نهار، ونهارهم ليل، دائمي الطرق على الأبواب، مشاكلهم لا تنتهي، لغتهم الوحيدة في التعامل مع بعضهم البعض السب والشتم بألفاظ خاصة بهم، ليس لها وجود في القواميس العادية، وليست من لغة البشر المتعارف عليها، لهم لغتهم وألفاظهم وأسلوبهم. وحضرتي بدأت أتعرف على هذه الحياة وعلى هؤلاء الناس ولو من بعيد، كنت أسترق السمع لعلي أسمع من يتحدث بلغتي، وفعلاً تناهى لسمعي كلمات بالعربية من بعيد، فأخذت أنادي كغريق عثر على منقذ، ولكن لا حياة لمن تنادي! حتى ظننت أنني كنت أتخيل، أو كأنه حلم، أو تمنيات كنت أتمناها، فكففت؛ وكان الشرطي يأتي كل ربع ساعة أو أقل، يصل عندي ينظر إليّ، ولا يتحدث، ويذهب، ويغادر، وكأنه نظام أو قانون مفروض عليه، أو لعله التعامل القائم مع القادمين الجدد.

عصام:

مع ذلك، لم أيأس من المحاولات المتكررة لاكتشاف عالمي الجديد؛ كنت كل فترة أنادي، ولا أحد يجيب، كنت أنادي بصوت عالٍ، وما زلت أذكر كنت أقول: أبو الشباب، في حَدَا هُون! وأخيراً جاء الجواب من مسافة قريبة، من شخص اسمه عصام "سجين جنائي"، تبادلت معه بعض الأحاديث المتقطعة، بفعل وصول الشرطي، فقد فهمت من ذلك أنه ممنوع أن يتحدث معي، أو أن يصل قريباً من

زنزانتي، كان هذا عصام سجيناً جنائيّاً من القدس، متهماً بالقتل والسرقة، ولكن له مشاكل كثيرة مع السجناء في الأقسام، لذلك تمّ وضعه في قسم العزل. وكان هذا السجين عاملاً يتم إخراجه من زنزانته لكي يقوم بالتنظيف والغسيل وتوزيع الأكل على المساجين، وفي العادة أو المتعارف عليه في هذه الأقسام أن الأشخاص الذين يعملون في هذه الأعمال أشخاص يتم اختيارهم من قبل جهاز الأمن في السجن "يعني يعملون في خدمة مسؤول الاستخبارات في السجن"، وتكون لهم أكثر من وظيفة، وأهمها نقل كل أخبار السجناء إلى المسؤول الأمني، ويسمونهم عندنا في هذه الأقسام "الخليا" أي عمال النظافة. المهم أخبرني عصام بعدما عرّفته على نفسي، وعرف اسمي طبعاً، أخبرني أنهم طلبوا منه عدم الحديث معي، بل عدم الاقتراب من زنزانتي، وقاموا بوضع خط أحمر قبل الوصول إلى زنزانتي لكي يكون واضحاً للشرطي في كاميرا المراقبة في حال تجاوز عصام هذا الخط فينادي عليه، أو يأتي فوراً، طبعاً أنا لم أصدقه في بداية الأمر لكن تأكدت من ذلك في اليوم الثاني عندما خرجت للفورة أي للساحة، المهم أن عصام هذا كان يتحدث معي من بعيد، يقف أمام زنزانة أخرى ويحدثني، وكنت أسأله بنهم عن كل شيء في القسم، فأخبرني عن الزنازين، ومَن فيها ومَن عربي ومَن يهودي، وعن زنزانته، وأنهم طلبوا منه عدم إعطائي شيئاً، حتى الأكل سيصلني عن طريق الشرطي أو الماء من الثلاجة الجماعية في القسم. صدقاً كان حديثه ممتعاً آنسني جداً، وأخبرني أنه سيساعدني بقدر المستطاع، والجيد أنني كنت أملك بعض المعرفة في التعامل مع هؤلاء الناس قبل قدومي للعزل بسبب نزولي المتكرر للمحاكم، والنزول في محطة انتظار سجن آخر يكون فيه قسم اسمه "معبار" للمرور من سجن لسجن، ويكون في هذا القسم جنائيون وأمنيون، وهؤلاء الناس تعاملهم معك يكون مرهوناً أو مربوطاً بمدى استفادتهم منك، وكانوا يستفيدون منا بحصولهم على السجائر التي كانت وسيلتهم الوحيدة التي تخفّف عنهم عدم وجود مخدرات. وكانت أوضاعهم المالية تعيسة، لذلك كانوا مقابل عدد من السجائر مستعدّ أحدهم بيع ما يملك من ملابس أو أشياء أخرى، وكنت أعلم أن عصام هذا يُمنّي نفسه بالحصول مني على سجائر، أو بعض من أغراض الكنتينا، ومعرفتي للمعادلة سهّلت عليّ كثيراً من التعامل، وفعلاً كان يوجد معي بعض علب السجائر، وأيضاً كان وقتها يتم إعطاء السجين كل يوم ثلاث سجائر، لذلك طلب مني

أن آخذها من الشرطي، وألا أخبرهم أنني لا أدخّن، وهو بطريقته يستطيع بعد ذلك أخذها مني. سيكون لعصام هذا ذكر كثير في هذه الفترة، لأنه فعلاً ساعدني كثيراً في التعرف على هذا القسم، وساعدني كثيراً في وصول كثير من الأشياء إلى زنزانتي التي كانت ممنوعة عني، بل كان وسيلتي للتواصل مع العالم الخارجي.

إيذاء وصمود:

كان مسؤول هذا القسم مسؤول يهودي اسمه "يورم"، وكان ضابطاً عنصرياً جداً، وتعامله سيئاً، وكانت الشرطة المتواجدون بعضهم يهود وبعضهم دروز، وكانوا منهم من يتعامل معك بشكل جيد، ومنهم مَن هو السيء، ومنهم من هو أسوأ، تعود لطبيعة الشخص.

وهذه الأشياء يتعرف عليها الأسير مع الفترة، لكن الأسرى الذين بمثل وضعي يعرفونها جيداً، وأيضاً لا يتوقعون معاملة حسنة من أحد، لذلك كنت مهيّأً نفسيّاً لمثل هذه المعاملة السيئة التي لن تفرق عندي.

كان النظام عندي أو قانونهم في التعامل معي في الفترة الأولى هو اقتحام زنزانتي في أي وقت ليلاً ونهاراً، حتى قبل الصبح، مرات كثيرة، فقط من أجل الاقتحام والتنكيل والإزعاج، أو إرهابي وتعويدي على نمط حياة معينة، وفي الوقت نفسه توصيل رسائل لي بأنهم يستطيعون عمل أي شيء معي في قسم كهذا، لذلك كنت أتجاهل كل تصرفاتهم، وكأن الأمر خبر خير، هذا ظاهرياً! لكن حقيقة الأمر كنت مزعوجاً جداً من ذلك، فقد كنت أعيش في وضع غير مستقر، وخصوصاً في الليل، وعدم انتظام النوم إضافة إلى وضع القسم المزعج جداً، وغير المريح، ولكن وضع القسم سرعان ما يتم التأقلم معه، والتعود على هذه الحياة، أما تصرفاتهم الاستفزازية المستمرة هذه كنت أحتاج لضبطِ نفسي وأعصابي بصورة كبيرة، لأن أي تصرف ستكون نتائجه سلبية على حياتي وعلى شخصي كالاعتداء عليّ بالضرب مثلاً، وهذا حدث كثيراً، كان مفروضاً عليّ في هذا القسم لفترة عام متواصل. استمر الأمر، وهو إبقائي مقيّد الأقدام واليدين، حتى في الساعة التي يتم إخراجي فيها للساحة من أجل التنفس، والتي كنت أستغلها في لعب الرياضة. كانوا، وخصوصاً صباحاً، يخبرونني بتحضير نفسي للخروج للساحة بشكل سريع، وبعدها فوراً يأتي مسؤول القسم

مع شرطيين أو أكثر، ويتم تقييد يديّ من الخلف من فتحة الباب، وبعدها يتم فتحه ويتم فوراً تقييد أقدامي، ويدخلون للزنزانة للتفتيش والفحص وهي لا يوجد بها شيء، لكن هذا التفتيش الرسمي غير المباغت يتم مرتين في اليوم: في الصباح المرة الأولى، وبعد أن يخرجوني للفورة التي هي قريبة جداً من زنزانتي. وكنت أطالب وقتها بأغراض، أقلها شراء مروحة، وكنت دائماً أقابل بالرفض من مسؤول القسم الذي أخبرني أي شيء أريده يجب تقديم طلب له، وهم يفحصونه، فقط مسموح لي الآن شراء أغراض الكنتينا، وباستثناء المعلبات التي يجب وضعها عند الشرطي، وأطلبها منه إن احتجت، ويقوم هو بفتحها، ووضعها في صحن وأخذ الفارغ، أيضاً أخبرني وقتها بخبر منعي من الزيارة، يعني لا شيء جديد.

وحول القيود هذا أمر يتعلق بقرار من قيادة المنطقة، كانت أحاديثي معهم مستمرة طوال هذه الفترة لتحصيل أي شيء، وكنت أقابل بالرفض، كان خروجي الأول للساحة في اليوم الثاني لقدومي صباحاً بعد إنهاء عملية التفتيش والفحص للزنزانة التي كانوا أنفسهم يتأذون جداً من حرّها عندما يدخلون لفحصها، ووعدوني وعداً أن يتم طلاؤها؛ الساحة كانت كما أخبرتكم بها كاميرتا مراقبة، وبداخلها صنبور ماء، أدخلوني لهذه الساحة مقيد الأقدام، والأيدي من الخلف، وفي الساحة وبعدما أغلقوا الباب، ومن الطاقة تمّ تحويل القيود من الخلف إلى الأمام، كان خروجي الأول لها فحص واستكشاف.

رياضة على الرغم من القيود:

كنت في هذه الفورة أو الساحة التي هي جزء من القسم بجانب زنزانتي أمكث فيها لمدة ساعة، ومرات أكثر في انتظار أن يأتي الضابط لكي يعيدني إلى الزنزانة، أبقى طوال هذه الفترة مقيد الأقدام والأيدي، واستمر هذا الوضع لما يقارب العام ومع ذلك، وكنوع من أنواع التحدي لهذه السياسة، وأيضاً كسراً لقيود نفسي، كنوع من أنواع التحدي لنفسي لكيلا أضعف، أو أهزم من هذا التنكيل، وخصوصاً أن هذه الساحة مراقبة بالكاميرات، لذلك كان قراري البدء في ممارسة الرياضة، وخصوصاً الجري، لذلك كنت أخرج مجهّزاً نفسي بـ"البوت والجرابين الثقيلة وبنطال رياضة طويل"، كل ذلك حتى أضع قيود الأرجل فوق هذه الأشياء فتحمي ساقي من أن تتأذى نتيجة

الاحتكاك الذي يحدث مع القيود، والذي يزيد بشكل كبير جداً عند المشي والجري. وكنت أجري بطريقة عجيبة غريبة، فقد كنت أفتح قدمي بقدر طول الجنزير الحديدي الذي يربط بين أقدامي، وكثيراً ما وقعت، وتأذيت، ولكني كنت أقوم، وأستمر في الجري، ومع الفترة أصبحت أتقن هذه الطريقة في الجري، وأصبحت نادراً ما أسقط أرضاً، وكنت أجري عشرين دقيقة، وبعدها ألعب تمارين على حسب ما تسمح به قيود الأيدي والأقدام. كان التحدي غريباً فعلاً، وكأنني كنت أكتشف ما أملكه من قوة وإرادة وتصميم على أن أبقى قوياً على الرغم من كل شيء، حتى إنني في كثير من الأحيان عندما كانوا يأتون لإرجاعي من الساحة كنت ألاحظ علامات التعجب والاستغراب في عيونهم، ومرات يسألونني: كيف تستطيع ممارسة الرياضة مع هذه القيود، ويفحصونها جيداً، خوفاً من أن أكون قد قمت بفتحها، وكنت أضحك عليهم، وفي الوقت نفسه صدقاً كنت أضحك على نفسي، لأنني لا أعرف كيف أستطيع ممارسة الرياضة وأنا بهذه القيود التي كانت على الرغم من كل محاولاتي للمحافظة على ساقي إلا أنني كنت أتأذى، فكثيراً ما عدت إلى زنزانتي وساقي تنزف دماً، ولكن كنت أستمر. وكنت كما يقال عندنا بلغة الأسرى في بداية اعتقالي "ما زالت رأسه حامية"، لذلك كنت فعلاً قد بدأت باستنفار كل طاقتي، ومكنونات نفسي، وإعلان حالة الاستنفار العام لنفسي، وبدء حياة التحدي والصمود والسخرية من كل ما أتعرض له، وما سأتعرض له، وكنت متوقعاً الأسوأ في ظلّ هذه الأجواء؛ قسم بهذا الشكل، واستفراد كامل بي كأسير، وفرض عقوبات وقوانين، وكأنهم اختزلوا قانون العقوبات في كل السجون، وأحضروني لكي تُفرض علي، أعيش لوحدي، ولا يوجد أحد أستطيع التحدث معه كأسير أمني، انقطاع كامل عن أي تواصل بيني وبين أي أحد من محيطي كأسير أو حتى كإنسان، لا زيارات للأهل نهائياً، وضعٌ استفزازيّ مستمر، ومعاملة غاية بالسوء، وأوضاع قد شرحتها، فكنت بين أمرين: إما أن أضعف فأجد نفسي قد استسلمت لهؤلاء، وهذا له عواقبه الوخيمة، أو أتحدى كل إجراءاتهم، وأحاول تحسين وضعي بقدر ما أستطيع، والتأقلم مع هذه الحياة الجديدة، واخترت الطريق الثاني، لذلك، كما قلت، كان الأمر تحدياً لنفسي أكثر من تحدّ لهذه الظروف.

الإضراب عن الطعام:

كانت زنزانتي على الرغم مما شرحته عنها هي عالمي الذي أعيش فيه ثلاثاً وعشرين ساعة، لذلك كنت أحاول دائماً المحافظة على نظافتها بقدر ما أستطيع، وأن تكون أغراضي القليلة المتواجدة فيها بشكل مرتب. وعلى الرغم من كل جهدي في نظافتها وترتيبها لم أستطع التخلص من جميع سكانها، والذين كانوا يزاحمونني فيها على كل شيء حتى على فرشة النوم، وعلى الأكل حتى على أغراضي القليلة، هؤلاء السكان هم أنواع وأشكال من الحشرات التي أمرض منها، وما أجهله أكثر؛ وعلى رأس هذه الحشرات الصراصير، فهم كانوا السكان الأصليين لهذه الزنزانة يتواجدون في كل مكان، وفي كل زاوية على شكل مجموعات كبيرة لا نهاية لهم. وعلى الرغم من كل المطاردات التي كانت بيني وبينهم، وارتكابي "المجازر" في حقهم، لم أستطع التغلب عليهم، وخصوصاً أنه لا يوجد أشياء مساعِدة تسمح لي بالانتصار. لذلك مع مرور الوقت، أوقفت الملاحقة وكففت عن مداهمة أوكارهم واكتفيت بالاستقواء على من يتجرأ بالمرور أمامي، أو الاقتراب مني، أو استخدام جسدي كممر له، هؤلاء لم أستطع التسامح معهم! أما ما دون ذلك فقد وافقت على أن يشاركني حياتي. يأتي بعدهم النمل الصغير والكبير؛ ولكن أكثر هذه الحشرات التي كانت تزعجني والتي لم أستطع التأقلم معها هي الذباب "كنت في بداية الأمر أكشّه، فإذا بلسان حاله يقول: كِشْ إنت"، أعطيته فرصة مرة ومرتين وأكثر، لكن شعرت أنه قد "استوطى حيطي" يعني: استهبلني، فواجهته بالعنف الشديد، والقتل الذي زاده هجوماً عليّ، لكنني مع ذلك لم أستسلم، واستمرت مواجهتي له. وهناك حشرات أخرى أقل عدداً كانت تأتي لزيارتي، إما مروراً، أو للبقاء أياماً ثم المغادرة. وأخطر الأشياء التي كانت تسكن معي في الزنزانة هي الجرذان التي كانت تخرج من الدورة، وأَستيقظ على صوتها في الزنزانة، لذلك كنت قبل النوم أغلق فتحة الدورة بقنينة ماء حتى لا أسمح لها بالخروج والتجول، وأتحمّل صوت محاولات قرضها للقنينة من الأسفل. هؤلاء كانوا من يشاركونني السكن في زنزانتي، ومع الوقت وجدت نفسي لا أنزعج من هؤلاء السكان.

كان هذا الوضع القائم يحتم عليّ اتخاذ إجراءات معينة من أجل تحسين وضعي، لذلك أنتظر خروجي للمحكمة لعلي في طريقي لها أتمكن من مقابلة أحد الشباب،

وإخباره بنيتي الإضراب عن الطعام، ولو بالصدفة. لذلك لم أتصرف أيّ تصرف خلال أيامي الأولى التي امتدت لشهر تقريباً، خلال هذا الشهر أو هذه الفترة لم أكفّ عن المطالبة من كل الشخصيات المسؤولة التي كانت تأتي عندنا في هذا القسم سواء للتفقد أم للفحص أم للتشفي، وكانوا جميعهم يقفون عندي على الباب، وكنت أتحدث معهم على حسب ما أستطيع بسبب أنني لا أتقن اللغة العبرية، وبعضهم أو الأغلب فيهم كان يفهم العربية، لكنه كان يتحدثها بصعوبة. وعلى الرغم من ذلك لم أستفد من أحد، وكان الأمر واضحاً أنه عبارة عن عملية مكاسرة بين سجين لا يملك إلا إرادته وصموده وإدارة فاشية تملك كل الإمكانيات المادية التي تسخرها من الأساس من أجل تحطيم نفسياتنا، وكسر إرادتنا كأسرى، وكان هذا واضحاً، فقد استمرت حياتي، وأخذت يوماً بعد يوم أتعرف على الوضع عندي في القسم جيداً، وأصبح لي معارف، كنت مرات أنادي عليهم من بعيد سواء عرب أم يهود، وتوطدت علاقتي مع العامل "عصام" الذي كان يحاول مساعدتي بقدر ما يستطيع، وخصوصاً في زيادة كمية الأكل التي كانت تأتي عن طريق الشرطي.

عندما تمّ وضعي في العزل كنت ما أزال موقوفاً، لذلك كنت أنزل على أكثر من محكمة، كانت محكمة في بيت إيل بالقرب من رام الله، وكنت أخرج إليها بشكل خاص، وأعود في اليوم نفسه، وطول اليوم أبقى مقيّداً موضوعاً في البوسطة، لا أنزل حتى لقضاء حاجتي، فقط يتم إنزالي وقت المحكمة، وبعدها أعود بالبوسطة التي تعود فوراً للسجن. وكنت باستمرار على مشاكل مع هذه الوحدة الخاصة التي كانت تأخذني، ونادراً ما عدت إلى السجن دون أن يكونوا قد اعتدوا عليّ بالضرب وأنا مقيد. ولم يكن أمامي ما أستطيع فعله، حتى الاحتجاج على ذلك في المحكمة أو في السجن عند عودتي كان يقابل بالتجاهل وعدم الاكتراث، لذلك توقفت عن الاحتجاج، وحاولت بقدر المستطاع عدم الاستجابة لاستفزازاتهم حتى لا أتعرض للضرب. والمحكمة الثانية كنت أنزل على محكمة إيرز بجانب غزة، ولكي أصل إلى هذه المحكمة كنت أنزل قبل المحكمة بيوم مع البوسطة العادية، "والبوسطة هي السيارات التي يتم نقل الأسرى فيها كل يوم بين السجون وإلى المحاكم"، وعلى الرغم من هذه البوسطة العادية فإنه يوجد فيها، في داخل هذا الباص، جزء خاص عبارة عن زنزانة صغيرة يتم وضع

المعزول أمثالي فيها بحيث لا يختلط مع الآخرين، لكن يستطيع أن يتحدث إليهم من بعيد على حسب الظرف، وكانت هناك فرص كثيرة لتبادل الأحاديث مع السجناء داخل هذه البوسطة.

كنت أنزل إلى عسقلان السجن الذي كنت فيه سابقاً، لذلك فور خروجي إلى المحكمة وركوبي البوسطة تحدثت مع الأسرى من بعيد، وأخبرتهم أنني ذاهب إلى المحكمة، وسأنام في عسقلان، فضروري أن يتم إبلاغ الشباب في السجن بذلك، ويحاولوا مع مدير السجن لكي يقابلوني! وأخبرتهم أن يجهزوا لي بعض الأغراض التي أحتاجها، وخصوصاً مروحة وبعض الكتب والكنتينا. وفعلاً، وبحمد الله، وصلت رسالتي إلى الشباب الذين ضغطوا على مدير السجن لإحضاري ومقابلتي، وكنت في عسقلان موجوداً في قسم الزنازين لكي أنام ليلة قبل خروجي للمحكمة صباح اليوم الثاني، وإذا بضابط يأتي إليّ في الزنزانة، ويطلب مني الخروج معه، وأخذني إلى مكاتب الإدارة، وهناك وجدت مدير السجن الذي كان اسمه "فباي"، ويجلس عنده ممثل المعتقل أبو الناجي ممثل سجن عسقلان، وهو أحد قيادات حركة فتح، والذي أفرج عنه في صفقة وفاء الأحرار، وممثل حماس زاهر جبارين والشيخ محمد أبو طير. وبعد السلام جلست، وحدثتهم أمام المدير عن كل شيء، وعن وضعي، وظروفي، وبعدما سمعوا استطاعوا أخذ وعد من مدير سجن عسقلان أنه سيحضر بنفسه إلى سجن الرملة للحديث مع مدير السجن هناك، واعداً بتحسين ظروفي. وكان ذلك امتصاصاً لغضب الأسرى بعدما سمعوا ظروفي، وخوفاً من حدوث تصعيد عنده في السجن من قبل الأسرى، ووافق على أن أستلم بعض الأغراض مثل مروحة وكتب وأغراض كنتينا، وهي مصدر لوازم الأسرى من مواد البقالة والتموين، والتي يتم شراؤها من داخل السجن وفق آلية خاصة، وانتهى اللقاء بذلك. وفعلاً عدت إلى سجني في عزل الرملة ومعي هذه الأغراض، التي لم يسمح بإدخال أي شيء منها، وتمّ حجزها جميعها من قبل الإدارة، وحاولت مرات عديدة استرجاع هذه الأغراض، لكنهم رفضوا أبداً بكل الطرق. لذلك لم يكن أمامي إلا البدء بالإضراب عن الطعام، وكان هذا إضرابي الأول في هذا القسم، وقد استطعت عن طريق العامل عصام توصيل معلومة للأهل عبر قيامه بالاتصال بهم، وأبلغهم أنني دخلت في إضراب مفتوح عن الطعام.

وفي هذه الفترة أيضاً، جاءت لزيارتي محامية مؤسسة مانديلا السيدة بثينة دقماق، وهذه السيدة كان لها فضل كبير في مساعدتي في هذه الفترة العصيبة التي كنت أعيشها في هذا القسم، وقد جاءت لزيارتي، وكنت قد بدأت الإضراب، وعن طريقها تمّ تبليغ الإعلام كمؤسسة، دخلت في الإضراب، وأنا أعلم أنني لوحدي سأواجه صلف هذه الإدارة، ولكن كان لا بدّ من اتخاذ خطوة كهذه، وبمجرد إضرابي قاموا بمصادرة كل أغراضي في زنزانتي، ومنعوني من الخروج للفورة.

قد يظن البعض أن خطوة الإضراب عن الطعام خطوة سهلة أو بسيطة لذلك يُقْدم عليها الأسير، وهذا للأسف رأي خاطئ جداً، وأنا أقول من واقع تجربتي مع هذه الإضرابات التي هي موت حقيقي للأسير، وخصوصاً عندما يقدم عليها في ظروف كظروفي لوحده، لا توجد مساندة له، ولا أصدقاء يشاركونه، أسرى يدخلون معه في إضرابه، كتضامن إعلام يغطي خطوته ويتحدث عنها... كل هذه الأمور عوامل ضرورية للمساعدة، ولتقصير عمر الإضراب، كنت أفتقدها، ودخلت إضرابي وأنا أعلم بذلك، وأعلن أنني وحدي فقط من يتحمل المسؤولية عن هذه الخطوة الفردية، ولكنني كنت مضطراً لها لأنه لا يوجد أمامي غيرها، وحدي من هيّأ نفسه، وحضّرها لمثل هذه الخطوة.

وعندما قررتُ بدء التنفيذ وضعوني في حياة السنوك "لا يوجد شيء عندك"، وبعد مرور 48 ساعة يقومون بفحص طبي يومياً، ويأتي ممرض ومعه جدول لأيام الشهر، وكل يوم يسجل نتيجة الفحص، يتم فحص النبض، وضغط الدم، والوزن، ودقات القلب، ويتم عمل مقارنة من يوم ليوم، وطبعاً يتم الفحص بقدومهم ليلاً إلى زنزانتي، ويدخلون عندي بعدما يتم تقييدي، الحمد لله حافظت في هذا الإضراب على أن تبقى معنوياتي مرتفعة، وإرادتي قوية، وحتى صحتي والحمد لله كانت ممتازة، ووجدتها فرصة وجاءت لكي أخفف من وزني.

خلال فترة الإضراب، جاء عندي أكثر من مسؤول من إدارة السجون، منهم من كان يهدّد، ومنهم من كان ينصح، وأبداً لا أحد منهم كان على استعداد للاستجابة لمطالبي سواء بإدخال أغراضي أم بعدم تقييدي من الخلف أم فك قيودي في أثناء الفورة. لذلك استمر هذا الوضع ما يقارب ستة عشر يوماً، وفي هذا اليوم حضر

إلى زنزانتي مدير سجن عسقلان، وعلى ما يبدو أن الأسرى في السجون أجبروهم على تخفيف الإجراءات عني ولو قليلاً، لذلك جاء هذا المدير الذي هو جزء أو أحد أفراد اللجنة الأمنية العليا في إدارة السجون التي بيدها ملفات المعزولين، وهي اللجنة المسؤولة المباشرة عن أمن إدارة السجون، جاء ودخل عندي في الزنزانة، وبدون وضع القيود في يدي، كنت قد نحفتُ جداً وبدَتْ آثار الإضراب على وجهي وعلى جسمي، سلّم عليّ، وجلس، وتحدثنا، وشاهد ظروفي، وتحدثت معه عن كل مطالبي. وكنت أعلم جيداً أن هذا المدير هو أخبثهم، بل هو المسؤول المباشر عن كل هذه الإجراءات التنكيلية، وكان يتحدث العربية بشكل جيد، تحدثنا كثيراً، وحمّلني هو المسؤولية عن وجودي في العزل بسبب إثارتي المشاكل وإجراء الاتصالات خارج السجن، وكان ردي عليه بنوع من التحدي مرات، ومرات كانت الأحاديث تأخذ طابع الضحك، في آخر اللقاء طلب مني، وبناءً على اتفاقية مع الأسرى أن أفكّ إضرابي، وأنه سيحاول مساعدتي، رفضت طبعاً، وكنت أعتقد أنه غير صادق بذلك، وصممت على مواصلة الإضراب حتى تحقيق كل مطالبي، وفي الأخير بناء على إصراري تمّ الاتفاق معه على إدخال كل أغراض الكنتينا عندي، وشراء الكنتينا كأي أسير باستثناء المعلبات تبقى عند الشرطي لفترة كاختبار، وإدخال الكتب وإدخال المروحة والتلفاز والبلاطة وأدوات الكهرباء كراديو وأمور كهذه، وأشياء أخرى تلزمني في الطبخ، على أن أفك إضرابي بمجرد دخول هذه الأمور، وباقي الأمور التي تتعلق بتحويل القيود إلى الأمام، وفك قيودي من الفورة هذه على حسب قوله أنه لا يستطيع أخذ قرار مباشر بها، وأنه سيفحصها مع المسؤولين، ويعمل على تنفيذها، ولم يوافق على إعطائي فترة محددة، لكن اكتفيت بوعد منه لإنهاء هذه الأمور، وانتهى اللقاء بذلك. وعلى ما يبدو أنه لم يغادر السجن إلا بعدما اطمأن أنني قد أوقفت إضرابي لأنه أشرف بنفسه على دخول كل الأشياء المتفق عليها.

وجاءت أخيراً أغراضي، بعد ما يقارب من شهر ونصف من وجودي في العزل، وبعد إضراب استمر ستة عشر يوماً، وكان هذا اليوم يوم عيد عندي شعرت بأول انتصار حققته، والحمد لله أن إضرابي لم يذهب هدراً، ما أجمل هذا الشعور الذي عشته في تلك الفترة! عزّز هذا الانتصار الثقة بنفسي، وزادني قوة وإصراراً وتصميماً، وتحسنت ظروفي وأوضاعي. وكان هذا اليوم الأول الذي أستخدم به

البلاطة الكهربائية التي صنعت عليها شوربة ساخنة احتفلت بشرب كل الطنجرة التي لا أعرف ماذا كان طعمها، لأنني لم أكن وقتها أجيد صناعة الأكل، لكنها كانت لذيذة جداً، يكفي أنها كانت ساخنة، وشربت شاياً ساخناً. وحلّت مروحة حقيقية مكان مروحتي الخاصة التي استخدمتها لأقل من شهرين؛ فقد كنت أستخدم طول هذه الفترة مروحة خاصة أصبح بيني وبينها علاقة حميمة وأكثر من خاصة، فقد كان الصيف في أشدّه، وفي الزنزانة كانت درجة الحرارة مرتفعة جداً، لم يكن هناك مجال لدخول الهواء، لدرجة أنّ مرات كثيرة كنت أشعر بالاختناق، لذلك تمكنت من استخدام جلدة "غلاف سميك" لأحد الكتب، واستخدمتها مروحة يدوية، كانت هذه وسيلتي الوحيدة لتحريك الهواء في زنزانتي وحول جسدي العاري إلا ما يستر العورة، مع أن هذه ليست من عادتي، ولكن لم أكن أستطيع وضع شيء على جسدي. وكنت تقريباً أدخل الحمام كل ربع ساعة من أجل تخفيف درجة حرارة جسدي، وحافظت على هذه المروحة اليدوية طوال الفترة حتى بعد دخول المروحة الكهربائية احتفظت بها لفترة طويلة حتى ضاعت مني في أثناء التنقل أو التفتيشات المتكررة التي كنت أتعرض لها.

بعد فكّ الإضراب والحمد لله، والنجاح البسيط الذي أنجزته بدأت أعود لحياتي من جديد، وبدأت أتعافى صحياً، وحاولت الاستمتاع بما تمّ تحصيله وخصوصاً متابعة الأخبار وبرامج التلفاز، لكن صدقاً كانت المروحة وكأنها غير موجودة، لم أشعر بتغيير في درجة الحرارة داخل الزنزانة، فقد كانت المروحة تحرك الهواء الساخن في داخل الزنزانة الناتج سواء من الحمام أم النفس أم الطبخ، ولم يكن هناك منفذ لخروج هذا الهواء ودخول هواء نظيف نقي، لذلك لم أشعر بأهمية هذا الإنجاز.

إجمالاً، الحمد لله تحسنت ظروفي ولو قليلاً، وبتحسن ظروفي تحسنت ظروف "العامل المدني عصام" الذي استطعتُ وبخبرته أن أمدّه بعلب السجائر، وبعض أغراض الكنتينا، وهذا جعله يقدّم لي كثيراً من المساعدات حول إجراء اتصالات مع أهلي للاطمئنان عليهم، فقد كان يجلس بجانب زنزانتي وكأنه يتحدث مع الزنزانة المجاورة لي، ويكون عنده التلفون العام للقسم المسموح للأسرى الجنائيين باستخدامه، وكأنه يتصل على أهله، وكنت أزوده برقم أهلي، ويتصل بهم، وكنت أصرخ بصوت عالٍ،

وكأنني أتحدث مع أحد الزنازين، وكان صوتي يصل إلى أهلي، ويسمعونني، وأسلم عليهم، وأتحدث معهم بطريقة غير مباشرة، لكنني لم أكن أسمعهم، فقد كان عصام يخبرني بما يقولون. وكانت هذه لحظات جميلة على الرغم من قلتها وصعوبتها، لكنني كنت أشعر أنها متنفس لي أخرج من خلالها من هذا العزل. وقد استمر هذا الوضع أغلب الوقت حسب ما تتاح الفرصة، وعلى الرغم من أنني كنت أعلم أن إدارة السجون تعلم بذلك، وكل شيء مراقب، لكنني ما كنت أستخدم هذا الأمر إلا من أجل توصيل السلامات، وإسماعهم صوتي لا أقل ولا أكثر، وكان المستفيد الأكبر من ذلك عصام، لأنني كنت أمدّه بما يحتاجه من سجائر وأغراض، يعني علاقة مصلحة، كلانا كان يستفيد من الآخر.

كنت في هذه الفترة أنتظر جوابهم على موضوع القيود من الأمام وفك قيودي في الفورة، كانت كل الأشياء في هذا القسم مزعجة لا يوجد هدوء نهائياً، حتى لو لمجرد أن تصلي بهدوء لن تستطيع، شعرت أنني في سوق لا يهدأ أبداً، وكان ينالني من هؤلاء المدنيين، وخصوصاً اليهود، كثير من المسبات والشتائم عندما يعرفون مَن أنا، وكنت مرات أدخل في موجة مسبّات مع هؤلاء، ومرات ألتزم الصمت فهو أفضل. كنت على الرغم من هذه الفوضى أشعر بالوحدة والوحشة لعدم وجود أحد أستطيع التحدث إليه، أو مناقشته، يفهمك ويتضامن معك، وأصبحت مع الفترة أتعود على هذه الحياة، وأنخرط فيها، بل كنت قد جهزت نفسي لأن تكون جاهزة لأسوأ الأحداث، فهؤلاء أناس لا يؤمَن جانبهم. وكانت تحدث بين الحين والآخر بعض المشاكل مع الشرطة سواء في التعامل أم وقت التفتيش، وكانت تمرّ، وأصبحت أموراً عادية عوّدتُ نفسي عليها بالتعامل مع كثير منها بضبط النفس. أصبحت عندما أنزل محكمة، على محكمة إيرز بجانب غزة، وكنت أنزل قبلها بيوم في سجن عسقلان، ولكن لا أختلط بأحد من الأسرى، ولكيلا يراني أحد من الشباب فيبلغ الأسرى بقدومي للمحكمة فيرسلون أغراضاً لي، أصبحت إدارة سجن عسقلان تأخذني في هذا اليوم إلى قسم التحقيق، يعني كنت أقضي أيام المحكمة في قسم التحقيق، ويتم وضع الكيس في رأسي وتقييدي على حسب قوانين قسم التحقيق، ويتم وضعي في زنزانة لوحدي، ويأخذون مني كل شيء. وفي كثير من المرات تعرضت للضرب من قبل الشرطة، والكيس على رأسي، ولا أرى أحداً؛ كان هناك تنكيل وقمع بمعنى الكلمة، حتى

أصبحت لحظات ذهابي للمحكمة لحظات صعبة أحسب لها ألف حساب، وكنت أحتج بترجيع الأكل والإضراب لعدة أيام، لكن للأسف لم أستطع تغيير شيء، ولم يستطع حتى الأسرى أن يفعلوا لي أي شيء، على الرغم من معرفتهم بكل الأشياء التي كانت تحدث معي، فكنت مضطراً للتعايش مع هذه الحياة.

هي كلمات أكتبها الآن، لكنني أعود بنفسي مع هذه الكلمات لتلك الفترة التي ما زالت شاخصة أمامي، أتذكرها بكل تفاصيلها لصعوبتها وقساوتها وشدّتها، فقد حفرت في ذاكرتي حفراً، وما زالت، وستبقى شاهدة على هذا الظلم، وهذا الإجرام الذي يمارس بحقنا كأسرى معزولين في أقسام الموت البطيء التي ما زالت مفتوحة تضم بين جدرانها خيرة الأسرى، يعانون واقعاً أليماً وصعباً دون أن يتحرك أحد، أو يشعر بهم أحد للأسف.

سجينان من عائلتي مقداد ويونس:

كان أول القادمين على هذا القسم في عزلي سجين أمني من نابلس من عائلة مقداد، وكان وجوده في العزل بسبب مشاكل له مع الأسرى، أحضروه عندنا في القسم ووضعوه في زنزانة رقم 2، كان تقريباً سجين شبه مجنون، لكن وجدتها فرصة أن أتحدث معه، وفعلاً وجدت نفسي كالجائع المحتاج للأكل، وهكذا كانت حاجتي للحديث. تحدثت معه من بعيد "أحاديث غير مفهومة"، المهم أن أسمع صوت أحد يتحدث معي، وكان أيضاً يخرج للفورة ينادي عليّ، ويحدثني، صدقاً لا أستطيع أن أصف لكم هذه المشاعر الجميلة بوجود شخص، بغضّ النظر من يكون! المهم شخص أمني، شعرت بأُنس وبرفقة، وللصدق كان شخصاً أضحكني كثيراً، ووقف معي في مواجهة إدارة القسم، وكانوا يخافون منه باعتباره شخصاً مجنوناً، من أعماله الجنونية.

كانت زنزانة هذا الأسير على الجهة الأخرى، وهي الوحيدة التي بها شباك يطل على الجهة الخارجية، لذلك كان يقف دائماً على شباكه حمامة أو حمامتان، وقد استطاع الإمساك بأحدها من الشباك، وإذا بعصام يحضر لي نصف حمامة مذبوحة ومنظفة، وألقاها عندي في الزنزانة، وأخبرني أنها من مقداد، وناديت عليه، وأخبرني بقصتها، وتأكدت منه أنه ذبحها بطريقة شرعية، لذلك وجدتها، وكأنها هدية من

السماء، أجريت عليها تنظيفاً إضافياً، وبدأت أطبخ فيها، ولم يكن عندي بهارات غير الملح، لذلك عملت عليها شوربة، وبدأت أحتفل بشرب هذه الشوربة. بكل متع العالم كنت أشعر أنني أملك غنيمة كبيرة، وأن هذا اليوم يوم سعدي، فقد شربتها كلها، وأكلتها حتى مع العظم، وعلى ما أذكر أنني مكثت لفترة ساعات لم أتذوق شيئاً حتى أحتفظ بطعم هذه الأكلة، فعلاً كان يوماً مشهوداً ذلك اليوم.

كان قدوم مقداد هذا إلى القسم بعد أكثر من خمسة شهور من وجودي في قسم العزل، ولأنه كان يزور أهله، فكنت أحتاجه في تطمين أهلي على أخباري. ولم يبقَ طويلاً حتى تمّ نقله، وأحضروا مكانه أيضا أسيراً أمنياً مجنوناً ومريضاً نفسياً أعرفه جيداً، وقد تمّ إخراجه من عند الشباب لأنه عنيف، ويؤذي الآخرين، وآخر محاولاته كاد أن يقتلع عيون مسؤول كبير في حماس في سجن عسقلان، ولولا ستر ربنا لذهب بعيونه، لذلك كان يعيش في الزنازين، وقد أحضروه، ووضعوه في زنزانة رقم خمسة عشر بالقرب من زنزانتي، وعلى الرغم من أنه مجنون كان طوال اليوم يغني، ويصرخ، ويهتف، ويخطب، وكان باستمرار يكون عارياً جداً في زنزانة. مريض نفسي يتم وضعه في هذا القسم، ويمارس ضده كل أنواع التعذيب النفسي من قِبل الشرطة بالمسخرة عليه، وأمور أخرى، ويحدث ذلك أمامك، ولا تستطيع أن تفعل له شيئاً. كنت على قدر ما أستطيع أشتري له أغراض كنتينا ودخان، ومرات أستطيع الحديث معه في بعض لحظات روقانه، ذكرت هذا الأسير وهو من عائلة يونس لأن له قصة طويلة معي، ومهم جداً أن أذكرها في أثناء حديثي عن تجربة عزلي، وأيضاً لكي يكون ذكر هذا الأسير أكبر دليل على القمع الذي يُمارَس في هذه الأقسام التي يتم وضع سجين مريض فيها، بدلاً من وضعه في مصحة نفسية، أو معالجته، وهذه السياسة للأسف من أصعب السياسات التي تمارس ضدّ هؤلاء الأسرى المرضى حتى الآن، وسأتحدث عن هذا الأمر.

زيارة الوالدة:

استمر وضعي في هذا القسم كما هو، لا جديد في حياتي، ولا جديد حولي، وكنت باستمرار دائم السؤال عن زيارة الأهل، وكانوا قد أخبروني أنني ممنوع من الزيارة لمدة ستة شهور، وكانت قد انقضت هذه الفترة، لذلك بدأت أسأل من جديد، وأخبروني

أنه يسمح لي بزيارة الأهل، يعني في حال قدوم أهلي بتصريح سيتم إدخالهم، وكان هذا الأمر الجديد الذي دخل على حياتي ووضعي في هذا القسم، وكان له مردود كبير على حياتي، فأصبحت على اطلاع بأخبار الأهل، وأنتظر زيارة الوالدة كل أسبوعين، وعن طريقها أستطيع تدخيل ما أحتاجه من ملابس، أو أطلب منهم أن يدفعوا لي مبلغاً مالياً من أجل الكنتينا. كانت زيارة الأهل أو زيارة الوالدة لأنها هي الوحيدة التي كانت تستطيع زيارتي في تلك الفترة، أمراً كبيراً أسعدني جداً، وخفَّف عني كثيراً من همومي، وأزال بعض وحشتي، وكان أخي السجين أكرم في ذلك الوقت موجوداً في سجن الرملة نفسه قسم المستشفى بسبب وضعه الصحي، ولم يكن مسموحاً لي أن أزوره، أو ألتقي به، وكانت الوالدة تزوره، وتزورني. وكان هذا يسبب كثيراً من التعب لامرأة عجوز تخرج من قبل صلاة الصبح، وتظل على سفر حتى تصلنا، وتجلس تنتظر في أوضاع وظروف سيئة، كان ذلك متعباً جداً لها، وكنت أرى ذلك التعب والإرهاق بادياً على ملامحها، لذلك كنت أتمنى أن تأتي للزيارة كل شهر بدلاً من أسبوعين، لكنها كانت ترفض تماماً ذلك، وكان يخفف عنها قدوم زوجة أكرم معها لزيارته، والتي كانت تأتي مرات لزيارته وحدها، فتأتي عندي الوالدة، وتذهب زوجة أكرم لزيارته وهكذا.

كانت الزيارة الأولى للوالدة من أجمل الزيارات، فقد أنزلوني للزيارة مقيد الأيدي من الخلف، ومقيد الأقدام، وأدخل غرفة إلى غرفة الزيارة هكذا. وكانوا كثيراً ما يتعمدون إدخالي إلى غرفة الزيارة مقيداً من الخلف، وتكون الوالدة جالسة تنتظر، فتشاهدني على هذا الحال، فأسمعها من بعيد، وقبل أن أجلس، وقبل أن يتم تحويل قيودي من قبل الشرطي إلى الإمام تبدأ الوالدة بإعطائي شحنات من الصمود والصبر، وترفع صوتها قائلة: "أهلاً وسهلاً بالبطل! ما يهمّك يمّا! هؤلاء لو إنهم مش خايفين منك ما عملوا معك هيك، اصمد يا حسن، وارفع راسك"، وكلام كهذا كثير؛ أكون سعيداً جداً بها وبكلامها، وأجلس أمامها، ونبدأ نتحدث، وأقدّم لها وجهي لكي تقبّله من خلف الشبك الحديدي. في الزيارة الأولى كانت هي تنتظرني، وعلى ما يبدو فحصتْ شباك الزيارة المغلق فوجدَتْه بدون قفل، ولذلك بيّتت نيتها فمجرد دخولي وقدومي لكي أجلس، وإذا بها وبكل قوتها وعاطفة الأم وشوقها لابنها ترفع "درفة"

الشباك للأعلى، وتعانقني، وتقبلني كما تريد، المفاجأة كانت جميلة جداً، ومن أسعد لحظات حياتي، وهي تعانقني، وتقبلني، وأنا أيضا قبّلتها، وقبّلت رأسها ويدها. وهذا الأمر فاجأ الشرطي الذي لم يعرف ماذا يفعل، وللحظات ظلّ واقفاً مكانه لم يتحرك حتى استوعب ما حدث، وجاء وطلب من الوالدة أن هذا يكفي، وكان شرطياً درزياً تصرف باحترام، وبحسه الإنساني، فعلاً أفلتتني الوالدة، وتمّ إغلاق الشباك، وعُدنا لإكمال الزيارة، وهذا الحادث الجميل الممتع طبعاً لم يتكرر بعد ذلك.

كانت الزيارة مدتها نصف ساعة، أسمع من الوالدة كل الأخبار وكل القصص وكل الأحوال، وأطمئن على صحتها وأطمئنها على صحتي،... وهكذا. كانت الزيارة من أهم الأمور التي خففت عني حياتي في هذا القسم، وحققت لي راحة شعرت بها، وانعكست على حياتي داخل القسم، وعلى ما أذكر أنه في إحدى المرات سُمح لأخي الكبير نبيل (أبو باسل) بالقدوم لزيارتي، وفعلاً زارني، وكانت المرة الأولى والأخيرة، لأنهم لم يعطوه تصريحاً جديداً، وأيضاً عند عودته تمّ حجزه على حاجز إيرز لعدة ساعات، والتحقيق معه من قبل المخابرات الإسرائيلية، وهذا أخافه جداً، لذلك لم يكررها، وهم أيضاً لم يسمحوا له بتكرارها. أيضاً في إحدى الزيارات تمكنت الوالدة أن تدخل لي شريط كاسيت مسجل بأصوات الأهل جميعهم، وكان من الأشياء الجميلة جداً التي حصلت عليها، وما زلت أحتفظ به حتى الآن أسمعه وأسمع من خلاله أحاديثهم معي.

كانت زيارة الوالدة في ظلّ هذه الأوضاع تخفف عني كثيراً، فقد كنت "أحوّش" الأحاديث وأجمعها، وبمجرد وصولي إلى شباك الزيارة أبدأ بقصّ كل ما عندي عليها. كنت أتألم جداً لتألمها عندما تراني مقيداً بأقدامي، وبالخلف من الأيدي، وأمامها يتم تحويل قيودي، كنت أستمد من زيارتها قوة وعزيمة، وأحدّثها عن حالي وعن وضعي وعن شوقي لأنْ أتحدث مع البشر، ومرات أخرج إليها للزيارة ويكون قبل الزيارة قد حدَث تفتيش، أو في الليلة قبل الزيارة، فتعرف ذلك من وجهي فأحدّثها. هذه الحاجّة ما كانت تسمح لدمعتها بالنزول أمامي، وكنت أسمع منها كل الأخبار، ويصلني عن طريقها سلامات الأهل والأحبة، استطعت عن طريق الزيارة إدخال بعض الكتب، فقد كنت أعيش في فقر كامل في هذا الجانب، وأيضاً إدخال بعض الملابس. وعلى الرغم من

كل هذه الأوضاع السيئة، وعلى الرغم من كل هذه التشديدات، وكل هذه الإجراءات استطعت في تلك الفترة إخراج جميع المادة التي نزلت في كتاب الثأر المقدس، تقريباً في كل زيارة كنت أكون قد جهزت للوالدة كبسولة أو كبسولتين (الكبسولة مصطلح سجين وهو يطلق على الرسائل السرية التي يتم لفّها جيداً، وتغطيتها بالنايلون لكي تكون جاهزة لأن تُبلَع كحبة دواء في حال حدوث شيء)، وكانت الوالدة وبحسّها الأمني الكبير تأخذ هذه الكبسولات، وتضعها في فمها طوال الزيارة، وتتحدث معي أيضاً، وهي في داخل فمها، وكان انشغالي في كتابة هذا الكتاب فرصة لأجد لنفسي ما أعمله في ظلّ النقص في كل شيء من الكتب والجرائد التي لم تكن تصل نهائياً.

كتب ووسائل تسلية:

استطعت في هذا القسم وعن طريق علاقاتي مع بعض المدنيين، وخصوصاً عصام، أن أوفر لنفسي مصدراً لجلب الكتب التي كان يحضرها عصام لي، سواء من عنده أم من أصدقائه، مقابل ما كان يأخذه مني من مساعدات، وهذا الأمر خفف عني كثيراً من العزلة، فقد شغلت نفسي بالقراءة، وكنت أقرأ وقتها بنهم كلَّ شيء يقع تحت يدي، حتى إنني أرى أن تلك الفترة كانت أكثر الفترات التي قرأت بها، ومن عادتي في القراءة أنني أدوِّن أشياء كثيرة خلال قراءتي، لذلك أوجدتْ تلك الفترة عندي كمية كبيرة من الدفاتر المسجل خلالها أمور كثيرة، ما زال عندي حتى الآن بعضها، أو ما سلم من المصادرة، وأراها كمرجع أعود إليها باستمرار، ولا أستطيع الاستغناء عنها، بل نفعتني جداً في هذه الأوقات التي يمنع أن يكون عند أحدنا سوى كتابَين، وكانت هذه الدفاتر تدخل بعد فحصها، وهي عندي باعتبارها كتباً عديدة، حتى إنني لأول مرة لكثرة قراءتي في تلك الفترة ومتابعتي للتلفاز احتجت لنظارة حفظ النظر، جلَبَها لي الصليب الأحمر في زيارته، والتي كانت تكون كل شهرين أو ثلاثة شهور، وأيضاً عن طريقه كنت أستطيع إدخال الكتب، لكن مصدر الصليب بالكتب مشكلته أنه لا يحضر لنا إلا نوعاً واحداً من الكتب وهي الروايات، ومع ذلك كانت فرصة استفدت منها جيداً.

كنت أحاول ترتيب حياتي وفق برنامج معين حتى أستطيع الاستفادة بقدر ما أستطيع من هذا الوقت، لكن أجواء القسم القائمة على الفوضى المستمرة كانت

تحول بين العيش وفق برنامج، ومع ذلك لم أعدم الوسيلة، وحاولت وخصوصاً في موضوع حفظ القرآن، فقد استطعت في تلك الفترة التركيز على حفظ القرآن الكريم، وكنت أستغل فترة ما بعد صلاة الفجر، وكانت هي الفترة الوحيدة التي يحدث بها هدوء، وفعلاً تمكنت من حفظ أجزاء كثيرة، وقد تمكنت خلال فترة عزلي الأولى من حفظ ما يقارب العشرين جزءاً، وهذه كانت نعمة كبيرة، والحمد لله.

كانت متابعتي برامج التلفاز أيضاً تأخذ جزءاً كبيراً من وقتي، منها البرامج الدينية ومنها الثقافية وبعض المسلسلات والأفلام وحتى المسرحيات، فأنا أحب جداً المسرحيات، ولكن عندما كنت أحضر مسرحية، وخصوصاً في الليل وأكون أضحك، أفيق على نفسي، وأنا أضحك لوحدي !فأشعر وكأني شخص مجنون، فيزيد ضحكي، وكأنها هيستيريا ضحك تنتابني، وتستمر للحظات، أتوقف بعدها، وينتابني شعور مؤلم جداً، أشعر بالوحدة الحقيقية في هذه اللحظات. كنت في تلك الفترة أملك تلفازاً رُبع عُمْر، وليس له ريموت كنترول، فكنت أستخدم عصا المكنسة لكي أغير القنوات، وأنا جالس في مكاني، وقد شاهدني أحد الشرطة فاعتبروا ذلك ممنوعاً لأنه شاهد العصا دون المكنسة، وهدّدوني إن فككتها مرة ثانية سيصادرونها، فاستبدلت العصا باستخدام أصبع قدمي الكبير، فقد كان التلفاز موضوع على "دلو" الغسيل الذي كنت أستخدمه نهاراً للغسيل، وأضع التلفاز على البرش (التخت) الأعلى، وهو اسم السرير الذي ينام عليه المعتقل، وفي الليل لأنني أجلس على الأرض من شدة الحر أنزله، وأضعه فوق الدلو، وتكون المسافة بيني وبين والتلفاز أقل من طولي، يعني لا أبعد عنه أكثر من 160 سم، لذلك كنت أستخدم ساقي وأصبع قدمي الكبير لتبديل المحطات، ومرات كثيرة أنسى نفسي فأضغط بشدة فإذا بالتلفاز قد هوى على ظهره ساقطاً على الأرض، فأذهب لإرجاعه من جديد، ومرات تكون الصورة قد ذهبت لا أعرف لماذا، فكنت أعالجه بضربه من الأعلى بالشبشب فتبدأ الصورة بالظهور رويداً رويداً، وتزداد وضوحاً بازدياد الضرب، وكنت أضحك على حالي وعلى هذا العلاج غير العقلاني، لكنه كان مفيداً وناجحاً، وأعتقد أن هذا هو العلاج المناسب غير الصحيح الذي يناسب وضعاً غير مناسب وغير صحيح مفروضاً علينا كأسرى.

نقل عصام:

ازدادت مساعدتي لعصام، وازدادت مساعدته لي، فقد كنت أستطيع بشكل شبه يومي أن أُسمِع الأهل صوتي بمساعدة عصام الذي كان يجلس بجانب الزنزانة التي تجاورني، وكأنه يتحدث مع الأسير اليهودي الذي بداخلها، وهو في الوقت نفسه يتصل بأهلي، وأبدأ أتحدث بصوت مرتفع، وكأنني أتحدث مع شخص في إحدى الزنازين، ويكون كلامي للأهل الذين كانوا يسمعونني تقريباً، ولكن لا أستطيع سماع صوتهم، فيخبرني عصام بكلامهم وأحاديثهم، وكانت هذه لحظات جميلة أعيشها، ولو بهذه الطريقة مع أهلي الذين أفتقدهم وأشتاق إليهم جداً، وكانت الوالدة تحدثني عن ذلك في الزيارة، وكيف يجلسون حول الهاتف، ويفتحون السماعة الخارجية حتى يصلهم صوتي، لحظات جميلة عندي وعندهم كنت أسرقها من هذا الواقع رغماً عن أنفهم، ورغماً عن كل قوانينهم، وعلى ما يبدو كما نقول: "إن أولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال شيئاً" فقد لاحظت إدارة السجن ذلك، أو وَصلها ما يقوم به عصام من عملاء لها في القسم يحسدون بعضهم بعضاً، لذلك يبلغون عن بعضهم من أجل الانتقام، ومن أجل التقرب من إدارة السجن لأخذ بعض الامتيازات.

هذه التقارير جعلتهم يغيرون عصام، وأبدلوا مكانه شاباً عربياً مدنيّاً آخر موجوداً في هذا القسم لحمايته من السجناء المدنيين، لأنه معتقل على حادثة اغتصاب صديقة أخته وقتلِها، كان اسمه أحمد، وبخروج هذا الشاب تمّ إغلاق نافذة أهلي، مع أن هذا الشاب كان يتقرب إلي كثيراً، ويحاول إيجاد علاقة، وتقديم مساعدة، وكنت أنا أستفيد منه في أمور أخرى لها علاقة بالأكل والشرب، لكن أبداً لم أطلب منه الاتصال بالأهل، واكتفيت بالزيارة، وقد ساعدني هذا الشاب مساعدة جيدة، فقد كان عنده جهاز تسجيل، وأخبرني عنه وأنه يستطيع إحضاره لي لكي أسجل شريطاً للأهل، بعد تفكير وافقت لأنني لن أخسر شيئاً، ولن أتحدث للأهل إلا في أمور عائلية، وهم على ما يبدو كانوا يطمعون بأنني قد أرسل للأهل شريطاً يحتوي على بعض الأمور الأخرى، لذلك وبطريقة ما استطاع إدخال المسجل في أثناء وجودي بالفورة، وَضَعه في زنزانتي، وعندما عدتُ قمت بتسجيل شريطين؛ أحدهما للأهل والآخر للشباب في السجن، وكانت أشرطة يغلب عليها الضحك والنكات، وما أذكره الآن أنني قلت

للشباب في السجن عبارة: "إن لم تلحقوني فقدتموني"، شارحاً لهم وضع القسم والألفاظ والإدمان، وقلت لهم أنا على وشك أن أصبح مدمناً لذلك ذكرت لهم هذه العبارة، وبعض السلامات على الجميع، وللأهل أشواق ومحبة للجميع، وأعتقد أنني استطعت توصيل شريط الشباب في أثناء خروجي للبوسطة، وشريط الأهل لم يصلهم، وقد يكون وصل إلى إدارة السجن.

قصة المعلبات:

هذه المعلبات التي كنت أشتريها من الكنتينا، ويتم وضعها في المخزن التابع للشرطة، ويحضرون لي ما أطلبه بعد فتح العلبة، ووضع ما فيها في صحن بلاستيك، وأخذ العلبة الحديد. وكنت قد اشتريت معلبات كثيرة لكنها سرقت جميعها من قِبل الشرطة أو المدنيين، وخصوصاً هذا العامل الجديد أحمد، وكان هذا، بعد ذلك، سبب السماح لهذه المعلبات بالدخول إلى زنزانتي من باب "رب ضارة نافعة".

المشاكل مع السجناء اليهود:

في تلك الفترة وبين الحين والآخر كنت أتعرض للأذى الكبير من قبل هؤلاء الجنائيين، وخصوصاً بعض المتطرفين اليهود الذين كان يتم إحضارهم لهذا القسم لأسابيع كعقاب، ويعرفون وضعي واسمي وأخباري التي كانت تتناقلها المحطات الإسرائيلية في الأخبار، فيبدؤون بتوجيه السب والشتم عليّ بكل الألفاظ، وخصوصاً وقت الأذان، وكنت أدخل معهم في معركة مسبات، كنت لا أستطيع في بادئ الأمر أن أجلس مكتوف الأيدي، وكنت أواجه مسبّاتهم بمسبات وتهديدات، حتى إنه للأسف دخلتْ في قاموسي كثير من هذه الألفاظ والمسبات التي أصبحت دارجة على لساني، وأحاول التخلص منها، لكن مع الفترة وتكرار مسبات هؤلاء أصبحتُ أتجاهلها، وكأنني لا أسمعها، على الرغم من أن الكلام كان يصل إلى مسمعي، ومسباتهم كانت جارحة جداً للأهل، وخصوصاً على الوالدة، لكن ماذا تفعل وسط مجانين، إما أن تصبح مثلهم مجنوناً، وتصبح مشاركاً في كل طقوسهم، أو تسمع وتنسى وكأنك لا تسمع، وتحافظ على نفسك، وتعض على جراحك، وكان ذلك أفضل.

كانت إجراءات الإدارة في هذه الفترة قمعية، وكنت أشعر بالاستهداف الكامل لحياتي وشخصي في كل لحظة، كان القسم ومشاكله والإدارة وقمعها، وخصوصاً في موضوع التفتيش المستمر، وتخريب الأغراض، واقتحام زنزانتي المستمر ليلاً من قبل وحدات النحشون، وحتى تقييدي مرات وأنا نائم قبل أن أتمكن من القيام من فرشتي، والبقاء ساعات مقيداً واقفاً حتى ينهوا التخريب في زنزانتي الفارغة من أي شيء. حتى إنه في أحد المرات والتي تكررت بعد ذلك كانوا يحضرون كلاباً معهم، يدخلونها داخل الزنزانة، تعيث دماراً، وتشمّ كل أغراضي وأدوات طبخي، وتستفزني، وطبعاً كل تفتيش لزنزانتي كان يرافقه تفتيش جسدي لشخصي، وبشكل عارٍ؛ حتى إنني أصبحت أفكر أن أبقى عارياً أفضل لي، وهذه أفكار تراودني من باب التعامل الساخر مع هذا القمع الذي يستهدف شخصي وإرادتي. ولكي أحافظ على نفسي وجدت أن أنسب أسلوب للتعامل مع كل هذه الإجراءات هو مواجهتها بسخرية، وأعصاب ثابتة، وعدم الانجرار وراء الاستفزازات التي قد تفتح الطريق لهؤلاء الأوباش للاعتداء عليك، والاستفراد بك.

فك القيود:

وما زلت أتحدث عن سنتي الأولى في هذا العزل، وكان أهم موضوع ضاغط على نفسي: "القيود" وإبقاءها معي في أثناء الفورة، لذلك وبعد عدة مطالبات والانتظار الطويل لمدة تجاوزت العشرة شهور أو أكثر، وأنا أبقى مقيد الأيدي والأرجل بالفورة، ومع ذلك استمر لعبي للرياضة، ولم أتوقف، ولكن هذا لم يكن حلاً، لذلك قررتُ أن أخوض إضراباً آخر، وأبلغت الإخوة في السجن بذلك، وبأسباب إضرابي حتى يساعدوني بضغطهم على الإدارة، وفعلاً بدأت إضراباً جديداً عن الطعام ما يقارب خمسة عشر يوماً متواصلة، أخذوا من عندي كل شيء، وكنت مضرباً عن كلّ شيء إلا تناول الماء، وفعلاً والحمد لله لم أفك إضرابي إلا بعد تحقيق مطلبي، وأيضاً إدخال بعض التحسينات حول السماح بإدخال بعض الكتب التي كانت محجوزة، وبحمد الله كان ذلك انفراج كبير في حياتي، وعلى الرغم من كل ما أصابني من ضعف ووهن في جسدي، إلا أنني كنت دائماً أشعر بنشوة الانتصار نشوة عظيمة، لأن الإضراب لشخص في مثل أوضاعي، وبعيداً عن كل شيء صعب جداً، وبحمد الله بدأتُ حياة رياضية جديدة، وحتى صمودي وإضرابي فرض احترامي على هؤلاء

الأوباش، وعرفوا أن تهديدي بخطوة الإضراب تهديد جِدّي، وساعدني كثيراً إخواني الأسرى بوقوفهم معي، والضغط على إدارة السجن.

زيارات هشام عبد الرازق:

كان في ذلك الوقت يسمح لهشام عبد الرازق، وهو وزير الأسرى السابق في حكومة السلطة الفلسطينية بزيارة السجون، ومع أن وضعي كان من أسوأ الأوضاع، مع ذلك لم يأتِ لزيارتي إلا بعد ضغط من المعتقلين، وكانت زيارته لا تقدم ولا تؤخر شيئاً في وضعي، ولم أستفد منه حتى ولو على مستوى دفع الكنتينا، فقد طلبتُ من الوالدة في إحدى المرات أن تدفع لي كنتينا، وتذهب لأخذ المبلغ من وزارة الأسرى على حسب ما أُبلغت من قبل الأسرى، وعندما ذهبت الوالدة على حسب ما أخبرتني أنه نفسه هشام عاملَها معاملة سيئة للأسف، قائلاً لها: "ألا يكفي ما عمله ابنك من تخريب لعملية السلام!"، وكانت الوالدة متأثرة جداً، وقد آلمني جداً ما حدث، ومنعتها من الذهاب نهائياً، وفي كل زياراته لم أخبره، ولم أفتح معه الأمر، وكانت زياراته ولقاءاته بي تتم تحت مراقبة شديدة، بل يكون هناك استفزاز من قبل الشرطة، لذلك لم أكن سعيداً أو مبسوطاً بأي زيارة.

زيارة أخي أكرم:

أخي أكرم يصغرني بثلاثة أعوام، اعتقل قبلي بشهر في أثناء عودته من السودان، وحُكم عليه بثلاثين عاماً، كنوع من الانتقام لا أكثر ولا أقل، عنده مشكلة صحية سببها ما تعرض له من تعذيب في التحقيق، لذلك كان يتواجد باستمرار في مستشفى سجن الرملة بجانبي، وكنت أريد زيارته، وقدمت عدة طلبات حتى جاءت الموافقة، وأحضروه، ووضعوه في غرفة الزيارة، وأحضروني له مقيداً، ورفضوا فكّ قيودي، وأدخلوني عنده في الغرفة نفسها، عانقتُه، وقبّلته، وقلبي يعتصر ألماً، لكن هذا هو السجن، جلس كل منا على كرسي، وتحدثنا عن أوضاعنا وأمورنا وأخبار الأهل، ولمدة نصف ساعة، وكان قد أحضر لي أغراض كنتينا سمحوا لها بالدخول، وأعطوني إياها، وكانت هذه الزيارة الوحيدة التي حصلت عليها في تلك الفترة التي امتدت ثلاثة أعوام متواصلة في العزل. كنت قد بدأت أتعوّد على الحياة في هذا القسم، وعن طريق المساعدات التي كنت أقدمها للبعض من دخان وما شابه أستطيع تكوين

صداقات في القسم مع هؤلاء الجنائيين عرباً ويهوداً، وكنت مرات أتحدث معهم كنوع من أنواع التسلية.

مرور عام ووصول تيسير سليمان:

بعد مرور عام تقريباً على وجودي في هذا القسم، أخبرني ضابط الاستخبارات أنه سيتم إحضار سجين أمني عندي في الزنزانة نفسها. وعلى الرغم من كل صعوبة الأمر لوجود اثنين في زنزانة بهذا الحجم إلا أنني كنت في غاية السعادة، لأنه أخيراً سيأتي أخ يشاركني همومي في هذه الزنزانة، وفي هذا القسم الموحش. أخيراً سأعود إلى صلاة الجماعة، وهذا من أكثر الأشياء المؤلمة التي يتمناها أحدنا، وخصوصاً صلاة الجمعة التي نحرم منها نهائياً، ولا نستطيع أداءها بفعل هذه القوانين التي يخضع لها هذا القسم، سيأتي أخ تتحدث إليه، وتضحك معه، وتأكل معه! صدّقوني كانت فرحة لا تتصور، وحمدت الله على ذلك، على الرغم من أنني لا أتمنى لأي أحد من الإخوة القدوم إلى العزل، لكن الفرحة أنستني هذا الأمر، وتذكرت نفسي.

لم أعرف من هو هذا الأخ سوى أنه سجين أمنيّ، وفعلاً وبعد شهر من إخباري بذلك الخبر جاء الأخ تيسير سليمان من أسرى القدس، وهو محكوم بالمؤبد، وأحد قادة حركة حماس، وقد أفرج عنه في صفقة وفاء الأحرار إلى الخارج، وكنت قد تعرفت عليه سابقاً عندما كنت في السجن، ولكن معرفة بسيطة. دخل الأخ تيسير إلى الزنزانة، وعيونه لا تصدق هذه الحياة، وهذا الوضع، لكن هذا المتوفر، وما باليد حيلة، فعلاً أحدُنا بدون إخوانه أو أصدقائه يفقد طعم الحياة، ويعيش بوحشة صعبة، لأن الإنسان بطبعه شخص اجتماعي له محيطه الذي يعيش فيه، يفرح معهم، ويحزن معهم؛ والعزل سياسة أخذِ هذا السجين من محيطه الاجتماعي، وقطع أي صلة له بهذا العالم، وهذه فلسفة العزل الذي يقوم عليها، والتي يكون لها التأثير الكبير على الشخص سواء على المدى القصير أم المدى الطويل. "العزل": قتل لكل معاني الحياة في حياة الأسير، طريقة إجرامية من الانتقام من الأسير، حتى لو تمّ توفير كل شيء له، هذا لا يغني عن وجوده مع محيطه كأصدقاء وإخوة؛ لذلك كان حضور الأخ تيسير فيه تخفيف كبير؛ على الرغم من كل الصعوبات والضيق، لكن تواجهها بوجود أخ عندك يساعدك، ويعينك، أفضل بكثير مما لو كنت وحدك؛ يكفي

لو مرضتَ تجد أخاً عندك يُحضر لك ولو كأسَ ماء، يقف إلى جانبك، فعلاً كان يوماً سعيداً، على الرغم من أنه مؤلم، لأن أخاً جديداً جاء إلى العزل.

كنت مشتاقاً لأخبار الأسرى، وبدأت أسأل، وأستفسر عن كل شيء، وحول كل شيء، عملت له استقبالاً حافلاً كضيف جديد يجب إكرامه على حسب ما هو متوفر، صدقاً بالرغم من كل المرارة والضيق والتعب إلا أنني اعتبرت أن وجود أخ عندك ميزة إيجابية، فأنا ميزتي أنني شخص اجتماعي جداً أحب الحياة مع الناس، وهذا أيضاً كان من الأشياء التي جعلتني أفرح كثيراً. كانت حياتنا عادية، كنا متفقين نخرج للفورة، ونلعب رياضة، ونعود، وكل منا يشغل نفسه بشيء يعمله، سواء بالقراءة أم متابعة التلفاز، أم متابعة برنامج الأسرى الوحيد الذي كان يأتي وقتها على صوت فلسطين. وكنا نهتم به لأن أهل تيسير، وخصوصاً والدته كانت تتحدث على هذا البرنامج، استطعنا عن طريق العامل الذي اسمه أحمد أن نطمئن أهل تيسير على ابنهم أنه بخير، وهذا أهم أمر كان يجب عمله، وبعد ذلك تمّ تطمينهم من المحامي الذي يأتي لزيارتنا كل فترة، وأيضاً عن طريق الصليب الأحمر الذي يأتي كل شهرين أو أكثر لزيارتنا. ومع بُعد المدة كنا نحسب الأيام لقدومه، لأنه قد يحضر لنا بعض الكتب الجديدة. وبقدوم تيسير؛ دخلت معه كتب جديدة، وأغراض وملابس ساعدتني في تغطية النقص عندي.

قصة الفأر:

من الأشياء الجميلة التي ما زلت أذكرها لتلك الحياة قصة الفأر الذي كان يسرح ويمرح في الزنزانة، وتيسير لا يمكن أن ينام ولا يستطيع، ونبدأ جولة البحث عن الفأر، وأبداً لا يمكن أن يسمح لي بالنوم إلا بعد اصطياد الفأر الذي أخذ منا أكثر من ساعة. وقد اصطدتُه حيّاً، ووضعناه في علبة بلاستيك رقيقة مخرمة لكي يبقى على قيد الحياة حتى نسلمه للإدارة في الصباح كدليل على سوء الوضع، لكن هذا الفأر استطاع الفرار بعد أن قرض العلبة، وإذا بتيسير يوقظني لكي نبحث عن الفأر، وبدأنا جولة جديدة حتى تمّ إلقاء القبض عليه، لكن هذه المرة ميتاً للأسف، وسلمناه في الصباح للإدارة جثة، ولكن ما قدّم ذلك ولا أخّر شيئاً عند الإدارة، بل تعاملوا مع الموضوع بسخرية شديدة.

وفاة والد تيسير:

أصعب الأمور التي مرت عليّ هو عندما علمنا بمرض والد تيسير، لذلك وبمساعدة العامل أحمد تمكنّا من جعل تيسير يتحدث مع والده، ويسمعه صوته، وبعد فترة أخبرني أحمد أن والد تيسير توفي، هكذا أخبره أهل تيسير عندما تحدث معهم. والآن جاء دوري لكي أخبره بذلك فلم أعرف ماذا أفعل !لكن استعنت بالله، وفي ساعة الفورة بدأت حديثي معه، وقبل أن أبلغه شعر بذلك، وأصبح متأكداً من وفاة والده، وأخذت أخفف عنه، والحمد لله أنه كان شخصاً صلباً تحمَّل الصدمة، وتعامل معها بكل قوة، فعلاً كانت فترة مؤلمة لنا جميعاً. في هذه اللحظات التي تمر علينا نكون بين أمرين: إما أن نصبر ونتوكل على الله، أو نصبر ونتوكل على الله، لا حلّ ثانٍ! وهنا تكون أهمية الأخ والصديق عندما يكون عندك يواسيك، ويخفف عنك، والحمد لله مرت كما غيرها، وما هو أصعب منها، وبفضل الله وحده نصبر.

إنّ قدوم أخ عندك يشاركك الزنزانة كان له تأثير كبير على حياتي، جعلني أتغلب على كثير من الأمور. أصبح هناك متعة لبعض الأشياء التي كنت قد فقدت متعتها كالأكل والرياضة، وحتى متابعة برامج التلفاز، حتى على مستوى مواجهة الإدارة القمعية كان وجود أخ عندك يساندك، ويساعدك، لكن فعلاً كنا وكأننا في داخل علبة سردين، لا نستطيع التحرك في الزنزانة؛ وإن دخل أحدنا لكي يستحم يكون الآخر وكأنه في ساونا "حمام بخار"، وخصوصاً في زنزانة كهذه الزنزانة السيئة المغلقة نهائياً، صدقاً كان الموت المحقق الذي يسير إلينا في كل لحظة، وفي كلّ وقت عندما أعود إلى تلك اللحظات أتعجّب من نفسي كيف تغلبت على تلك الفترة، فأتذكر أن ذلك بفضل الله وحده، أبداً ليس لأحدنا فضل، وإن كان، فبعد فضل الله علينا.

لذلك أصبح عندنا اتفاق أنا وأخي تيسير أن نطلب من الإدارة وضعنا في زنزانتين بجانب بعض أو حتى وضعنا في زنزانة أخرى تكون أفضل من هذه الزنزانة، أو حتى إجراء تحسين عليها كفتح شباك فيها أو دهانها وأمور كهذه، لكن الإدارة رفضت كل مطالبنا التي استمرت فترة، ونحن نحاول معهم. لذلك قررنا أن نخدع الإدارة بأسلوب يجبرهم على إعطائنا زنزانة جديدة، فاتفقنا أنا وأخي تيسير أن ندّعي أن هناك مشكلة قد حصلت بيننا، وأن يرفض أحدنا الرجوع للزنزانة بعد الفورة، وفعلاً

تمّ ذلك، ورفضت الرجوع للزنزانة، وتركوني في الفورة عدة ساعات، ثم جاؤوا، وأخذوني لمقابلة مدير السجن الذي أخبرته ما اتفقنا عليه أنا وتيسير، وأنني أرفض العودة للزنزانة بسبب مشكلة مع الأخ الذي أعيش معه، وفي آخر الكلام رفض المدير إعطائي زنزانة جديدة، بل وضعوا أمامي خياراً لا يوجد غيره، وهو أن أسكن مع المجنون الذي أخبرتكم عنه "عصام"، السجين الأمني الذي جاء على القسم، وكان في زنزانة 15، ووضعُه مُزرٍ لدرجة لا يتصورها أحد، والآن أصبحت بين أن أبقى على كلامي، وأكمل الموضوع إلى نهايته حتى لو أدى ذلك بالدخول إلى زنزانة هذا المجنون، أو التراجع وانكشاف الأمر الذي سيظهرنا أمام الإدارة بصورة غير جيدة مع أن ما نطلبه حقّ لنا. لكن في هذه الأقسام بل في كلّ السجون لا يوجد حقّ للأسير، لذلك قررت السير بالموضوع حتى النهاية مهما كانت النتائج التي قد يكون لها تأثيرٌ خطِر على حياتي بالتواجد مع هذا الأسير المجنون، لكن طلبت من المدير أن يسمح لي بتنظيف زنزانة هذا الأسير فوافق، وكانت موافقته كنوع من أنواع قمعي، وعنده رغبة كبيرة كمدير سجن وكإدارة بأن يعتدي هذا الأسير المجنون على حياتي. كان الأمر عبارة عن تحدٍّ لم يكن أمامي سوى دخوله، وأيضاً من أجل المحافظة على حياتي طلبت طلباً آخر وتمّ الموافقة عليه، وهو أن نخرج لساعة الفورة معاً أنا والأسير المجنون وتيسير نخرج معاً للفورة، وكان قصدي أن تكون عندنا الفورة فرصة لو اعتدى هذا المجنون علي أن نتعامل معه في الفورة، وخصوصاً أنه صاحب جسم ضخم، وقد لا أستطيع التغلب عليه لوحدي، وتمّ ذلك. وبدأ التحدي وبدأت التجربة المريرة على الرغم مما أخبرتكم عن هذا المجنون لكن كنت أنظر اليه نظرة رأفة، وساعدته كثيراً خلال الفترة السابقة، وكنت أحاول دائماً مساعدته، لذلك على الرغم من هذه الصورة كان هناك عندي نظرة إنسانية للموضوع، وهي محاولة مساعدة هذا الشخص الذي لن يتحمل الحياة القائمة على الترتيب والنظافة بالتأكيد، وسيغادر الزنزانة لوحده، وهذا ما كنت أراهن عليه. طبعاً تيسير عندما علم بالأمر رفض لكن الموضوع أصبح عندي منتهياً، عندما عدت للقسم، وفتحوا الزنزانة على هذا الأسير الذي كان عارياً إلا من ما يستر عورته، كانت زنزانة من العصر القديم، سرداب من الذباب و"الهسهس" والبعوض، من كثرتها تغطي الجدران والسقف، البراز في كل أنحاء الزنزانة، لم تنظف من أشهر، وضعٌ فعلاً مُرعب. وضعوه داخل الفورة، وبدأت حملة تنظيف

استمرت لأكثر من ثلاث ساعات حتى تمكنت من تحسين وضعها، وبعد تهويتها وترتيب الأغراض فيها تمّ إعادة الأخ عصام المريض النفسي إليها، وكان وضعه مزرياً. على الرغم من صعوبة الأمر لكن صدقاً كان قلبي يبكي على هذا الشاب المسكين الذي وصل به الوضع لهذه المرحلة المَرَضية، وتُرِك من قبل الجميع ليعيش في الزنازين داخل أقسام الموت، ويُترك فريسة في أيدي هؤلاء الوحوش الذين لا تعرف الرحمة لقلوبهم طريقاً. هذا الشخص هو من مجموعة إخوة أسرى أصبحوا مرضى، ووضعهم أصعب من هذا الأخ، هم في أمسّ الحاجة للعلاج، ولمستشفى متخصص لكي يعالجوا، يتم وضعهم داخل هذه الزنازين، وتمارس بحقهم كل وسائل القمع حتى يتدهور وضعهم دون أن يسأل عنهم أحد، سواء أسرى أم مؤسسات، أو حتى يزوره محامي.

أحمد الله أن عصام كان هادئاً معي، وقد يكون بسبب مساعدتي له سابقاً، فوراً وبلطف أخذته إلى الحمام، وحمّمته، وغسلته، وليّفته، وقلّمت أظافره التي كانت كأظافر الوحش، وحلقت له شعره، ورتبت له لحيته وشاربه، وألبسته ملابس نظيفة، وأجلسته على تخته، وتحدثت معه، وتحدث معي تقريباً بصورة مقبولة. كان جائعاً جداً، عملت له طعاماً، وأحضرته له على تخته، وبدأت أعلّمه، وأتدرّج معه بكل الحِنّيّة، وأيضاً بكل الحذر، أعطيته ريموت التلفاز حتى يتلهّى به. كان مدخناً بصورة كبيرة، وأنا لا أستطيع تحمّل رائحة الدخان، مع ذلك صبرت على وضع كهذا، وبدأت حياتي مع هذا الأسير الأمني العنيف المريض نفسياً، على حسب ما أعرف اجتهدت، وصورت له نفسي كشخص قاتل، وحدثته عن وضعي، وكذبت عليه، وأشعرته أنني شخص لا تفرق معي حياة الشخص، وأخبرته عن حكمي، كان في بالي أن أحمي نفسي منه عندما يعرف ذلك، وفعلاً هذا ما حدث.

على الرغم من اللطف الذي عاملتُه به، وعلى الرغم من تحسن وضعه الذي كان واضحاً عليه، وعلى الرغم من استغراب الإدارة مما حدث، وفشلِ توقعاتهم والحمد لله بالاعتداء عليّ، كنت طوال الفترة على أعصابي، نادراً ما كنت أنام بالليل خوفاً من أن يُقدِم على أي تصرف، ومع ذلك لم أقصِّر معه نهائياً، والله شهيد على ذلك، بل كنت سعيداً جداً بتحسّن وضعه الذي استمر لأسبوع. وبدون سابق إنذار

وفي إحدى مرات فحصِ الزنزانة خرج، ورفض العودة؛ ما السبب، ولماذا! حتى هذه اللحظة لا أعرف!! واتهمتني الإدارة بأنني السبب، وأنني من طلب منه ذلك، لأنهم تفاجأوا هم بما حدث، كما أنا تفاجأت، ولكي أثبت لهم صدق كلامي أخبرتهم فليعيدوه مرة ثانية، وبالإقناع، وأنا مستعد أيضاً للذهاب لإقناعه بالعودة، وفعلاً عاد مرة ثانية، وكل ما أخبرني به كلام غير واضح، وغير مفهوم، وأنه يريد العودة للفترة السابقة، شخص مريض، مهما كان أسلوبي معه فلن يكون العلاج لذلك، لأنه يحتاج لأدوية وعلاجات متخصصة، فقط عاد ليوم واحد، وفي مساء اليوم الثاني خرج ولم يعد. واعتبرتها منحة من الله وفضل منه لكي أرتاح، وأستطيع النوم، لا يعلم إلا الله كيف كان حالي، وكيف كنت أعيش على أعصابي طوال هذه الفترة. وأيضاً قد وصل الخبر للإخوة في باقي السجون أن إدارة السجن وضعتني بالقوة عند هذا الأخ المريض الذي يعرفونه جيداً، ويعرفون خطورته، لذلك حدثتْ احتجاجات عندهم في السجون علمت بها لاحقاً. المهم، عندما فشلتْ سياسة الإدارة، وفشِل مكرهم، ولكي يعالجوا الموضوع بطريقة لا يكونون فيها مهزومين، أخبرونا أنهم سيقومون بإجراء تحسينات على زنزانة رقم 17 وهي الزنزانة القديمة التي كنا فيها أنا وتيسير، والآن يوجد بها تيسير لوحده، لذلك ولكي يتمكنوا من تحسينها يريدون أن يأتي تيسير عندي في الزنزانة لمدة أسبوع، رفضنا في البداية خوفاً من مكرهم، ومن التلاعب بنا، وكنا متأكدين من ذلك، لكنهم هددوا أن ينفذوا ذلك بالقوة، لذلك وبعد أخذِ وعدٍ من المدير أن الأمر فقط لمدة أسبوع تمّ ذلك، وجاء تيسير عندي، وفعلاً بدأوا بإجراء تحسينات للزنزانة لكنها تحسينات شكلية فقط، وعدنا لحياتنا أنا وتيسير التي قضيناها بالضحك على قصصي مع الأخ عصام الأخ المريض.

بعد أسبوع، وبعد انتهاء العمل، إذ بإدارة السجن تطلب مني ومن الأخ تيسير معاً العودة للزنزانة الأخيرة ناكثين بوعودهم، فرفضنا، وعملنا احتجاجاً، لكن ما باليد حيلة تركونا في زنزانتنا، وأعادوا الأخ المريض عصام إلى الزنزانة الأخيرة التي أجروا عليها تحسينات، وأصبحنا في وضع لا نحسد عليه، فالزنازين أسوأ من بعض، لكن قد تكون الأخيرة، ولأنها في آخر القسم أبعد قليلاً عن الدوشة؛ لذلك عدنا للوضع السابق، ووافقنا للعودة لزنزانتنا، وعاد عصام لزنزانته، وعادت حياته لسابق عهدها، بل تدهور وضعه أكثر، وهذه قصتي مع الأخ المريض وهذه هي إدارة

السجون التي لا تلتزم بكلمة ولا تتعامل معنا إلا بصورة قمعية، بل لا يوافقون على أمر يكون فيه مصلحة لنا، هي إذاً النظرة العنصرية للفلسطيني.

الإضراب الجديد:

بعد هذه القصة التي لعبتها معنا إدارة السجن، وعوْدتنا إلى زنزانتنا نفسها، استمرت حياتنا في هذا القسم، وفي هذه الزنزانة، وكل يوم كان هناك شيء جديد يحتاج منا لمواجهة مع هذه الإدارة القمعية، ولكن في لحظة من اللحظات يكون أحدنا مجبراً على أخذ قرارات مصيرية في حياته، وبعد أن أصبح لي في هذا القسم ما يقارب السنتين، وفي ظلّ هذه الأوضاع السيئة، قررت خوض إضراب مفتوح عن الطعام شعاره الخروج من العزل أو الموت، وباتفاق مع الأخ تيسير الذي كان له موقف مغاير، لأنه ما زال قادماً جديداً، كان الاتفاق أن أخوض الاضراب بمفردي، وتمّ إبلاغ إدارة السجن بذلك، وقد استطعنا توصيل الأخبار للإخوة في السجون، وبدأت إضرابي المفتوح عن الطعام الذي كنت أعي جيداً مدى خطورته، وكم سيكون صعباً، ومع ذلك قررت.

تمّ وضعي في زنزانة لوحدي، وأخذ كل أغراضي، وقد استطعت تهريب راديو وضعته داخل بوت الرياضة، واستمر عندي لأيام بحفظ الله على الرغم من كل التفتيشات التي أجروها عندي، وبدأت أيام الإضراب تسير، وحاولوا معي بكل الطرق، وأبداً رفضت كسر إضرابي أو تصديقهم، وكان حديثي أن كسر إضرابي لن يكون إلا في السجون عند الشباب.

جاء لزيارتي كثير من الضباط الكبار من مصلحة السجون لمحاولة إقناعي وإعطائي وعوداً، وأبداً رفضت الاستجابة، وهنا يجب أن تُذكر الأخت الفاضلة المحامية بثينة دقماق من مؤسسة مانديلا التي ساندتني جداً في هذا الإضراب، ولم تنقطع عن زيارتي نهائياً، بل كانت تأتي كلّ أسبوع، وكان لها الفضل بإبراز موضوعي في الإعلام، وهنا أقدّم لها الشكر على ما قامت به في تلك الفترة، وفي كل الفترات سواء السابقة، أم التي جاءت بعد ذلك.

كان المذياع وسيلتي الوحيدة لمتابعة الأخبار، وسماع برنامج الأسرى، وكنت أستمع له ليلاً أضعه تحت مخدتي، وأعمل نفسي نائماً، وأنا أستمع له، وكان وقت

مجيء برنامج الأسرى ظهراً، وكان ذلك مرتين في الأسبوع. استمر إضرابي عن الطعام لمدة 24 يوماً فقط، لا أتناول إلا الماء. نزل وزني كثيراً، لكن حافظت على تماسكي، وعلى معنوياتي، وعلى إرادتي على الرغم من تدهور وضعي الصحي، لكن لم يمنعني ذلك من السير، وأن أكون نشيطاً، وخصوصاً أمام إدارة السجن التي تعجّب ضابط الاستخبارات مني، وكيف أتمكن من السير بعد كل هذه المدة من الإضراب. وكان ذلك في آخر أيام إضرابي عندما جاء هذا الضابط لأخذي إلى مكاتب الإدارة، وهناك كان على الهاتف ينتظرني ممثل المعتقلين في عسقلان، ومعه ممثل أسرى حماس في السجن نفسه، وتحدثوا معي عبر الهاتف، وأخبروني أن مشكلتي حُلت، وأنهم أخذوا وعداً من مسؤول إدارة السجون بإخراجي من العزل، وطلبوا مني فكّ إضرابي، وخلال أيام بسيطة سأكون عندهم. طبعاً رفضت الاستجابة لطلبهم، وأخبرتهم: لن أفك إضرابي إلا وأنا عندهم في القسم، وأنني سأواصل، ومستعد للذهاب إلى النهاية، ولا أريد أن تضيع هذه الفرصة، لكنهم أعادوا عليّ الكرة مرة ومرة ومرة، ولم أوافقهم إلا بعد أن قطعوا على أنفسهم العهود المغلّظة على أنهم يتحملون المسؤولية في حال أن الإدارة خدعتني. وفعلاً وبناءً على هذه الوعود، وافقت وكسرت إضرابي عن الطعام بعد 24 يوماً، وقد تدهور وضعي الصحي بعد كسر الإضراب، وهذه هي المشكلة الأساسية في الإضراب أن ما يحدث من مضاعفات وأمراض بعد الإضراب تكون مرات أخطر من الإضراب نفسه، ولكن والحمد لله تعافيت جسدياً، لكن نفسياً لم أتعافَ، فقد خدعتنا الإدارة مرة أخرى، ولم يتم نقلي إلا بعد أربعة أشهر من كسر الإضراب، ونقلت إلى عزل آخر.

الانتقال إلى عزل عسقلان:

عزل عسقلان لا يقل سوءاً عن هذا العزل، وكانت هذه المفاجأة، ولم يتدخل أحد، ولم أسمع صوت من أعطوني العهود والمواثيق. نُقلت إلى عزل عسقلان، ووُضعت في زنزانة لوحدي، وقد أخبرتكم عن زنازين سجن عسقلان وصغر حجمها وسوئها وسوء أوضاعها؛ الذي خفّف عني وقتها مَن كان حولي من أسرى أمنيين معزولين، فقد كان هناك الأخ محمود عيسى جاري في الزنزانة، وأحمد شكري أحد أبناء حركة حماس الأسرى، والذي قضى كثيراً من سنوات عمره في العزل الانفرادي، وقد أُفرج

عنه في صفقة وفاء الأحرار. وعبد الرحمن غنيمات وهو أحد قادة حركة حماس، ومحكوم بالمؤبد، وهو عضو خلية صوريف التي قد تمّ تسليمها لليهود من قِبل جهاز الأمن الوقائي في الخليل، وقد أفرج عنه في صفقة وفاء الأحرار إلى غزة. وكان هناك أيضاً أسير أمني معزول، لكنه مريض نفسي من عائلة الحليسي، وعلى الرغم من أنه أسير أمني لكن مرضه كان يسبب لنا وضعاً نفسيّاً صعباً، فقد كان لا يَسمح لنا بالحديث، وبمجرد سماع صوت أحد منا يبدأ بالسب والشتم بألفاظ غاية في القذارة، لم يترك لنا لا أمّاً ولا أختاً إلا نالها بالسب والشتم، ونحن مجبرون على السكوت لأننا لا نعرف ماذا نفعل، بل في إحدى المرات حاول الاعتداء عليّ لولا ستر الله. وأيضاً كان عندنا في القسم أسير أمني آخر من لبنان مصاب بالهوس، وكان له جولات معنا بالسب أخطرها عندما قذفنا من الشبابيك بالماء القذر والقاذورات، ومع ذلك وعلى الرغم من كل ذلك كنا نجد من الوقت لكي نتحدث، ونضحك، ونخفف عن بعضنا البعض، وكانت في هذا القسم بداية صداقتي مع الأخ الفاضل محمود عيسى رفيقي في كل سنوات العزل.

في هذا القسم كنت أتعرض تقريباً أسبوعياً لعمليات الدهم من قِبل فرقة النحشون التي كانت تقتحم زنزانتي في الصباح الباكر، وتقيدني وأنا نائم في السرير، ويخربون كل شيء في الزنزانة، ويذهبون. كنا أيضاً نجد وقتاً في هذا القسم لكي نتعلم، ونقرأ، أو نتناقش في السياسة. كان الجميع يُقيّد من الأمام باليدين، وكنت أقيد من الخلف كنوع من أنواع القمع، استمر وضعي في هذا القسم مدة ستة أشهر، وقد قرر أخيراً الأسرى الدخول في إضراب مفتوح عن الطعام، وهو الإضراب المشهور الذي تمّ سنة 2000، والذي كان أهم مطلب من مطالبه خروج المعزولين، وقد لقي هذا الإضراب تجاوباً كبيراً معه من الخارج، وقد استمر ما يقارب العشرين يوماً، دخلنا نحن المعزولون مع المضربين والحمد لله أن هذا الإضراب تكلل بالنجاح بسبب الضغط السياسي وقتها. ويُعدّ هذا الإضراب الوحيد الذي خرج فيه كل المعزولين قبل كسره، وفعلاً خرجنا أخيراً من العزل.

خرجت أنا من العزل في شهر حزيران/ يونيو 2000 بعد عزل استمر لثلاثة أعوام متواصلة، وتمّ نقلي إلى سجن نفحة لكي أعيش مع الأسرى. وقبل خروجي كان

التهديد الذي وصلني من مسؤول الاستخبارات في السجن أن أي رجوع إلى العزل سيكون الرجوع الأخير، وأنني سأرجع بالتأكيد، هذا ما أخبرني به ضابط الاستخبارات. وفعلاً هذا ما تمّ بعد ذلك؛ فقد خرجت إلى شبه عزل من سجن نفحة إلى سجن بئر السبع (إيشل) سنة 2002 لمدة شهر تقريباً، وُضعت في قسم تمّ فتحه حديثاً، ومكثت فيه ستة أشهر حتى تمّ نقلي بشكل مفاجئ ليلاً إلى سجن هدريم في 2002/12/30. لم أمكث في سجن هدريم إلا يومين، حيث تمّ إخراجي منه بشكل مفاجئ في 2003/1/1، وما زلت حتى كتابة هذه التجربة وأنا أعيش في أقسام العزل الانفرادي.

وبذلك أكون قد حدثتكم عن التجربة الأولى من حياتي مع العزل التي استمرت ثلاثة أعوام، وسأبدأ بالحديث الآن عن تجربة العزل الثانية التي كانت أشد وأصعب وأكثر قمعاً وأطول مدة، وما زالت مستمرة حتى الآن.

الفصل الثاني

تجربة العزل الثانية

تجربة العزل الثانية

نبذة بسيطة عن الفترة الوسط ما بين العزلين الأول والثاني:

كنّا جداً فرحين بخروجنا من العزل، وكان ذلك انتصاراً كبيراً للحركة الأسيرة، ولجميع الأسرى، فقد استطاعوا تحقيق كثير من المطالب الحياتية، وعلى الرغم من أنه سجن، لكن جدرانه لم تمنعنا أن نفرح، ونسعد رغماً عن أنف السجان، وتحدّياً لهذا الواقع الأليم. خرجتُ إلى سجن نفحة، والتقيتُ مع الأصحاب والأحباب، وكنت في أشد الشوق لهم، وخصوصاً لأخي الحبيب يحيى السنوار (أبو إبراهيم) الذي كان حلماً عندي أن أراه، وأتحدث معه، وحقَّق الله لي هذه الأمنية، على الرغم من أنها كانت في السجن، لكنها كانت ممتعة. سمحوا للوالدة أيضاً بزيارتي. لكن أوضاع السجون لا تستقر على حال، ودائماً فيها الجديد، وهذه الإدارة القمعية ما كانت لتنسى الهزيمة التي تلقتها بفعل صمود الأسرى وقوة إرادتهم، فبدأت تنغيصاتها المعهودة، وأخذت باختلاق الأسباب لإثارة المشاكل، ومجالها واسع وإمكانياتها كبيرة، فهم مؤسسة متكاملة ليس لها عمل سوى أن يعيش هؤلاء الأسرى في حياة أقرب إلى الجحيم إن استطاعت ذلك، فهي بالفعل معركة دائرة مستمرة بين إدارة احتلال تملك كل الوسائل والإمكانيات المادية القمعية، وأسرى مناضلين لا يملكون سوى إيمانهم بقضيتهم وقوة إرادتهم، لذلك كان لي نصيب من هذه التنغيصات.

بعد فترة منعوا زيارة أهلي، وتمّ نقلي بشكل قمعي من سجن نفحة إلى قسم هو أشبه بالعزل في سجن بئر السبع (إيشل)، كانوا قد فتحوه جديداً، وبدأوا بوضع أسرى أمنيين فيه كنوع من أنواع العقاب. مكثت في هذا القسم مدة لا تتجاوز ستة أشهر، وفجأة وبدون مقدمات أو أي أسباب تمّ إبلاغي ليلاً بتجهيز أغراضي لأنني منقول بشكل خاص في وقت متأخر من الليل، وكنت وقتها أعيش أنا وأخي الفاضل يحيى السنوار معاً في غرفة صغيرة. ولأنه سجين قديم وصاحب خبرة توجّس من الأمر، وأخبرني أنني ذاهب للعزل على ما يبدو، وطلب مني تهيئة نفسي

للعزل، أو لما هو أسوأ منه، لذلك وفوراً قام بتجهيزي بكل ما يستطيع من أغراض وخصوصاً الكنتينا. كانت هذه النقليات التي نبلغ بها تتم على حسب مزاج الإدارة، هي من كانت تتحكم بالأمر، وكان المعتقلون على حسب وضعهم في السجن يرفضون مرات، ويخرج مسؤول المعتقلين للتفاهم مع الإدارة، لكن في آخر الأمر كانت هذه النقليات تتم حتى ولو بالقوة، كما حدث معي عندما أخرجوني من السجن في العزلة الأولى. لذلك جهزت نفسي وأغراضي، واستطاع الشباب الذين وقفوا معي موقفاً رجولياً أن يعرفوا من الإدارة إلى أين سيتم نقلي، وأخيراً أخبروهم أنني منقول إلى سجن هدريم، طبعاً تشكك الشباب من ذلك، وخصوصاً على شكل وسرعة ووقت النقل، والتي كانت مفاجئة، تمكنت من التسليم على من أستطيع من الأسرى.

الانتقال إلى هدريم:

كانت الأجواء خارج القسم غير طبيعية توحي بالخطورة، فقد كانت فرقة خاصة تنتظرني قامت بشكل استفزازي بتفتيش أغراضي وتفتيشي بشكل عارٍ، وقد أخذوا وقتاً طويلاً، كانت في رأسي كثير من الأفكار والتوجّسات، كلها كانت تقول إنني ذاهب إلى التحقيق، هذا كان شعوري. وضعوني في سيارة خاصة مع أغراضي، وانطلقنا فعلاً، وصلنا إلى سجن هدريم، نمت هذه الليلة في الزنازين، وفي الصباح وأنا في هذه الزنازين جاءت مديرة السجن واسمها "بيتي"، وتعرفت عليّ، وأخبرتني أنني سأدخل السجن بعد قليل. وفعلاً بعد إجراءات التفتيش، وأخذ أغلب الأغراض دخلت السجن، وكنت سعيداً بالتقائي بكثير من الإخوة الأحباب، وكان ذلك في 2002/12/29.

مكثت في هذا السجن ثلاثة أيام، وكما هي نَقْلي من سجن بئر السبع مُفاجئاً، كان خروجي من سجن هدريم سريعاً وأكثر مفاجأة، ففي صباح 2003/1/1 أبلغوني بالخروج للبوسطة بحجة أن لي محكمة، وهذا لم يكن صحيحاً. لذلك حاول ممثل الأسرى معرفة أين ولماذا! وأن يرفض خروجي، بل أصروا بشكل نهائي، واستعجلوا في إخراجي، وجاء شرطي، ولازمني حتى أخرج بسرعة، وأصرّوا أنها سفرية. خرجت بدون أغراض، فقط ما يلزمني ليوم واحد، حتى إنني لم أستطع أن أودع أحداً لسرعة الأمر، أخرجوني بسرعة، ووضعوني بالزنازين، وبدأت تتضارب لدي

الأفكار والهواجس التي كانت كلها شواهد تقول لي إن هناك أمراً حدث، وأنني ذاهب إلى التحقيق، لذلك هيّأت نفسي لهذه الأجواء. مع الظهر جاء ضابط الاستخبارات، وأخبرني أنه لا يوجد بوسطة، وأنهم وصلتهم أوامر بإخراجي من السجن فوراً، لذلك سيتم وضعي في مكان لمدة، حتى تصلهم أوامر أخرى، لذلك أخذوني إلى قسم خاص بوحدة النحشون، وهذه وحدة خاصة لها أعمال متعددة خاصة بالأسرى، فهي فرقة قمعية جداً، شهرتها سيئة، مسؤولة عن تنقلات الأسرى بين السجون أو للمحاكم، وعن عمليات التفتيش والاقتحامات والقمع. وفيها وحدة خاصة تسمى "وحدة السموم"؛ عملها الكبير عند الجنائيين، لكنها تشارك في كلّ عمليات القمع والتفتيش عند الأسرى الأمنيين. أخذوني، ووضعوني في قسم هذه الوحدة الخاصة للسموم، ووضعوني في غرفة صغيرة تابعة لهم دون إبداء الأسباب أو معرفة أي شيء، ولم يكن أحد يعلم شيئاً، بذلك قطع اتصالي نهائياً مع الأسرى الأمنيين.

في اليوم الثاني، جاءت مديرة السجن، وأخبرتني أنني أُعدّ الآن تابعاً لقسم التحقيق، وسأبقى هنا بأوامر من مسؤول الاستخبارات في السجون واسمه " فباي"، مدير سجن عسقلان الذي حدثتكم عنه في حديثي عن العزلة الأولى، لذلك ممنوع أن يأتيني شيء من عند الأسرى، وهي تنتظر مثلي أي أوامر جديدة. طلبت منها مصحف قرآن، وبعض الملابس الداخلية، فطلبتْ من ضابط الاستخبارات إحضارها لي من عندهم، وفعلاً أحضروا لي هذه الأغراض، وبقيت وحدي في هذه الزنزانة، لا أخرج منها نهائياً، يتم إدخال الأكل من فتحة أسفل الباب، وكان الأكل الذي يصلني من أكل الشرطة، لا أحدث أحداً ولا أحد يحدثني لمدة أسبوع كامل استمر هذا الوضع... وفي نهاية الأسبوع وليلاً فتحوا عليّ باب الزنزانة، وكانت فرقة خاصة للنحشون طلبوا مني أخذ أغراضي.

الانتقال إلى عزل شطة:

قيّدوني من الخلف، وفتشوني، وكانوا عنيفين جداً، وأخذوني بدون أن أعرف إلى أين بشكلٍ إرهابي من سجن إلى سجن، وخروج بشكل سريع، وإجراءات مشددة، ووضعي في قسمٍ تابع لفرقة السموم، ومنعِ أيِّ شيء من الوصول إليّ في أجواء بوليسية، وكأننا في فيلم رعب أو فيلم من أفلام الجاسوسية، وضعوني في السيارة

مقيّداً من الخلف، وكما أخبرتكم كان يقيني أنني ذاهب إلى التحقيق، وهم أخبروني بذلك عن طريق مديرة السجن، لكن لم أكن أعلم إلى أي سجن أو أي تحقيق أنا ذاهب! توقعتُ قسماً في الشمال! المهم وصلتُ إلى سجنٍ، طبعاً كانت الساعة في حدود التاسعة ليلاً، دخلت السجن، ولم أعرف أيّ سجن، ولكن عندما أنزلوني من البوسطة، واستقبلني ضابط هناك ربّت على ظهري بشكل عنيف، وكأنها ضربة، وهذه أوحت لي كيف سيكون الاستقبال؛ أدخلوني غرفة صغيرة، وبجانبها غرفة تسليم الأغراض، وبعد فكّ قيودي غادرَنا النحشون، وتركت تحت مسؤولية السجن.

كنت في هذه الغرفة الصغيرة، وحولي كثير من الشرطة والضباط، والوضع لم يكن مريحاً، وكانت نظراتهم غريبة، وكأنهم متفقون على شيء معين، وينتظرون ساعة الصفر للقيام به، فتشوني بشكل عارٍ، أيْ كنت أمامهم عارياً، وهذا أمر من كثرة ما حدث للأسف وكأنه أصبح عاديّاً، وعندما أعطوني ملابسي، وبدأت بلبسها، وبعد الانتهاء من اللبس قيدوني من الخلف، وكانت هذه كلمة السر للبدء بالحفلة؛ فقد انهالوا عليّ جميعاً ضرباً بالأيدي والأرجل، في كلّ أنحاء جسمي مع الشتائم والصراخ والوعيد، وبدون سبب، وكأنه كان مخططاً للأمر مسبقاً. ضربوني ضرباً جامداً، وضعت نفسي في زاوية لأحمي وجهي، وإذا بهم جميعاً يتحدثون العربية "شرطة عرب"! منهم من يكفر، ومنهم من يتوعّد، ووقتها عرفت أنني موجود في سجن شطة من حديثهم لي "شطة هذه آخر محطة"، "يا ويلك إن بنسمع صوتك، حتكون هذه آخر أيامك"، وكلام كثير، وشتائم، وكفر. واستمروا بضربي حتى دخل ضابط أعلى منهم رتبة عرفت أخيراً أنه ضابط الأمن اسمه هاني؛ وقف أمامي وهم مستمرون بالضرب، ويصرخون، وأصبحوا يقولون لي عبارة كُفرية: "الله فوق، هاني مكانه هون". بعد فترة طلب منهم التوقف، وأخبرهم أن يحضروني إلى مكتبه، وفعلاً أخذوني هناك جَرّاً، وأجلسوني على الكرسي، وأخذ هذا الضابط يهدّد، ويتوعّد، وإنك شخص موصّى عليه، يعني "بتموت هون ما حدا بيسأل عنك"، وأخذ يلقي عليّ أوامر العزل الجديد. وبعدها أخرجوني، وساروا بي إلى قسم العزل، ووضعوني في قسم العزل زنزانة رقم 14، وهناك على ما يبدو لم يكتفوا بكل الضرب، وكأنها مهارة يمارسونها، أو متعة أو إدمان لا يستطيعون تركه، أكملوا عليّ في داخل الزنزانة، ورموني بداخلها، ومعي بعض أغراضي، وخرجوا، وأغلقوا الباب.

كنت منهكاً جداً، وكل جسدي يؤلمني، وكانت زنزانتي من شدة سوئها يتمنى أحدنا الضرب على دخولها؛ كانت رائحتها عفنة، بحثت عن الماء لأشرب، ولأغسل وجهي، وإذا بالمرآة معلقة فوق المغسلة، وبالصدفة شاهدت وجهي فأرعبني حاله وشكله والدم الذي يملأ وجهي؛ بدأت أستعيد رباطة جأشي، ففي هذه المواقف الاستسلام يعني الانكسار أو الانتحار، وما كنت لأسمح لنفسي أن تنكسر، بدأت أستعيد كياني، وأشحن نفسي من جديد، وأتذكر من أنا، وأن هذا احتلال، وبشاعته، وأن هذا أمر طبيعي من محتل مجرم. في لحظة واحدة استرجعت مخزوني الديني والثقافي والوطني حتى أقْوَى وأتغلّب على ضعفي، فلا يوجد أمامي حلّ آخر لئلا أنكسر، كنت أتألم، كان وضعي صعباً جداً، هذه طريق اختارها أحدنا بإرادته، ويعرف ما بها، وما سيواجه من أمور صعبة قد تصل إلى حدّ الموت شهيداً.

لا أنكر أنها فترة عصيبة وصعبة عشتها، وما زالت عالقة في ذاكرتي لا يمكن أن تغيب عن بالي. تحاملت على نفسي، وغسلت وجهي، وبدأت أتعرف على زنزانتي التي كانت خالية من أي شيء، حتى أخرجني من حالي ووضْعي صوتٌ من بعيد ينادي عليّ: أبو الشباب، هل هناك قادم جديد؟! صوت يصلني بصعوبة، وفوراً توجهت إلى الشباك، وبأعلى صوتي ناديت، وأصبحت أسمع أفضل، وكان من ينادي عليّ من هم بجانبي في زنزانة رقم 15، وكان يتواجد بها اثنان من الأسرى وهم أخ اسمه نزار رمضان، والأخ الآخر ربيع الزَّغَل من القدس، وهما من أبناء حماس المحكومين أحكاماً عالية، وقد كانوا في العزل بسبب قيامهم بالهرب من السجن، هم والأخ محمد الرشق، وقد أُفرج عنهم في صفقة وفاء الأحرار، و كانوا عندما عرفوا اسمي، وأخبرتهم عن حالي لم يستغربوا لأنهم يعرفون ماذا يحدث في هذا القسم، وكان لهم في العزل فترة بسيطة.

كان الحديث معهم ممنوعاً، وحتى في لحظات بسيطة عندما كنا نتحدث كانت هناك صعوبة بسماعهم بسبب وضع الزنازين التي سأشرح عنها جيداً. المهم سمعتُ منهم كلاماً طيباً ومواساة وتصبيراً، واعتذرت منهم، فقد كنت جداً أتألم، وتعبان جداً، عرفت منهم مكان قِبلة الصلاة حتى أصلّي المغرب والعشاء، وفعلا توضّأت، وصليت لله، ودعوته سبحانه، وشكوت له حالي، وكنت في غاية الجوع، وكانوا عندما

أحضروني أحضروا لي خبزاً وخيارة وحبة بندورة، ومن شدة جوعي شعرت بها كأنها صينية "مقلوبة بالدجاج". لم يكن معي أغراض إلا القليل، ملابس داخلية، و"شُورت"، و"بلوزة"، و"وجه فرشة" وضعته على الفرشة الممزقة، وبملابس السجن نفسها نمت من شدة التعب.

قسم العزل في شطة:

يعدّ هذا القسم من أسوأ الأقسام، وكل الأقسام سيئة، وهو تابع لقسم السنوك. وكان قسم العزل جزءاً من هذا القسم، مفصولاً عنه بباب، لكن تسمع كل ما يجري، وتشعر إن جاء أحد جديد، ولكن لا تستطيع الحديث مع أحد لأنه ممنوع، قسم العزل إن جاز أن نسميه قسم يتكون من زنزانتين بجانب بعض لكنهما أبعد ما يكون عن بعض: الزنزانة الأولى بجانب غرفة الشرطي، مشتركان بالجدار نفسه، يصلك كل ما يحدث في غرفة الشرطي الذي يأتي لأي أمر، هما زنزانتان: رقم الأولى 14 والثانية 15، متشابهتان من الداخل، فأنا لم أدخل إلى زنزانة 14، لكن حسب ما أخبرني مَن كان في الزنزانة الثانية، هذه الزنزانة بالضبط بشكل مربع مساحتها 2م^2، بداخلها سريران من الحديد فوق بعضهما، حمام ودورة معاً، وأمام الحمام مغسلة، على جهة الحمام شباك خارجي نصفه بالزنزانة، والنصف الآخر بالحمام، الزنزانة خالية من أي أثاث؛ لا خزانة سوى واحدة خشب على الأرض، لا مكان للتلفاز، أو حتى علّاقة ملابس. والباب مغلق تماماً، فقط فتحات من أجل إدخال الطعام، وفتحة من الأعلى صغيرة تسمح للشرطي بمشاهدتك كل حين، وهما مغلقتان من الداخل تماماً، وتفتح من الخارج من قبل الشرطي. يوجد هذا القسم في زاوية من زوايا السجن بجانب "الشيك" بعيداً عن أي حركة، أقرب شيء لك كلاب الحراسة، لذلك تحتاج للتأقلم على نباحها المستمر الذي لا يتوقف ليلاً أو صباحاً، وما يصل لك عبر الشباك من رائحة كريهة ناتجة منها، وجميع أنواع الحشرات الطائرة والزاحفة بعضها تعرف ما هو، وأكثرها لا تعرفه، تشاهده لأول مرة، ومهما حاولت أن تنظّف، أو تحمي نفسك لا تستطيع السيطرة على ما يصلك من هذا الشباك حتى لو أغلقته. وللعلم لا يمكن إغلاقه إلا باستخدام نايلون، وبذلك تغلق مصدر الهواء الذي تتنفسه، لأنه هو المصدر الوحيد لإدخال الهواء المحمّل بالأتربة الملوّثة ببراز وبول الكلاب!

الشيء الأكثر إزعاجاً والذي استُخدم معي بشكل خاص في هذه الزنزانة هو الفوضى القائمة والمستمرة بدون انقطاع في غرفة الشرطي من ضحكٍ، وضربٍ على الحائط، واستخدام عصا الفحص، وكانت أغلب هذه الأمور متعمّدة تصل لحد الضرب على الجدار في أوقات يعلمون أنك نائم بها.

والأكثر إيلاماً هو أنك ولقربك من زنازين العقاب تقريباً يومياً تعيش على أصوات صراخ الأسرى الذين يحضرونهم إلى هذه الزنازين. وبمجرد وصول السجين إلى هذه الزنازين يُستقبَل بحفلة من الضرب تسمعه جيداً، وتعيش معه، وكأنه في داخل زنزانتك تسمع صراخ الأسرى وآلامهم، وحتى بكاءهم، ولا تعرف مَن هم: هل أمنيّون أم جنائيون، عرب أم يهود! والكل يتعرض للضرب البشع في هذا القسم، الذي ومن شدة ما حدث فيه من انتهاكات تمّ تسليط الأضواء عليه، وعرضوا تقريراً عما كان يحدث في هذا القسم من انتهاكات. وأكيد كان ذلك وراءه سجناء جنائيون يهود تمكنوا من فضح جرائم هذه الإدارة في هذا السجن، وهذا القسم الذي عشت فيه لمدة قاربت على العام، كنت أعدّها نهايتي، وأنني وُضعت في هذا القسم من أجل التخلص مني، وهذا كان له تأثير نفسي سيلمسه القارئ وأنا أحدثه عن هذا القسم، وما كان يَحدث به.

كان يوزع الأكل في هذا القسم شرطيّ، وطبعاً لا يصلني شيء، الشرطة هنا ليس لهم مشكلة مع السجناء فقط، بل لهم مشكلة أيضاً مع كل شيء، حتى الباب وضربه بعنف، مع الطاقة وفتحها وإغلاقها بعنف، مع الهدوء والصراخ بالصوت العالي، مع الأكل وعدم إحضار شيء، مع السمع: فلا يسمعك أحد، أو يسمعونك، ولكن لا يجيبك أحد نهائياً "لغة تطنيش"، لكن بمجرد أن تضرب الباب ضربات خفيفة لا تعرف من أين وصلوا، وفتحوا عليك الباب، وبدأ السب والشتم والضرب، وكثيراً ما حدث ذلك معي. لا يوجد في هذا المكان قانون، فالقانون الموجود مزاج الشرطي وأخلاقه إن كانت توجد أخلاق؛ في هذا القسم يتم إجراء العدد أربع مرات بخلاف كل السجون، وفي كل مرة يجب أن تقف، وأن تلبس زي الإدارة كما فرض على الأخ مروان البرغوثي في أول قدومه. يتم إجراء فحص للزنازين مرتين صباحاً، وهم يحددونها قد تكون بعد العدد مباشرة يعني قرب صلاة الفجر أو بعده، وفي الليل مع العدد الأخير الذي

ليس له وقت، ويكون الفحص للزنزانة بشكل دقيق، وبالضرب العنيف على الجدران المكسرة من كثرة الضرب عليها، ونقلِ الأغراض القليلة والخروج؛ هذا يومياً مرتين، ومرة ثالثة وقت الفورة، سواء خرجت أم لم تخرج. وهذا الفحص ليس له علاقة بالتفتيش الذي يحدث باستمرار، شبه يومي، وليس له ميعاد، وأغلبه ليلي، فقط يتم فتح الباب بعد تقييدك، ويقوم الشرطي بتخريب زنزانتك، هو لا يفتّش، هو له مشكلة مع النظام.

أيامي الأولى في الزنزانة:

نمت من شدة التعب، واستيقظت في منتصف الليل على صوت الشرطي يريد أن يطمئن على وضعي بعدما حصل أو ما قاموا به، وبعدها لم أستطع النوم، وشردت بي الأفكار، وجدت نفسي في هذا الوضع، وما حدث معي من قمع وضرب ما زالت آثاره على جسدي، وما زالت الشتائم يتردد صداها في أذني. وعلى الرغم من أنني ومِن أول اعتقالي وحتى في العزلة الأولى كنت دائم التعرض للضرب والقمع، بل حتى كما أخبرتكم سابقاً نادراً ما كنت أعود من البوسطة بدون آثار الضرب والدماء التي تنزف من أنفي سواء في السجن، وما كان أحد يتحرك، أم حتى عندما وضعت في العزلة الأولى، والاستفراد التام بي وما حدث معي أخبرتكم به على حسب ما أسعفتني ذاكرتي، ومختصراً. يعني كنت قد عوّدت نفسي على هذه الظواهر، وكنت متفهماً لوضعي، وطبيعة قضيتي، وأفهم جيداً عنصرية هذا المحتل، وسياسته القمعية، لكن ما حدث معي في بداية هذه العزلة كان وحشياً جداً، لا أنكر أنه أثّر على نفسي كثيراً، واستمر تأثيره عليّ طوال الفترة التي قضيتها في عزل شطة، لا أقول كنت خائفاً، مع أن الخوف كان موجوداً، ولكن أقول إن ما حدث معي، وبهذا العنف، وبهذه القسوة أوصل رسالة مفادها أن هناك توصية من أعلى المستويات على معاملتي بهذه الوحشية. وأن هذا القسم وبما يحدث فيه مع الجميع، وبكل هذا العنف، جعلني أعيش لوحدي، لا أطلب شيئاً، ولا أهتم بشيء، ولا أعترض على أي إجراء يقومون به سواء صغيراً أم كبيراً، وكنت أبعد ما أكون عن أي احتكاك مع أي شرطي، منعت نفسي من الانجرار لأي استفزاز حرصاً على أن لا أُهان أو يتم الاعتداء عليّ كما حصل سابقاً. صدقاً ما حدث معي آذاني جداً، وخصوصاً في ظلّ انقطاع تام عن العالم، لا زيارة

للمحامين، ولا أخبار، ولا حتى ردة فعل على أخذي للعزل، بمعنى أنه يجب أن أواجه مصيري لوحدي، وهذا ما حدث بالضبط.

كانت فسحتي الوحيدة لحظات بسيطة أتمكن من سماع صوت مَن هم في جواري الأخ نزار والأخ ربيع، وطبعاً تمكنت من إخبارهم بما حدث معي، لأنهم كان يزورهم أهلهم، وقد استطاعوا إخبار الأسرى بوضعي عن طريق عائلاتهم. وهم كانوا في العزل بسبب مخالفات داخل السجن، نزار رمضان كان معزولاً على إثر محاولة هروب فاشلة، وربيع كان معزولاً على إثر خلاف مع شرطي، وضعُهم يختلف كثيراً عن وضعي، فقد كنت معزولاً بناء على قرار من الشاباك الإسرائيلي، وتوجد توصيات من أعلى المستويات بالتعامل معي بهذه الوحشية وهذا القمع كنوع من أنواع كسر الإرادة والتأديب. وأهم شيء الانتقام الشخصي من أسير يعدونه مسؤولاً عن عمليات كبيرة جداً كشفت هشاشة هذا المحتل، عندما توقفت حياةُ مجتمع كامل بناءً على ما حدث من شدة الخوف والذعر الذي عاشوه وعايشوه على إثر هذه العمليات.

كانت أيامي الأولى في هذه الزنزانة بدون أي شيء، لا كهربائيات ولا كنتينا وبعض الملابس البسيطة، حتى على مستوى أدوات التنظيف لم يكن عندي شيء، وكنت أرى نفسي أعيش في فترة عقاب، كان أكثر الأشياء إزعاجاً هو أنّ من اعتدى عليك وهم كثير يأتون ويخرجون، سواء للعدد أم للتفتيش أم للفحص أم يعملون في القسم نفسه وأنت مجبر أن تراهم، وأن تتعايش مع هذا الوضع. قد يتهمني الكثير بالاستسلام لهذا الواقع، وهم محقّون، وقد يتهمونني بالجبن، وقد يكونون محقين، لكن وبدون مكابرة كان وضعي في هذه الفترة بين ذاك وذاك، وبنيت سياستي في التعامل بناءً على ما أخبرتكم به، هل كنت محقّاً أم كنت تحت تأثير ما حدث معي، أم ما حدث معي جعلني أخاف أو أصبح جباناً؛ وجهات نظر تُحترم!

في أيامي الأولى، وكأي معزول، أخرجوني لمقابلة مسؤول المنطقة الشمالية في إدارة السجون، لإبلاغي بالعزل بشكل رسمي لأسباب أمنية. وهو عزل مفتوح ليس له سقف محدد، ولكن من أجل القانون (كما يقول) قام بتجديد العزل، لمدة شهرين، حيث كانت تجدّد بعد ذلك غيابياً لمدة ستة أشهر. وبعدها، يتم إخراجك للمحكمة من أجل التجديد، إن كنت تعيش لوحدك؛ وكل عام إن كان معك شريك في الزنزانة.

زيارات المدير والإدارة الأسبوعية:

وعلى حسب النظام المتبع في هذا السجن، وللعلم كل سجن له نظام إداري خاص به، كانت تُخصص زيارات أسبوعية لمدير السجن كجولة تفقدية لا يستفاد منها نهائياً، بل مرات تكون لفحص الإجراءات الأمنية وزيادتها، أو إذا كان هناك تراخٍ. أما ما يخصنا كأسرى وخصوصاً من هم في وضعنا كمعزولين فقط يفرض علينا الاستيقاظ باكراً في هذا اليوم، ويجب أن نلبس ملابس السجن، ويدخل المدير ومن معه للتفقّد، ولا يتم الاستجابة لشيء من مطالب قد نعرضها على المدير، وحتى مجرد عرضك لأي مطالب على المدير يكون ذلك سبباً في إجراءات انتقامية يتم تطبيقها عليك من قبل مسؤول القسم، لأنك تجاوزتَه، وتحدثتَ مع مدير السجن، وكأنك تتهمه بالإهمال، وهو الذي لا يقدّم لك أيّ شيء. كان مدير هذا السجن في تلك الفترة صهيونيّاً متطرفاً، وكثير من المشادات الكلامية التي حدثت بيننا بسبب عجرفته، وكان هذا الأسلوب مع الزيارات، يتكرر أسبوعياً أو كل أسبوعين، ومرات بحضور المدير أو نائبه، كنت أرى أن هذه الطريقة زيارة عقاب أكثر منها زيارة تفقدية، وكان هذا الأمر من الأمور الكثيرة التي يجب أن تتعايش معها، ومع الزمن تصبح جزءاً من حياتك، في هذا القسم من العزل القانون الموجود هو قانون المزاجية التي يكون فيها الشرطي؛ كنت أشعر فعلاً أن الأمر أقرب إلى عصابة، وأنت أسير عندها، ليس لك حق في أي شيء.

الفورة: حتى هذه الساعة التي تخرج فيها كل يوم لكي تتنفس كانت على حسب مزاج الشرطي، كانت الفورة أو المكان المخصص لنا كمعزولين في هذا القسم قريبة من "الشيك"، وهي صغيرة لا تساعد أن تعمل شيئاً فيها، وخصوصاً ممارسة الرياضة، ولأنها قريبة من "الشيك" كان لزاماً إبقاء الشرطي معك في الفورة نفسها مدة الساعة، وهذا بحدِ ذاته كان من الأسباب التي لا تجعلك تستطيع أخذ راحتك لأنك مراقب، مع العلم أن كل الأماكن التي يخرج إليها السجناء يوضع بها كاميرات مراقبة، ولكن مع الوقت تنسى وجود هذه الكاميرات، ووجود شرطي أو أكثر معك في الفورة نفسها، عيونه لا تغادرك نهائياً، كان من الأسباب التي جعلتني لا أرغب بالخروج للفورة. أما السبب الرئيسي لذلك، فإن خروجك للفورة وبقاءك طوال الساعة والشرطي

معك يجعله يبحث لك عن مشاكل يوقعك بها انتقاماً لخروجك للفورة، وكأنك أنت من تفرض عليه البقاء طوال الساعة يراقبك، فيجدك الحلقة الأضعف فيوجّه سهام غضبه عليك، وتبدأ تنغيصاته وافتعاله للمشاكل التي تسبب لك كثيراً من الأضرار في ظلّ واقعٍ، كما أخبرتكم، القانون الوحيد فيه مزاج الشرطي، لذلك وبعد فترة وجدت أن أنسبَ شيء عدم الخروج للفورة بناء على السياسة التي فرضتُها على نفسي في هذا القسم، وهناك الأفضل ألا تخرج، بل هم يعملون ما بوسعهم لكي لا تخرج، فلا أحد سيسأل عنك إن لم تخرج، وأوجدت لنفسي فورة بديلة في الغرفة التي كنت دائم المشي فيها من مسافة لا تتجاوز المترين.

كنت أحاول بقدر ما أستطيع عدم الاحتكاك بهم، أو تجنيب نفسي أي احتكاك في وضع تحكمه عصابة، ومسموح لها أن تنكّل بك كما تشاء، ووقت تشاء؛ لدرجة أنني في إحدى تفتيشاتهم المستمرة، عثروا على غنيمة كبيرة، شيء ممنوع على مستوى دولي! عثروا على قطعة زجاج قديمة جداً، وكأنها موجودة من أعوام، شَكلُها، وأين وجدوها، ومَن وَجَدَها يعلم بذلك جيداً! ومع ذلك تمّ فرض عقاب عليّ لوجود هذه الزجاجة غير الممنوعة أصلاً، وعملوا لي محكمة عقابية، أخذوا كل ما عندي من أغراض لمدة عشرة أيام "سنوك"، وغرامة مالية وتهديدات. صدقاً كنت محكوماً بعقلية عصابة، بل قد أكون ظلمت العصابات! فأنا أعيش وفق توصية، وهذه التوصية جعلتهم يتعاملون معي على حسب مزاجهم، وفي وضع يستفردون بك فيه، وقتها لا يوجد زيارات لأيّ محامٍ أو حتى مؤسسة، انقطاع تام عن كل شيء، كانت الأمور واضحة جداً، وكل شيء يحدث معي أو حدث معي سابقاً قبل وصولي إلى العزل يؤكد أنني مفروض عليّ واقع خاص بظروف خاصة.

التفتيش العاري: وكان أصعبها وأشدها ألماً على الشخص نفسه قانون خاص للتفتيش؛ على الرغم من كل التفتيشات التي يقومون بها، متى يحلو لهم، وكيفما شاؤوا، كان هناك قانون اسمه التفتيش العاري مرتين في الشهر؛ يتم فيها نقل الزنزانة بأغراضها، بل قل تخريب كلّ ما في الزنزانة، ويبدأ التفتيش؛ تفتيش الشخص عارياً، وأصبح قانوناً يفرض عليّ بشكل شخصي. والشيء السيء في كل هذا الأمر الذي كله سيء أنه لتكرار الأمر يصبح وكأنه عادي، لا أعلم هل هو نوع

من أنواع الاستسلام يصيب أحدنا عندما يشعر أنه لا يستطيع الرفض، أو أن الأمر له علاقة بالتعوّد، مثله مثل أي أمر آخر مفروض قهراً وقسراً على أحدنا كسجين أو معزول، لكن ما أستطيع أن أقوله إنه كان أسلوباً من الأساليب التي يستخدمها المحتل أو السجان لإذلال السجين.

هناك قصة قديمة تذكرني بموضوع التفتيش العاري في أول بداياته أو فرضه علينا كأسرى، كنت وقتها في العزل سنة 1997، ودائم النزول إلى المحاكم في منطقة إيرز، لذلك كان لزاماً أن أقضي ليلة أو ليلتين في زنازين سجن عسقلان. في ذاك الوقت، كانت الأوضاع متوترة جداً من أجل هذا التفتيش الذي كان يفرض على الأسرى الخارجين إلى المحاكم أو العائدين منها، ومن يرفض يتم الاعتداء عليه بالضرب وتعريته غصباً عنه، وبعد ذلك يتم معاقبته بالسنوك لفترة معينة. وعلى الرغم من تكرار هذه الحوادث، لم يتحرك الأسرى في سجن عسقلان لنصرة إخوانهم الذين يحدث معهم ذلك، وتُترك الموضوع عائماً، يعود لموقف الشخص نفسه للأسف.

في ذلك الوقت، كانت لي محكمة ونزلت على عسقلان، وفي الصباح وضعوني في البوسطة، وكان بجانبي باقي الأسرى، واستطعنا التحدث معاً، وكانوا من جميع التنظيمات، وحدثوني عما يحدث عندهم من قمع وضرب وتفتيش عارٍ، وللأسف لا أحد يتحرك، وخصوصاً من القيادات التي هي جالسة في السجن، ولا يَحْدث معها مثل هذه الأمور، لذلك اقترحت عليهم عند الفورة من المحكمة أن نرفض جميعاً التفتيش العاري، وخصوصاً أن عددنا كبير، كنا ما يقارب خمسة عشر سجيناً، فوافق الجميع على الفكرة. واعتقدنا أن عددنا وكوننا من جميع الفصائل وأنني سجين معزول واسمي معروف فإن حدث شيء معنا قد يحرك السجن، ويجبره على أخذ خطوات معينة احتجاجية، هذا كان الاعتقاد، لذلك اتفقنا أن أكون أول الخارجين للتفتيش، وسأرفض، وسأبدأ بالصراخ، خصوصاً أنني مريض، وكنت قد أجريت عملية جراحية عند اعتقالي، ووضعي الصحي لم يتحسن بعد، فعندما يسمعونني يبدأون بالطَّرق على باب الزنزانة المتواجدين فيها كانتظار للتفتيش مع إصرارانا على رفض التفتيش مهما حصل. وفعلاً عُدنا من المحكمة ليلاً، وكانوا بانتظارنا، وضعونا في زنازين الانتظار، وكنت لوحدي، وخرجت أولهم للتفتيش، ورفضت خلع ملابسي

نهائياً، وبدأت بالصراخ، وبدأ الشباب بالضرب على باب الزنزانة والتكبير، وكان الصوت عالياً جداً، أجزم أن الصوت كان يصل إلى داخل السجن ولمسمع الجميع، المهم هجموا عليّ ما يقارب عشرة من الشرطة، وقيّدوني من الخلف، وانهالوا عليّ ضرباً، وقاموا بتجريدي من ملابسي، وكأنها عملية اغتصاب، وبدون إعادة الملابس، وأنا مقيد حملوني، ورموا بي في زنزانة صغيرة، وبدأت جولتهم مع الباقين، وقاموا بالدور نفسه مع الجميع دون أن يتحرك أحد، وتمّ معاقبة الجميع، ووضعوهم في الزنازين. وبعدما انتهوا من الجميع عادوا إليّ، وفكوا قيودي حتى أتمكن من لبس ملابسي، ووضعوني في إحدى الزنازين لأنام ليلتي حتى أغادر صباحاً عائداً إلى سجن الرملة حيث العزل المتواجد به، فوجدتها فرصة لأكتب رسالة للأسرى كانت نارية وفيها الكثير من العتاب، علمت بعد ذلك أن الشيخ صالح العاروري قرأها وكانت مؤثرة حتى إنه قرأ ما حفظه منها على مسامع الأسرى في أحد دروسه لهم معاتباً لهم، ومحرِّضاً على تغيير هذا الواقع المهين الذي يعيشه الأسرى. كان هذا في سنة 1997 من وقتها وحتى هذه الفترة التي أتحدث عنها كنا قد تعرضنا للتفتيش العاري عشرات المرات دون أن يتحرك أحد، فأصبح الأمر عادة مقبولة عندنا، وقد يكون هذا ما حدث معي، وجعلني أرضى بأشياء كثيرة مجحفة بحقي، لأنني أعلم ما هو الواقع الذي تعيشه الحركة الأسيرة، وأيضاً لأنني أعلم جيداً ما هو الوضع القائم فيها حالياً؛ قد يلومني كثير منكم، ومعهم ألف حق، لكن لكي أطمئن الجميع: إن كل هذه الأساليب القمعية، واستسلامي أحياناً، وموافقتي على الأمر الواقع أبداً ما أثّر في نفسي، أو كسر إرادتي، بل كنت أعتقد أن هذا هو الهدف الذي يسعون له، ويريدون الحصول إليه من خلال الاعتداء عليّ بشكل مستمر، فكنت أحاول أن أجنب نفسي بعض هذه الاعتداءات.

ما زلت أذكر تلك الأيام التي عشناها في ظلّ هذه الأوضاع، والتي كنا على الرغم من صعوبتها نحاول أن نخفف عن أنفسنا بقدر ما نستطيع، فكما أخبرتكم كان بجواري في الزنزانة الثانية كل من الأخ نزار رمضان والأخ ربيع الزَّغَل، وكانا معاً في الزنزانة نفسها، ومع ذلك كانت أوضاعهم أفضل بسبب طبيعة وجودهم في العزل. ويكفي أن يكون عندك في ظلّ هذه الأوضاع الصعبة أخ تتحدث معه، يساندك، يخفف عنك، يشاركك همومك وأحزانك؛ كنت ألجأ إليهم بقدر ما أستطيع، وعبر الشباك، وعلى

الرغم من كل الصعوبة، لدقائق معدودة أسمع صوتهم، وأتحدث معهم، ويحدثوني، ويواسوني، وخصوصاً أن أهلهم كانوا يزورونهم، فكنا نعرف الأخبار عن طريقهم، وأخبرهم ما يحدث معي.

وعلى الرغم من أننا بجوار بعض لكننا وكأن كل زنزانة في قسم آخر، فهم لا يعرفون ما يحدث عندي إلا إذا أخبرتهم، وكانت أخباري يومية وكثيرة، أحدثهم عنها فيستغربون، ويشاركونني أحزاني. صدقاً كانت لحظات الحديث معهم من أجمل اللحظات التي أجد فيها تسلية عن نفسي، وأتحدث مع أحد، يكفي أن تتحدث مع أحد في ظلّ هذه الأوضاع، تشعر وقتها بأنك تنتمي إلى عالم البشر، وتستطيع التحدث، وتسمع من يحدثك. وما أجملها لو جادت عليك الدنيا في ظلّ هذه الأوضاع أن يصلك من إخوانك شيء سواء طعام أم شراب أم أي شيء؛ وهذا ما حاول هؤلاء الإخوة عمله، وهو أمر بسيط، لكن في هذا القسم، وفي ظلّ هذه الأوضاع، وحسب قوانين إدارة السجن العنصرية كان هذا مستحيلاً.

مرت علينا في هذا القسم ذكرى لا أذكر ما هي تحديداً، وعن طريق الكنتينا استطاع هؤلاء الإخوة شراء بعض الحلويات، وحاولوا بكل جهدهم أن يصلني أي شيء، وكان الجواب الرفض النهائي، على الرغم من أنها عن طريقهم، وقبل دخولها عند الشباب، لكن كان الرفض من أجل الرفض، وكنت وقتها قادماً جديداً، وأموري غير مستقرة، سواء من زيارة محامي أم حتى وضع أموال على اسمي، وقد مكثت لفترة طويلة بدون كنتينا، وكأنني كنت في عالم آخر، وكانت إدارة السجن ووسائلها هي السبب الرئيسي في ذلك، ولكن أيضاً كان هناك تقصير من كل المعنيين بقضية الأسرى، سواء مؤسسات رسمية أم غير رسمية، حتى تقصير من قبل الأسرى أنفسهم في متابعة شؤونهم، والتضامن مع أنفسهم وقضاياهم. لذلك ولأن الأخ ربيع من القدس طلبت منه وعن طريق أهله أن يتم دفع مبلغ مالي على حسابي لكي أدبّر نفسي مؤقتاً، وبعد ذلك يتم إرجاع المبلغ له، أو للأهل، وفعلاً الأخ استعد فوراً، بل هو من طرح الفكرة، وكنت أنا أرفض حرصاً ألا يحدث شيء له أو للأهل عنده، وفعلاً تمّ دفع مبلغ 600 شيكل على حسابي، وهو المبلغ الوحيد الذي دخل على حسابي وقتها، ولفترة طويلة تجاوزت أكثر من ستة أشهر من وجودي في هذا القسم، التي كانت مدتها أحد عشر شهراً. وكان هذا المبلغ سبباً من أسباب تعرض أهل هذا الأخ للمشاكل؛ فقد تمّ

استدعاؤهم من قبل الشاباك الإسرائيلي في الخارج للتحقيق معهم، وعلاقتهم معي، ومن أين يعرفونني، وأسئلة كثيرة وكبيرة، هذا في الخارج، أما عندنا في القسم فأعتقد أنه كان السبب الرئيسي في نقل هؤلاء الإخوة من هذا القسم من جانبي إلى سجن آخر. أسفت جداً لما حصل لأهل هذا الأخ، وفي الوقت نفسه، كان حزناً كبيراً وفرحاً كبيراً، مشاعر مختلطة لنقل هؤلاء الإخوة من القسم السيء، ولأنني فقدت بنقلهم ونيساً كنت بحاجة له، وبذلك بقيت لوحدي، ولم يحضر أحد لمدة شهرين من نقل هؤلاء الإخوة.

بعد قدومي لهذا القسم بشهرين تقريباً سمحوا لي بأخذ بعض أغراضي، وخصوصاً الأدوات الكهربائية كالتلفاز والبلاطة وبعض أدوات الطبخ، أذكر في تلك الفترة، وقبل أن يسمحوا لي "بالبلاطة الكهربائية" لعمل الأكل كان يأتي مع الأكل بصل فكنت أحتفظ به أخزّنه وبذلك أصبح عندي خلال الشهرين ما يقارب خمسة عشر رأس بصل، ولم تكن هذه الرؤوس طوال الفترة تتعرض للمصادرة في التفتيش لأنها جزء من الأكل الذي يأتيني منهم، وعندما سمحوا لي بالبلاطة الكهربائية منّيت النفس بعمل شيء ساخن، ولكن وهذا ما لا أنساه، وفي اليوم نفسه الذي جاءتني فيه البلاطة قاموا بمصادرة كل خزين البصل بدون سبب، وتحت حجة أنه ممنوع، وأبقوا لي رأساً واحداً، وكان الأمر مقصوداً من ذلك الضابط الذي كان من ضمن الذين اعتدوا عليّ على الرغم من أن كل أوضاعي صعبة، لكن لم أستطع نسيان ذلك الحدث المزاجي لهذا الضابط، فقط من أجل التنكيل والانتقام، وحتى عن طريق مصادرة الأكل الذي يحضرونه لك يصبح ممنوعاً متى أرادوا.

الإضراب وخروجي من شطة:

خرجت من جحيم شطة الذي استمر في حدود العام، شعرت أن الزمن والحياة توقفت هناك، آهٍ كم هو مؤلم على الحُرّ وصاحب الكرامة أن يجد نفسه عاجزاً عن الدفاع عن نفسه. لا أعرف هل الحكمة في لحظات كهذه قوة أم ضعف!! مذمومة أم ممدوحة!! كل ما أعرفه أن تلك الفترة ما زال لها التأثير الكبير على نفسي، حتى بعد مضي كل هذه الأعوام، لا أستطيع الخروج من تأثير هذه الفترة، أتذكرها بكل تفاصيلها، أتألم وكأنني ما زلت أعيشها، تسكن في داخلي، بل وأثَّرَت على شخصيتي،

الله هو وحده الذي ساعدني، وقوّاني لتحمل تلك الفترة التي ستبقى حتى يأذن الله لي بإخراجها من نفسي بطريقتي.

أما كيف خرجت من هذا القسم الذي هو كالجحيم؛ فقد قررت أن أقدم على خطوة أساعد بها نفسي للانتقال من هذا القسم، وما حيلتي سوى الإضراب عن الطعام، وقد زارني محامٍ تابع لإحدى المؤسسات في تلك الفترة، فطلبت منه رفع قضية على إدارة السجون مطالباً بنقلي إلى سجن من سجون الجنوب لأنني من قطاع غزة، والقانون يفرض عليهم أن أكون في سجون الجنوب، وفعلاً تمّ ذلك، وحدد موعد للمحكمة، فأردت تعزيز هذه الخطوة بفتح إضراب عن الطعام، ولذلك قاموا بسحب كل أغراضي ومعاقبتي بكل أنواع العقاب، ورأوا أن إضرابي تحدّ لهم، لذلك لم يقصّروا بالنيل مني.

في هذا الوقت العصيب جاء إلى هذا العزل الأسير مروان البرغوثي، وقد سمعتهم يصرخون، ويهددون، وهم يدخلونه إلى زنزانته التي بجانبي، وكانت فارغة بعد أن غادرها الأسيران نزار رمضان والزَّغَل، وقد أحضروا بعدهما أسيراً اسمه محمد أبو جاموس وهو من أبناء حركة فتح، والذي استطاع الفرار من البوسطة في أثناء نقله من سجن إلى آخر، ولكن بعد يوم من فراره تمكنوا من العثور عليه في مكان مهجور، وقد أصابه الإعياء، وبعدما تشافى أحضروه إلى هذه الزنزانة، وقد هددهم بالانتحار، وكانوا يضربونه، لذلك لم يمكث إلا أسبوعاً، وبعدها تمّ نقله، وأحضروا مكانه كما أخبرتكم الأسير مروان البرغوثي أحد قادة حركة فتح في الضفة الغربية، ومحكوم بالمؤبد، ويتواجد حتى الآن في السجن. وعندما أدخلوه إلى زنزانته، وأغلقوها عليه، وذهبوا، أخذتُ أنادي عليه بصوت عال حتى سمعني، وتحدثت معه، وسمعت منه ما حدَث، وكيف عاملوه بقسوة، وأدخلوه إلى الزنزانة بدون أغراض، وسألني كم لي في هذه المقابر فأخبرته أنه ما يزيد عن العشرة شهور في ظلّ هذه الأوضاع، وأنني الآن قد شرعت بالإضراب المفتوح عن الطعام للخروج من هذه المقابر أو هذا الجحيم، وتركته بعدها يستريح.

استمر إضرابي عن الطعام مدة عشرة أيام، كنت في هذه الأيام أتوقع كل شيء سيء تجاهي، وفعلاً حدث معي كلّ ما توقعته: تفتيش عارٍ كل يوم، واقتحام الزنزانة

الفارغة على مدار الساعة، فقط لإرهابي وتخويفي والنيل مني، تركتهم يفعلون كلّ ما يريدونه، واعتبرت هذه الأيام كأنها أيام تحقيقٍ وشبْحٍ، وفي اليوم العاشر جاء ضابط، وساومني للتنازل عن الشكوى التي قدّمتها للمحكمة مقابل أن يتم نقلي، وأكد لي ذلك، ولكنني رأيتها خدعة قد يقدمون عليها من أجل أن أتنازل عن الشكوى. لذلك تحدثت مع الأسير مروان البرغوثي فنصحني بالموافقة، وليس أمامي غير ذلك، وهذا فعلاً ما تمّ، وبعد يومين أخبروني أنه سيتم نقلي إلى سجن آخر، لذلك أوقفت إضرابي، وأحضروا أغراضي، وقمت بتجهيزها، وفعلاً تمّ نقلي في أواخر سنة 2003 في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر تقريباً بعد أن أضربت عن الطعام.

في يوم خروجي سلمت على الأسير مروان البرغوثي، وتمنيت له الصحة، وخرجت مع بوسطة الصباح، وبذلك أغلقت صفحة عزل شطة متمنّياً ألا أعود إليه ثانية، وألا يدخله أحد. وكنت مصمماً أن أرفع شكوى على إدارة السجن للمحاكم بتهمة تهديدي بالقتل، وأنا أعلم أنها لن تجدي نفعاً، ولكن هذا ما أستطيع فعله، وهذا ما تمّ ولم يحدث شيء كما كنت متوقعاً.

عزل بئر السبع:

بئر السبع هي المدينة العريقة التي لم يستطع الاحتلال طمس معالمها العربية البدوية على الرغم من كلّ ما قام به، إذْ حافظت هذه المدينة على أصالتها العربية. كنا نشاهد من خلف قضبان الحديد التي وضعت على شبابيك الحافلة "البوسطة" زيادة في التضييق علينا حتى لا نرى شيئاً في أثناء انتقالنا من سجن إلى آخر، أو ذهابنا للمحاكم، ومع ذلك كنا نرى من خلال ثقوب صغيرة أشياء تتحرك حولنا كالسيارات والناس والشجر وخيم الشعر التي تتوزع في كثير من مناطق السبع، وكانت تكثر عندما نقترب من السجن الشهير الذي وضع في هذه المدينة منذ زمن الانتداب البريطاني؛ فهو سجن قديم جداً، وسيء السمعة. كانت هذه الخيم إنذاراً لنا بأننا اقتربنا من السجن، تدخل إلى هذا السجن وكأن نهاية الحياة على بابه، وما أن تصبح البوسطة داخله بعد أن تجتاز عدة حواجز، وتفتح بوابته الكبيرة فتدخل، ويبدأ ظلام دامس وكأنه قد حلّ الليل، أو كأننا انتقلنا إلى عالم آخر يفصل بينهما هذه البوابة، وهذه المنطقة المعتمة؛ وتبدأ حياتنا في عالمنا الذي أطلقنا عليه؛ عالم البرزخ

ما بين الحياة والموت، وهو للموت أقرب، وتبدأ إجراءات النزول والتفتيش العاري ونقل الملابس والبحث عن كلّ شيء، ولأنني في قسم العزل تكون الإجراءات بحقي بمعزل عن الأسرى في البوسطة، أكون لوحدي لا أراهم، ولا أحد يراني إلا بالصدفة بالبوسطة نفسها، أكون في زنزانة لوحدي خُصصت من أجل نقل أمثالي من المعزولين، عبارة عن قفص حديد مقيد اليدين والأقدام، وأنزل من هذا القفص إلى قفص مثله داخل السجن أبقى به حتى تنتهي الإجراءات مع جميع الأسرى، ويتم إدخالهم إلى أقسامهم وغرفهم. وبعد ذلك يتفرغ لي الجميع، وتبدأ الإجراءات الدقيقة في تفتيشي وفحصي والتأكد من كل شيء، وتستمر هذه الإجراءات ساعات خصوصاً إذا كان ثمة قادم جديد منقول من سجن إلى هذا السجن، وبعد أن تصادر أغلب أغراضي إلا القليل المسموح به يأخذونني إلى قسم العزل.

كان دخولي إلى قسم عزل السبع في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2003 منقولاً من عزل شطة، عندما أوصلوني إلى هذا العزل ولكي تصل إليه تمر بممرات طويلة، وتفتح عدة أبواب، وكأنك في سجن آخر داخل هذا السجن، ويكون قد بلغ بك التعب والجهد مبلغه. وصلنا إلى باب هذا القسم الذي أدخله لأول مرة قسم رقم 6، وهو قسم للأسرى الجنائيين لأن أغلب الموجود فيه جنائيون، وفي الأساس هو جزء من قسم رقم 5، وهذا القسم للسجناء الجنائيين يهود وعرب جميعهم على قضايا مخدرات وسرقة واغتصاب وقضايا أخرى، وهذا القسم امتداد له قسم 6 قسم العزل، بينهما باب، ويتم وضع المعاقبين من السجناء الجنائيين داخل هذا القسم كعقاب، وأيضاً مَن تمّ طرده بسبب قضايا الاغتصاب يتم وضعه أيضاً في قسم العزل. ضابط القسمين 5 و6 ضابط واحد، وأيضاً الشرطة والعاملون هم نفسهم في القسمين، وفي الليل عندما تغلق الغرف على الأسرى يفتح الباب الفاصل بين القسمين ويصبح قسماً واحداً، بل في هذا القسم؛ قسم العزل 6، توجد غرفة رقمها 15 هي في الأساس تابعة لقسم 5، وهي الغرفة الوحيدة الكبيرة في هذا القسم والتي تتسع لستة أسرى، ويتم وضع الأسرى الجنائيين فيها، والذين لهم مشاكل مع أصدقاء لهم في قسم 5. هذا القسم وهو قسم العزل على الرغم من أنه تابع لقسم 5، إلا أنه قسم مستقل بذاته وكأنه قسم منفرد؛ يتكون هذا القسم من 12 زنزانة، مساحة هذه الزنزانة لا يتجاوز 1.5م عرضاً و2.5م طولاً، باب الزنزانة مغلق بشكل كامل إلا

من فتحة صغيرة من أعلى الباب، لكي يراك الشرطي من خلالها، ومغلقة بقضيب من حديد، ولها شباك صغير من الحديد يتم إغلاقها به، وهي مغلقة دائماً، وتفتح بسحبها سحباً في مجرى لها، لكي تخرج صوتاً عالياً جداً سواء في فتحها أم إغلاقها، وطبعاً الشرطي دائماً يفتحها بقوة، ويغلقها بقوة، وليس لها وقت لفتحها، لأنها تخضع للشرطي الذي يأتي كل عشر دقائق، ومرات أقل ومرات أكثر لكي يفتحها، وينظر إليك، ويغلقها على مدار الساعة نهاراً وليلاً، وعليك أن تتصور كيف سيكون حالك، وأنت نائم، أو كيف ستنام مع هذه الفتحة. وقد كنت كتبت رسالة بسبب هذه الفتحة أننا نريد أن ننام، فهذه أكثر الأشياء المزعجة للأسير المعزول، وقد خضنا إضرابات عن الطعام، ومواجهات مع إدارة القسم من أجل تركها مفتوحة أو إغلاقها خصوصاً ليلاً، ولكن ولأنهم يستخدمونها لتعذيبك رفضوا كل الحلول، وعليك أن تتعايش معها ومع صرير صوتها المزعج جداً، والذي يدخل داخل رأسك. وأيضاً في هذا الباب فتحة أخرى، في جزئه الأسفل فتحة مستطيلة مغلقة دائماً، فقط يتم فتحها لإدخال الأكل، أو من أجل وضع القيود في يديك، أو تحرير يديك، وهذه صورة أبواب العزل في أغلب أقسام العزل في تلك الفترة.

هذه الزنازين مقابِلة لبعضها البعض، بينهما ممر، المسافة بين الزنزانة والتي تقابلها من 2–3م. قسم قديم موحش، زنازينه من الداخل وكأنها مهجورة الجدران، مليئة بالثقوب التي تمتلئ بالصراصير وحشرات أخرى، داخل هذه الزنزانة برشين بعضهما فوق بعض، بدون سُلّم للبرش العالي، الأبراش من حديد تهتز في أثناء النوم، أو كلما تحركت، وكأنها موسيقى النوم التي تبدأ بمجرد جلوسك على برشك بحيث تشعر أن النائم فوق يتعمد إظهار الصوت، ولكن هذه حالة الأبراش. في داخل هذه الزنزانة؛ الحمام والمرحاض والمغسلة وأغراضك، كلها جزء من مساحة الزنزانة المذكورة سابقاً، يفصل بين أبراش النوم والمرحاض جدار لكي لا ترى صديقك عندما يدخل الحمام، وتعيش مع الصوت والرائحة. لهذه الزنزانة شباك صغير حجمه ومكانه يختلف من قسم إلى قسم، لكن جميعها صغيرة ومليئة بالحديد والشبك من الخلف، بحيث تمنعك من مشاهدة أيّ شيء. في هذه الزنزانة قد تعيش لوحدك أو قد يكون معك آخر، هم، أيْ إدارة السجون، من تختاره، ولا يتم استشارتك في ذلك، وهذا كان أيضاً من أصعب الأشياء، والذي سبّب لنا كثيراً من المشاكل، فعندما تعيش

مع شخص لا تتوافق معه تصبح الحياة جحيماً، وترفض الإدارة إخراج أحدكما، أو تبديلك أو تبديله، وقد حدثت قصص كثيرة كانت تصل لدرجة المضاربة، ومدّ الأيدي بين هذين الأسيرين، حتى يخرج أحدهما، وهذا يعرّض الاثنين للعقاب. تكون زنزانتك من ضمن زنازين لسجناء جنائيين بجانبك، قد يكون سجيناً يهودياً أو عربياً، وقد يكون مجنوناً أو سارقاً أو على قضية اغتصاب أو على شذوذ جنسي، يُؤتى بك وأنت صاحب القضية الوطنية المناضل المجاهد، ويتم وضعك في هذه الأقسام بين هؤلاء الناس، حيث لا قانون ولا رفيق أو إخوة حولك يساندونك، ويُستفرَد بك من قبل إدارة السجن، وتفرض عليك جميع القوانين العنصرية، وتمنع من أبسط حقوقك، وتنتهك حريتك باستمرار القمع والعنف والتفتيش الدائم، وفي كل الأوقات، والحرمان من كل شيء، حتى أن تتحدث مع أحد يفهمك، يبادلك الأفكار نفسها، ويعيش الهموم نفسها.

وجدت نفسي على أعتاب هذا القسم الموحش، وأنا صاحب التجربة، فهذه المرة الثانية التي أعيش فيها في العزل، وأيضاً لست جديداً، فقد أصبح لي عام في العزل، وكنت في قسم أشبه بالمقبرة أو الجحيم منه إلى قسم، ومع ذلك كنت مستوحشاً ومتخوفاً من القادم، وكنت أطمئن نفسي بترديد الأدعية متوكلاً على الله. وضعوني في زنزانة رقم 2 وكانت قذرة جداً، وكأنها مقر لجميع الحشرات، وخصوصاً الصراصير الصغيرة التي تملأ المكان حتى إنها لم تهرب عند دخولي، وكأنها تتحداني، فأنا الغريب الدخيل عليها، وهي صاحبة البيت! أو قد تكون استخفّت بي، واستضعفتني، فأنا وحدي، وهي قبيلة كاملة، كما أنها تعرف المكان جيداً، وتستطيع الاختباء بسرعة بين الشقوق، وفتحات الجدران أو أسفل البرش، وكما هي العادة بمجرد دخولك أي قسم، وإغلاق باب زنزانتك عليك تبدأ همومك ومشاكلك مع الشرطة، فأنت قادم جديد تحتاج لأشياء كثيرة، وأهمها مواد تنظيف ومكنسة وقشاطة وصابون... وتبدأ تنادي على الشرطي الذي يسمعك، ولا يردّ، فيرتفع صوتك، وبعد أن تتعب يأتي الشرطي رافعاً صوته عليك: ماذا تريد، ولماذا تصرخ! تصرخ أنت، ويصرخ هو! وقد تتطور الأمور، وتجد نفسك داخلاً في مشكلة، ومعاقَباً، لذلك تحتاج لضبط نفسك وأعصابك، وأن تكون صاحب نَفَس طويل، وألا تستعجل الأمور، وعلى أقل من مهلك، لأنه هو يتعامل معك ببطء، ويستفزك. تحتاج لأيام

حتى تستطيع توفير بعض ما يلزمك، وأيضاً لكي تتعرف على قسمك الجديد، تحاول أن تنصت لكي تسمع أي صوت، تريد أن تعرف مَن في القسم بجانبك، مَن حولك، هل يوجد غيرك من السجناء الأمنيين! تريد أن تعرف وقت الصلاة، اتجاه القبلة، صوت الأذان، ما هو مسموح وما هو ممنوع! وهذا لا يمكن أن تعرفه عن طريق الشرطي، لأن كل شيء عندهم ممنوع، ولكن تسمع ما يدور، وتبدأ تكوّن معرفة عن القسم الذي سيغيّبك لفترة طويلة في داخله، سيبلعك في ظلامه وخباياه وخفاياه، الصراخ لا يتوقف، هناك من يصرخ بالعبرية، وهناك من ينادي بالعربية، وذاك يسب بالروسية، وكل يصرخ، وينادي على الشرطي، وبعضهم يضرب على الباب، ومنهم من يسب الذات الإلهية؛ والألفاظ من النوع الذي لا يوجد له قاموس حتى بالعامية. لكن على الرغم من سوء هذا القسم كان عندي أفضل بكثير من قسم العزل في شطة، هكذا هي أقسام العزل في كل قسم قد تجد أشياء أفضل من القسم السابق، وقد تكون أسوأ؛ والفترة الطويلة التي مكثتها في العزل جعلتني أدخل كل أقسام العزل بدل المرة مرات، وقد تحدثت في البداية عن هذه الأقسام، ولكن سأذكر بعض الأشياء البسيطة عن كل قسم في أثناء حديثي المتدرج أو المتسلسل في حياتي داخل هذه الأقسام. رتّبت أموري، ونظفت بقدر ما أستطيع، وكنت متعباً، فوضعت جسدي على الفرشة، ونمت حتى إنني لم أستيقظ على أي صوت، على الرغم من أن القسم لا يتوقف فيه الصراخ.

خلال الأيام الأولى لوجودي في هذا القسم بدأت أحاول التعرف على من حولي، ومعرفة إن كان يوجد أحد في القسم، سجين أمنيّ، أتعرف على قوانين هذا القسم من خلال الشرطة، وتعاملهم، ومع الأيام تبدأ هذه الأمور تتوضح شيئاً فشيئاً.

قوانين هذا القسم: الخروج للفورة ساعة، وهم من يحدد هذه الساعة، قد تكون صباحاً، وقد تكون مساء على حسب مزاج الشرطي؛ الخروج لا يتم إلا بوجود ضابط القسم، أو أي ضابط مناوب بعد أن يتم وضع القيود في يديك من الخلف، ولأن فتحة الباب في الأسفل تضطر لتجلس القرفصاء حتى تصل يديك إلى فتحة الباب، ويقوم الشرطي بوضع القيود في يديك من خلال الفتحة قبل فتح الباب، وهذا الأمر يتكرر يومياً مرات كثيرة سواء من أجل الفورة أم العودة منها. وفي الفورة الأمر نفسه لكي يفك القيود، وعندما تعود إلى الغرفة الشيء نفسه، وعند دخولهم إلى الغرفة لأي سبب

والأسباب كثيرة: تفتيش، وفحص، الإجراءات نفسها، وقد رفضوا نهائياً تقييدي من الأمام.

بعدما يتم وضع القيود في يديك بهذه الطريقة يقومون بفتح باب الزنزانة، ويفتشونك يدوياً، وبالجهاز اليدوي أيضاً، وبعد ذلك يقومون بوضع القيود في أقدامك، ويفتشون الزنزانة، وبعد الانتهاء من كل ذلك يتم أخذك إلى الفورة بعد التأكد من عدم وجود أحد، وأن الطاقات للزنازين جميعها مغلقة حتى لا يراك أحد، ولا ترى أحداً، ويسيرون بك إلى المكان التي ستقضي به ساعة، وهناك على باب الفورة يدخلون قبلك، يفتشونها جيداً، وبعدها يزيلون القيود من أقدامك، وتدخل إلى الفورة المليئة بالكاميرات، ويغلقون بابها ومن ثم يحررون يَدَيْك بالطريقة نفسها. وعند العودة من الفورة، التي هي مساحة تسير فيها وهي مغلقة تماماً من فوق بأسلاك، وانتهاء الساعة يعيدونك بالأسلوب نفسه، في هذه الفورة كنت أمارس الرياضة، هذه الساعة كنت أجري بشكل دائري لمدة نصف ساعة، وما تبقى من الوقت أمارس تمارين رياضية.

في الفورة تستطيع أن تتحدث مع باقي المعزولين لأن شبابيكهم على جهة الفورة، وتبدأ تتعرف على القسم من خلالهم؛ في أقسام العزل لا يوجد زيارة للأهل، أو اتصال تلفوني، أو حتى نقل أغراض بينك وبين الأسرى، لأنه لا يوجد في هذه الأقسام عمّال كباقي السجون؛ الذي يقوم بتوزيع الأكل هم الشرطة، وكل شيء يتم من خلالهم وعن طريقهم.

في قسم العزل يجب أن تكون قوياً أمام نفسك، وأمام الشرطة، وأمام جميع المتواجدين، حتى تستطيع العيش؛ الشرطي على الرغم مما يملكه من إمكانيات هو أيضاً إنسان، ويحدد معاملته معك بناء على معرفته بشخصيتك، ولا تعني القوة أن تجلب لنفسك المشاكل، لكن لكي تحمي نفسك من أن يصرخ عليك أحد، أو يهينك الشرطي، أو أي أحد، ومرات كثيرة كنت تحتاج لرفع صوتك، ولعمل مشاكل حتى لو تعاقبت، من أجل فرض احترامك، وتحصيل بعض حقوقك في الأكل والشرب والنظافة. في هذا القسم مكثت خمسة أعوام لا أخرج منه نهائياً، مع هذه القوانين التي ما تغيرت، بل كانت مرات كثيرة تزداد، وتتضاعف.

عشت قصصاً وحكايا كثيرة، كنت لوحدي، وكان معي آخرون، سجناء أمنيون أصدقاء لي وإخوة أفاضل كمحمود عيسى، ومحمد جابر، وأحمد الفرنسي، وأنس جرادات، وزاهر جبارين، ومحمد الرشق، وهاني جابر، ومازن ملصة، وأبو العبد أبو الهيجا، وآخرون كثر سآتي على ذكرهم، وأنا أتحدث عن قصص هذا القسم، وعن هذه الحياة التي عشناها طوال هذه الأعوام بحلوها ومرها. وأيضاً هناك أسرى جنائيون عرب ويهود شاركونا هذه الأعوام وكان لنا معهم قصص كثيرة، وأعتقد أن طريقة سرد هذه القصص هي أفضل طريقة للتعرف على طبيعة هذه الحياة في هذه الأقسام.

سياسة مدير السجن: كان مديره هذا متطرفاً جداً وعنيفاً وحاقداً، ولا يخفى ذلك، وكانت فرصته ليمارس ساديته علينا في هذا القسم، وكان يتابع أموري بنفسه وذلك على إثر قصة حدثت بيني وبينه، وذلك عندما كنت بالفورة، وفجأة رأيته واقفاً ينظر إليّ، وكان وقتها معي في الفورة أسيرٌ أمني آخر اسمه زاهر جبارين، وقد أفرج عنه في صفقة وفاء الأحرار، وهو الآن عضو مكتب سياسي عن حركة حماس. كان زاهر قبل قدومه إلى العزل يعمل ممثلاً لحماس أمام الإدارة، ويتحدث بالعبرية، فذهب ليتحدث مع المدير، وأنا بقيت مكاني أواصل لعب الرياضة، فسمعت المدير يتحدث عني، وأنه قرأ ملفي، وقرأ الكلمة التي تحدثت فيها في المحكمة، وهي كلمة قوية، فقال بالعبري كلمة يقصد بها "أنني شخص أزعر"، لكن فهمتها أنا بطريقة ثانية، وكأنها سبّ قبيح وقذر، وكنت لا أتحدث بالعبرية إلا قليلاً، وإذا بي أنفجر في وجه المدير، وحوله ضباطه، وبدأت أوجّه له الشتائم بالألفاظ السوقية، كما ما يقول المثل "من الزنّار وتحت"، وهددته، فلم ينطق بشيء، بل انسحب، وهو يغلي. وقتها خبّرني زاهر، وهو يلومني، ماذا فعلت! الكلمة معناها أزعر، وليس ما فهمته، وهي لها أكثر من معنى، قلت له: هذا ما حدث! وهو مدير سيء وعنصري، ونحن نعرف ذلك، فهذه القصة مع حقده كانت الدافع وراء التنكيل بي، فقد فرض عليّ فترة طويلة أن أنتقل من زنزانة إلى زنزانة كل أسبوع، ومرات في الأسبوع مرتين وثلاثة بحيث دُرت على جميع الزنازين؛ وهذه الزنازين يكون فيها سجناء مدنيون يهود وعرب، لا يعرفون شيئاً عن النظافة، تدخلها وكأنك تدخل زريبة خنازير. ونحن أول شيء

نعمله هو النظافة كما يأمرنا ديننا، وأيضاً لكي نستطيع الصلاة، فتصوروا معي حياتي، وأنا أدور على هذه الزنازين، وأدخلها ومعي أغراضي، وأقوم بتنظيف كل زنزانة حتى أستطيع العيش فيها، لذلك جهزت نفسي من البداية، ووضعت كل أغراضي في المخزن، وأبقيت عندي أغراض بسيطة يتم وضعها في حقيبة واحدة، وأكون جاهزاً دائماً، بل صرت أنا أنادي على الشرطي لكي ينقلني، وهذا ما دفعه ليتوقف عن هذه الممارسة عندما شعر أنها لم تؤثر على نفسيتي. حتى إنني توجهت إلى المحكمة رافعاً شكوى على المدير، فَرَفَضَت المحكمة طلبي، وترَكَت أمري بيد إدارة السجن، وأن ما يقومون به بدوافع أمنية، وفور عودتي من المحكمة بهذا القرار نقلوني إلى زنزانة جديدة، لذلك اتخذت قراراً بمواجهة هذا القرار بجهوزيتي الدائمة، كان يجب ألا أنكسر، وكنت ملزماً بأن أبقى قوياً، وأتعالى على كل هذه الأمور، فهي مواجهة حقيقية بين أسير لا يملك إلا إرادة، وإدارة سجون قمعية تملك كل الإمكانيات المادية، ولمعرفتي أن أي تراجع أو ضعف أو كسر لنفسيتي لن يرحموني، وسيكون الثمن الذي سأدفعه أضعاف، لذلك كنت أضحك دائماً، وأتقوى بالقرب من الله، فهو حسبي ونعم الوكيل. حتى إن هذا المدير من حقده وعنصريته، لأنني استطعت إعطاء الأسرى الجنائيين سيجارتين عن طريق شرطي إنساني، حضر بنفسه، وشكّل لي محكمة، وعاقبني أسبوع زنازين سنوك، بدون أي أغراض، فقط معي المصحف، وقال لي: سأضعك في الزنزانة حتى تتحدث مع ربك براحتك! فأخذت الأمر كإجراء عادي، ومكثت أسبوعاً في الزنازين.

وقد استمرت سياسة هذا المدير بهذه الطريقة، وكنا نشعر بذلك من خلال رفض كل طلباتنا، سواء في تحسين الأكل أم إدخال أغراض. طبعاً في قسم العزل تُمنع من زيارة الأهل، ولا يأتي لزيارتنا إلا المحامي كل فترة، أو الصليب الأحمر، وزيارته كل شهرين أو ثلاثة، يأتي لنا بالصور والسلامات من الأهل، ونحن نرسل عن طريقه رسائل وسلامات للأهل.

في هذا القسم عشت فترة طويلة لوحدي، وبعض الأحيان كنت أكون في زنزانة مع أحد الأسرى، ووجودك مع أسير آخر له وجهان: الوجه الإيجابي أنك تجد من تتشارك معه حياتك في الأكل والشرب والصلاة الجماعية، تتحدث معه، يساعدك،

وتساعده، ويكسر وحدتك، لكن الوجه السلبي عندما يُفرض عليك أسير لا تستطيع التوافق معه، أو من أصحاب المشاكل، أو صاحب فكر متطرف، أو تابع لتنظيم آخر ويميل للحزبية، حينها تصبح الحياة صعبة بينكما، قد تستطيع التنازل عن بعض الأمور من حياتك من أجل أن تتوافق مع صديقك، وهذا يحصل، ولكن كثيراً ما تفشل هذه المحاولات، وخصوصاً إن كان هذا الأسير في الأساس موجوداً في العزل بسب مشاكل له في السجن، فيتم وضعه في العزل، وتقوم الإدارة بإدخاله عندك بالقوة، لا تستطيع التوافق معه، وقد تصل الأمور إلى طوشة كبيرة، حتى تجبر الإدارة على إخراجه من عندك، ومع ذلك هذا له انعكاس سلبي عليك، وسأروي أكثر من قصة عن هذا الأمر.

الجانب الثاني السلبي هو ضيق الزنزانة، والتي لا تسمح لأسير واحد بالتحرك فيها، ولكن عندما تكون لوحدك تستطيع أن تسير قليلاً بجانب البرش في مساحة مترين طولاً ومتر عرضاً، وخصوصاً أنك تمكث في هذه الزنزانة 23 ساعة متواصلة، ولكن بوجود شخص آخر عندك لا تستطيع التحرك، وتضطر أن تبقى طوال هذه الساعات جالساً على برشك بلا حراك، إلا إذا أردت الذهاب إلى الحمام، وهذا يسبب لك أمراضاً كثيرة في أقدامك ومفاصلك وأشياء أخرى، عدا عمّا يحدث من أضرار لبصرك، لأن مسافة النظر قصيرة جداً، وتَعرُّضك للشمس لا يكاد يُذكر، فأنت بين أمرين أحلاهما مرّ، لكن ومع ذلك لا يوجد أصعب وأبشع من أن تعيش لوحدك كل هذه الأعوام، تضحك فتسمع صوت ضحكتك، وكأنك مريض نفسي تشتاق لأي أمر جماعي؛ تمرض فلا تجد أحداً يساعدك، حتى في هجمات إدارة السجون عليك وجودُ صديق عندك يساعدك على المواجهة، تسانده، ويساندك. قد تستطيع التغلب على مشكلة وجودك لوحدك عندما يتواجد عندك في القسم بجانبك أو حولك أسرى أمنيون تستطيع أن تتحدث معهم، وتنادي عليهم، وتتناقش معهم، لكن أصعب شيء عندما تكون لوحدك.

في هذا القسم لا يوجد أي سجين أمني وجميع من حولك سجناء جنائيون، عرب ويهود، لا تسمع إلا صراخاً وسبّاً وشتائم وكفراً، وكأنك في مستشفى أمراض عقلية، وأكيد ينالك نصيب كبير من هذه الشتائم؛ سواء من أحد المجانين، أم من أحد

الذين يتصورون أنك ضعيف، ويريد منك أشياء بالقوة، أو يهودي عنصري يسمع عنك فينالك بالسب، لأنه يعلم جيداً أنه محميّ، وبعيد عنك، ولا تستطيع أن تطوله، وقد تكون هذه من أكثر الأشياء مؤثرة على الأسير المعزول، فأنت خلال تواجدك في هذه الأقسام تتعرض للسب والشتم بأقذر الألفاظ، وخصوصاً على أهلك وأمك وأخواتك بألفاظ سوقية تجعل الدم يغلي في عروقك، فهؤلاء أهلك كيف تسمح بأن ينالهم تافه أو ساقط أو يهودي بالأذى، ولكن ماذا تفعل! تبدأ بالصراخ، والضرب على الباب، وتنادي على الإدارة لكي توقف هذا المأفون، ولكنها تقول لك بكل بساطة: ماذا نفعل به، إنه مجنون أو مريض! وحاوِل أن لا تسمع! وأنت تعلم جيداً أن هذا جزء من الانتقام منك، فمرات تبادله السبّ، ولكن لا تستطيع أن تصل إلى مستواه، أو أن تتواصل بالسب مثله، وفي الوقت نفسه لا تستطيع الوصول إليه حتى تنتقم منه. كان هذا الأمر من أكثر الأمور صعوبة على نفس المعزول، وتزداد صعوبة عندما يكون الذي ينالك بالسب والشتائم أسير أمني موجود في العزل، لأنه مريض نفسي، وقد خرج من السجن لصعوبة عيشه بين الأسرى، وبدلاً من إرساله إلى مصحة للعلاج يتم وضعه في هذه الأقسام ليزداد وضعه صعوبة. وتجد من هؤلاء الإخوة في هذه الأقسام، وقد تتحدث معهم كأشخاص عاديين، ولكن بعد لحظات يدخل في أجواء وسوسة، فيبدأ بشتمك وسبك على مسمع الجميع، فلا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى أن تصمت، وتدعو له بالشفاء، على الرغم من الأذى الذي يصيبك منه، بل بعض حالات هؤلاء الإخوة تكون متطورة، ويكون عنيفاً جداً، بحيث لو تمكن من إيذائك بأي شيء لن يقصر، وقد حدثتكم عمّا نالنا من هؤلاء الإخوة الذين رشقونا بالزيت والأوساخ عبر شبابيك الزنازين، بل إن أحدهم تمكن من أحد الأخوة وهو يكلمه عبر الزنزانة، واستطاع ضربه بعصا من فتحة الباب، فأصاب عينه، وقصتنا مع هؤلاء قصة طويلة، وسأتطرق لبعض قصصهم.

عودة للموضوع الذي تحدثنا عنه حول فرض أسير عليك في داخل الزنزانة:

قصتي مع الأسير الداعشي: وصل عندنا في قسم العزل أحد الإخوة بعد أن تمّ إخراجه من القسم عند حماس على إثر مشكلة مع الأسرى، فقد كان صاحب أفكار متطرفة ومتعصباً جداً ومؤيداً تماماً لمنهج القاعدة، وقد وصلت به الأمور قيامه

بالاعتداء على أحد الإخوة الأفاضل بعد أن انتقد أمامه أسامة بن لادن، فجاء عندنا إلى العزل، ونحن لا نعرف حقيقته، يحتاج الأمر وقتاً لكي نتواصل مع الأسرى داخل السجون. المهم عندما جاء، وتعرفنا عليه من خلال المناداة على الشبابيك، أو من خلال الفورة، وكان من حديثه أنه يحاول ذكر أحاديث للنبي، وآيات عن الجهاد، ويستخدمها استخداماً خاطئاً، فقط يحفظ النص، ويريد تطبيقه على الواقع، والواضح أن سلوكه غير سويّ، وضعَتْه الإدارة عند أحد الإخوة المعزولين اسمه صدقي المقت من المقاومة السورية في الجولان، وهذا رجل قديم في السجن، وتوجّهه يساري، وهو لا يصلي، لكنه محترم وإيجابي جداً، وكان في العزل بسبب مشاكل مع الإدارة، فهو موجود لفترة معينة؛ وضعوا هذا الشاب القاعدي الذي اسمه سائد عنده، وكادت أن تحدث مشكلة كبيرة بسبب نقاش عما جاء في الأخبار حول القاعدة وابن لادن، ولكن هذا الأخ القاعدي لم يستوعب من صدقي انتقاد ابن لادن، كيف تنتقده، وهو المجاهد، وأنت الكافر! وحاول الاعتداء على صدقي، ولكن لحكمة عند الأخ صدقي هدّأه، وفوراً نادى على الإدارة، وفعلاً تمّ إخراجه من عنده ليلاً، ووضعوه في الزنازين، وفي اليوم الثاني أحضرته الإدارة عندي فلم أمانع على أمل أن يتغير، ولكي لا يبقى في الزنازين، ورحّبت به وكان معه كتب للقاعدة، قرأتها حتى أستطيع تكوين تصور عن أفكاره، وكان تعاملنا مع إدارة السجن ومع مدير السجن، وفي هذه الفترة كان عندنا مدير جديد جاء من حرس الحدود، وكنا نتعامل معه بِنِدّيّة، ولا نسمح لأحد بالنيل منّا، حتى لو أدى ذلك لعقابنا، فإذا به يريد أن يدعو مدير السجن للإسلام، وهو لا يجيد الكلام بالعبري، والإدارة تتعامل معه على أنه مريض نفسي، فتحدثت معه برفض ذلك، ولكي لا يقوم المدير بالاستهزاء به، لكنه أصرّ على ذلك.

وأيضاً في أثناء وجوده عندي أخبرني أنهم ينظرون إلينا في حماس أننا كفار، ويجوز قتلنا، وقد تناقشت معه، وحاولت بقدر استطاعتي تبسيط الأمور له، وأن واقعنا في فلسطين له اعتبارات معينة، وأن كثيراً من الأحاديث التي يستخدمها لا يمكن إسقاطها على واقعنا بسبب أن بعضها مرتبط بحوادث معينة، وعلى ما يبدو أنه لا يريد أن يقتنع، وفعلاً عندما جاء مدير السجن كعادته في جولة له عندنا بدأ يتحدث معه بالعربية في أمور لا تخصّ واقعنا، وما كان من المدير ومن معه إلا الضحك عليه، والاستهزاء، وهو أجبن من أن يفعل شيئاً تجاه هذا المدير، وهذه للأسف صفة هؤلاء

الناس، هم أسود على إخوانهم وأبناء شعبهم ومع العدو جبناء، فشعرت أنه جعلنا أضحوكة ومسخرة أمام الإدارة، فلم أتدخل، وبعد خروج المدير أخبرته أن ما قمتَ به ليس جيداً، وقد رأيتَ ما حدث، وكيف أخذوا يضحكون، ويستهزئون، وما طالنا إلا البهدلة! فأخذ يصرخ في وجهي؛ وعلى إثر ارتفاع صوته جاء الشرطي ينظر ماذا يحدث، فأخبرته أن يهدأ، وأن الشرطيّ ينظر إلينا، وهذا أمر معيب أمام الشرطي، لكنه واصل، وإذا به يرفع يده، ويدفعني بقوة، فما كان من الشرطي إلا أن استدعى قوة، ودخلوا على الزنزانة، وأخذوه، وقد شاهد الشرطي ما حدث، وعندما أخذوه، وعرف الشباب ما حدث أخذوا يصرخون، ويضربون على الأبواب، وقد فهموا ما حدث، ولأن وضعي حساس، والإدارة تستهدف أمثالي عادوا بعد قليل، وأخرجوني بحجة فحص في العيادة، وفي الطريق اعتدوا علي بالضرب والسب والشتم، وهم يقولون كنا ننتظر هذه الفرصة.

وفي العيادة هناك جاء ضابط آخر، وأخذ يعتذر، وأن الشرطة تصرفت لوحدها، ولكن هذا ما حدث، وأعادني لغرفتي، وفي الصباح جاء المدير، وكنا قد أعلنّا إضراباً احتجاجاً على ما حدث، ومع ذلك أخذوني لمحاكمتي بسبب ما حدث، وهناك كان المدير، وهو جالس في المحكمة، فأخبرتهم بما حدث، وأن الشرطي كان حاضراً، وأنهم هم من يتحملون المسؤولية بإحضار هذا الشخص عندنا في القسم، وهم يعرفونه، وأحضروه، وعندما دخل أخذ يسب، ويتهمني بالعمالة والخيانة، مما أدى إلى ضحكات المدير الذي قال لي: "شو صاير خاين"، وحُكمت عقاب زنازين وغرامة، وكان موقفاً من المواقف الصعبة التي تعرضت لها، وبعدها عدت إلى غرفتي، ولم يُحضروه عندنا، وقد أوصلْنا ما حدث للأسرى في السجن، فقاموا بمعاقبته وتجميده، وقد نقلته الإدارة إلى سجن هدريم، وبعد فترة وصلتنا أخبار أنه تغير من الأسوأ للأسوأ فقد حلق لحيته، وأصبح مدمن تلفاز، وصاحب مشاكل، وليس له علاقة بالدِّين، وهذه القصص تتكرر كثيراً معنا في العزل بسبب أن الإدارة تفرض علينا أشخاصاً ليعيشوا معنا، وهم مرضى، وأصحاب فكر منحرف، وهي تعلم أنهم سيعتدون علينا، وكنت قد أخبرتكم في العزلة الأولى قصتي مع المريض الذي سكنت معه.

في السنوات التي برزت فيها القاعدة، جاء عندنا في السجون كثير من هؤلاء، وحاولوا أن يكوّنوا تنظيماً مستقلاً، لكن الفصائل رفضت ذلك، فتم استيعابهم عند الفصائل، وألا يمارسوا، أو ينظّروا لأفكارهم، فمنهم من كان يلتزم بشروط الضيافة، ومنهم من أخلّ بها، فتم إخراجه، وما زالوا حتى اليوم متواجدين بيننا، وبعضهم قد تبدل للأحسن.

موت السجين المدني: كان هذا السجين يهودياً وسيئاً جداً، وتعامله معنا على حسب المصلحة، يحاول الاستفادة منا كأسرى أمنيين، كان وزنه يتجاوز 180 كلغ، سمين بشكل غير طبيعي، ومريض، ومقرف جداً، كانت غرفته من أسوأ الغرف، ولا يستطيع التنظيف، وأيضاً لا يستطيع الاستحمام في الزنزانة لبدانته، لذلك كان يتم إخراجه إلى الفورة، ويتم رشّه بالماء من خلال "بربيش" (خرطوم مياه) قوي، والأمر عبارة عن مسرحية، وحتى زنزانته من ضمن الزنازين التي كنت أنتقل إليها، وعندما أدخلها أشعر أنها زريبة، رائحتها كريهة جداً، ومليئة بالأوساخ، كنت أتعب جداً في تنظيفها حتى أستطيع العيش فيها؛ كان هذا السجين سيء التعامل مع الشرطة، ودائم الصراخ، والكل يكرهه، حتى إنه تمكن من قتل سجين مثله من أجل قطعة دجاج. في تلك الفترة كان عندنا ضابط قسم عنيف جداً وساديّ، بحيث لم يَسْلم من أذاه أحد، وكنا دائماً على مشاكل معه، وفي فترته كنا نعاني جداً، ومع ذلك كان يهاب من الأسرى الأمنيين، خصوصاً أصحاب المؤبدات، وكان دائم المشاكل مع هذا السجين المدني اليهودي، وكان بجانبي، وفي هذا اليوم الذي توفي فيه صباحاً حدثت مشكلة كبيرة مع هذا السجين وضابط القسم، وهجموا عليه في الغرفة، وضربوه بالكهرباء، حتى يستطيعوا السيطرة عليه، وأغلقوا عليه الباب، وتركوه يصرخ، ويسب طوال النهار حتى إن تعب نام ثم عاد للسبّ، وقد أزعج القسمَ بشكل كبير، في الليل تحدثنا معه من خلال الشباك، وعندما تعب طلب أن يذهب للنوم، وكانت آخر ليلة، جاء العدد الصباحي، وأخذوا ينادون عليه فلم يجب، فدخلوا عليه فوجدوه ميتاً، فسحبوه خارج الغرفة، وكنا ننظر إليه أمام باب الغرفة مرمياً على الأرض، تركوه هكذا حتى جاءت لجنة طبية فحصته، وقررت وفاته، وعلى الرغم من سوئه فقد كانت ميتته صدمة كبيرة جداً لجميع القسم.

بعد وفاة هذا السجين أصبحت زنزانته مرعبة، ورفض أي سجين مدني دخولها، ولكنهم أجبروني على دخولها والعيش بها، وكان هذا أمراً عادياً بالنسبة لي، ولكنهم كانوا يقصدون من وراء ذلك إيذائي.

في أقسام العزل مهما كانت صرامة القوانين وصعوبة الحياة فمع مضي الوقت ومعرفة القسم جيداً تستطيع تجاوز القوانين، وخصوصاً في علاقتك مع من حولك من الأسرى والسجناء وأيضاً مع الشرطة. مع الشرطة: أولاً وأخيراً هذا الشرطي يقوم بوظيفته، ويريد أن يعود إلى بيته سالماً، وهؤلاء كثر، وكانوا يتعاملون معنا باحترام، ونحن نتعامل معهم باحترام، وبناء على هذا الاحترام كنا نطلب منهم نقل أشياء بيننا وبين الأسرى، أو إحضار أشياء لنا، وهذه الطلبات في حدود الأمور المعقولة بحيث لا تسبب للشرطي ضرراً. أما علاقتنا مع من حولنا فهم أنواع: الأسرى أمثالنا نحن نعيش الهم نفسه، ونتشارك المعاناة نفسها، ونحاول مساعدة بعضنا البعض بقدر ما نستطيع، وبكل الطرق نتضامن مع بعضنا، ونأخذ خطوات مشتركة مع بعض، ومطالبنا واحدة سواء في الأكل أم الشرب، ونحاول قدر المستطاع أن يتحدث أحدنا باسمنا إن كان عددنا أكثر من اثنين، ولا فرق بيننا سواء كنا من تنظيم واحد أم من عدة تنظيمات. أما بخصوص السجناء المدنيين، سواء اليهود أم العرب، فنحن نتعامل معهم باحترام طالما تعاملوا معنا بذلك، وكانت لنا علاقة جيدة مع كثير من هؤلاء السجناء، نساعدهم، ويساعدوننا، وكنا نطلب منهم أن يتصلوا لنا بأهلنا، وكانوا يقومون بذلك على الرغم من أن هذا الأمر يدخلهم في مشاكل كثيرة، ومع ذلك كانوا يساعدوننا كثيراً، منهم، وخصوصاً اليهود، أصحاب عصابات وأسماء مشهورة لا يهتمون كثيراً بالجانب السياسي، كل ما يهمهم أن تتعامل معهم برجولة، وتكون أمام إدارة السجن قوياً، وهذه الأمور كانت تجعلنا نكون على علاقة طيبة معاً، لذلك عن طريق الشرطة الجيدين كنا نأخذ منهم أغراضاً، ونرسل لهم ما يريدون، وكنا كسوق نبيع ونشتري، مثلاً: عنده حقيبة أو ساعة أو بنطال أشتريه منه مقابل الدخان، وهكذا! وهذه الأمور كانت توثق العلاقة بيننا بحيث نذهب لأبعد من ذلك، نعطيهم بدون مقابل، ونأخذ منهم أيضاً، وما زلنا نحتفظ بأسماء كثير منهم كانت لنا معهم علاقات ممتازة، وكنا نتحدث في أمور كثيرة، تعلّمنا منهم العبرية، وتعلموا منا العربية، ومرات نأخذ مواقف مشتركة مع أو ضدّ الإدارة، وكان يطلبهم

ضابط الاستخبارات مستهجناً وقوفهم معنا، وأننا قتلة ومجرمون، فكان ردهم: نحن سجناء، ليس لنا علاقة بقضيته أو من هو! وكثير منهم ناقمون على دولتهم، ولكن كانت هذه العلاقة تزعج الإدارة، وتحاول قدر المستطاع منعها، لذلك كانت تقدم على نقلهم أو نقلنا، وما زالت حتى الآن تصلنا سلامات من هؤلاء الأشخاص مع الأسرى الأمنيين الذين يلتقون بهم؛ وفي المقابل تجد منهم المتطرف السيء الذي يسب علينا، ودائم الصراخ، وهؤلاء أيضاً كُثر.

قصص المجانين: أحدهم عميل كبير، وقد طُرد من عند التنظيمات. عاش حياته كلها كـ"عصفور"* في زنازين التحقيق، وأصبح له في السجن 25 عاماً قضاها جميعها مطروداً، لذلك واصل عمله مع إدارة السجن، وقد أفرج عنه في صفقات أبو مازن، والآن هو موجود في غزة، واسمه ف.خ، وتمّ إعطاؤه مستحقاته كاملة مكافأة له على إخلاصه لأسياده من الشاباك، وأيضاً جائزة على ما قام به تجاهنا من أشياء سنتحدث عنها. وجدناه في أقسام العزل، ولازمَنا فترات طويلة، سواء في هذا القسم أم في أقسام أخرى؛ كنا نلقبه فوزية، وكان هذا الاسم الذي نناديه به من شدة قهرنا منه، فقد كانت شغلته الشاغلة السب علينا، وسبّ الذات الإلهية، لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً، وظيفته إزعاجنا، وهو جبان، لكنه يعلم أننا لا نطوله، وأنه محمي من أسياده، في زنزانته متعري دائماً، ويدخن بشراهة، ودائماً يريد أن نرسل له دخان بالقوة، وكنا نرسل له كل شيء لكي يسكت ويهدأ، وما أن يهدأ حتى يبدأ من جديد عندما لا يجد الدخان، يدخّن أي نوع من الأعشاب يستخدم في تدخينه ما يسمى "القنينة" التي يستخدمها الحشاشون، غرفته لا تطاق، وكأنها زريبة حيوانات، وكثيراً ما دخلتها في النقل. كنا نعطيه من أكلنا فكان يقوم ببيعه لبعض الأسرى ليشتري الدخان، أقسمت لو ظفرت به لأنتقمنّ منه، وما زلتُ.

* هو المصطلح الذي أطلقه المعتقلون الفلسطينيون على العملاء في سجون الاحتلال. ويرجع سبب التسمية إلى طريقة تسليم هؤلاء العملاء أنفسهم لإدارة السجون؛ حيث إنهم ينتظرون قدوم إدارة السجن من أجل العدد، أو تفتيش المعتقلين، فيستغلون الموقف ويهربون إلى إدارة المعتقل وهي تشبه فرار الطائر من عشه. ويقال عندما يسلم شخص نفسه لإدارة المعتقل فلان طيّر، أو عصفر. وتستغل المخابرات الإسرائيلية العصافير في تقديم معلومات عن المعتقلين من خلال زجهم في زنازين وأقسام المعتقلين؛ ليقوم هؤلاء العملاء بانتزاع الاعتراف من المعتقل بطرق عديدة، منها: الاستفزاز، والاستدراج، والضغط، والتهديد، والحيل والخداع.

وآخرُ أيضاً سجينٌ أمني يتعاطى حبوباً هي أشبه بالمخدرات، ويعدها مسكّنات، وتمّ طرده من الأقسام، وجاء عندنا في قسم العزل، ويتبنى ثقافة الحمولة، لذلك يكره الفلاحين، ويقول هكذا تمّ تربيته، لا تعرف: هو مجنون، أم عاقل! وضعوه عند أحد الإخوة، دائماً نائم، وعندما يستيقظ يحاول قتل نفسه بحرقها تارة، أو باستخدام "موس"، حياته لا تطاق، ويحتاج للعلاج، ومع ذلك فُرض علينا في هذا القسم، حاولنا مراعاته، لكن كيف تستطيع العيش مع شخص يحاول دائماً أن يقتل نفسه، أو أن يعتدي عليك.

وسجينٌ أمني آخرُ أيضاً محكوم بالمؤبد، ومن عائلة كريمة في الضفة الغربية من منطقة جنين، كان إنساناً طبيعياً تعرض لضغوطات، أصيب بالهوس، فأصبح يشك في الجميع، ويعتقد أن الكل يتآمر عليه، عنيف جداً، وإن تمكّن من شخصٍ يقتله، وهو الذي اقتلع عين أحد الأسرى كان بجانبنا. عرفناه بعد جولة مسبات وشتائم لا تطاق، ويتعمد أن ينال من الأم والأخوات بكلام لم نسمع مثله تحت مبرر أننا نسبّه ونسبّ أهله، ونستخدم التلفاز، ونطلب من المذيعين السب عليه. كان المؤذن ينتهي من الأذان، فبدلاً مِن أحسنتم يبدأ بالسب والشتم. كان من يسكن بجانبه، وبينهما جدار مشترك، يعاني كثيراً، فهو دائم الضرب على الجدار، تشعر أنه يريد أن يدخل عليك، كنا نتركه يسب علينا، ولا نستطيع فعل شيء، لأنه مريض، وكانت الإدارة ترفض نقله، أو إرساله للعلاج، تُرك في هذه الزنازين لكي يتعايش مع مرضه، ويزداد، وأفرج عنه في صفقة وفاء الأحرار وتمّ إبعاده إلى غزة. كان بجانبه يهودي يصلي صلاته فجراً، ويتمتم بصلاته، وكان أخونا هذا يبدأ بالسب على اليهودي، ومع تكرار الأمر لم يتحمل اليهودي واسمه "ميخا" هذا الأمر على الرغم من معرفته بمرضه، فبدأوا يسبّون على بعض، وتطور الأمر بينهما بأن حاول كل منهما أن يهدم الجدار ويفتح فتحة ليدخل على الآخر، وبدأت جولة الضرب التي استمرت ساعة حتى جاءت الإدارة، وكانا قد ثقبا الجدار بذراع رفّ التلفاز، وأخرجتْهما، وقامت بضربهما، وأخذوهما إلى الزنازين، وفي هذه الحادثة كان تعاطفنا مع اليهودي لأننا نعرفه، وهو صديق لنا كان يساعدنا باستمرار.

والقصص كثيرة حول هؤلاء المجانين والمرضى سواء أمنيين أم مدنيين عرب أم يهود، تشعر أنك في مستشفى أمراض عقلية، ولكن بدون أطباء، يَتركون هؤلاء

الأسرى في هذا القسم بين هذه الجدران مع أمراضهم التي تتفاقم، وتزيد ونحن حولهم، منا من يصمد، ويتحمل؛ ومنا من يضعف، ويجد نفسه قد انضم إلى قائمتهم؛ ويُحزن نفسي أنني عاجز عن تقديم شيء لهؤلاء، أراهم كل يوم يعانون، ويعذبون، ويصرخون، وتتلذذ هذه الإدارة بمعاناتهم، وتعاملهم بقسوة وعنصرية بلا رحمة، ولا تملك لأحدهم شيء سوى أن تتحمل سبابه عليك، وشتمه لك، وتصمت ولكن داخلك يتقطع، تتحدث عنهم، وتوصل معاناتهم عبر المحامي أو الصليب الأحمر، ولكن في حياتنا وعالمنا فلا حياة لمن تنادي، صرخة في بئر أو صحراء تستمر.

كان هذا القسم على الرغم من أنه عزل إلا أن القادمين إليه والخارجين منه باستمرار، وأكثرهم مدنيون، يأتون معاقبين لفترات، أو مطرودين من أقسامهم، أو عليهم قضايا لا تسمح لهم بدخول الأقسام والعيش مع الآخرين، ونحن وسطهم وكأننا منهم ممن يطلق عليهم بالعبرية "تاعون هجناه" (المحميون)، ونحن من ضمن قسم المحميين، حتى عندما يتم نقلنا من القسم أو خروجنا إلى المحاكم يتم أخذنا لوحدنا، يمنع أن يرانا أحد، أو حتى الوصول لنا، من لا يعرفنا ينظر إلينا بازدراء: محميون لماذا؟! ما السبب؟! إلخ... حياتنا في هذه الأقسام غاية في الصعوبة، تحتاج لقوة إرادة، وقوة شخصية، وقناعات ثابتة، وفهم عميق لطبيعة صراعنا مع هذا المحتل، وأن ما يحدث معك ما هو إلا سياسة لهزيمتك، للنيل منك، ولكسرك، ولتحطيمك، وعلى مهل يموّتونك ببطء، ويدفّعونك أثماناً باهظة، يقتلون فيك طعم الحياة، ويشعرونك أن هذه هي حياتك، ستحيا هنا، وتموت هنا، فإما أن تقاوم وتصمد وستنتصر، وإما أن تخسر الجولة معهم لكي تضيع بعدها.

أشخاص وأسرى أمنيون عشت معهم:

في هذا العزل الصعب، ومع هذه الوحدة المفروضة عليك، وفي ظلّ هذه الظروف التي تفتقد إلى أيّ شروط تناسب حياة البشر؛ هذه الحياة القائمة على حرماننا من كلّ شيء تجد نفسك تبحث في هذا المكان عن عناصر تستمد منها قوة تمكّنك من التغلب على كل هذه الصعوبات، ولا يوجد أفضل من سجين مثلك حاله كحالك تجد فيه المواساة، تتحدث معه على حسب ما هو مسموح، يكفي أنه يتحدث مثلك، وبلغتك، فأنت في هذا المكان الذي ليس له عنوان في أمسّ الحاجة لمن يساندك، يقف معك، تتحدث معه.

على مدار هذه الأعوام التي قضيتها في هذا العزل "عزل بئر السبع"، وُجد معي كثير من الأسرى الأمنيين، منهم من كان يأتي ويذهب سريعاً، ومنهم من يمكث فترة أطول، وقليل منهم من رافقني أعواماً. طبعاً كما قلت سابقاً؛ إن هذا القسم من العزل هو في الأصل قسم جنائي للمعتقلين الجنائيين المعاقبين عرباً كانوا أو يهوداً، ونحن المعزولون الأمنيون يتم وضعنا وسط هؤلاء الجنائيين، وهم خليط بهوياتهم، وقضاياهم، والأغلب منهم يكونون على قضايا اغتصاب أو شذوذ، تمّ طردهم من أقسامهم، وبعضهم مرضى نفسيون؛ تعيش أنت السجين الأمني داخل زنزانة وسط هؤلاء، هم أصحاب القسم، الأكثرية فيه، وأنت المحمي في زنزانتك بينهم، وتكون مستهدفاً منهم، خاضعاً لقوانينهم، لا تستطيع الاعتراض على شيء، لا هدوء، لا احترام، ولا اعتبار لأيّ مفاهيم أو أخلاق.

السباب على مدار الساعة بألفاظ أقلّ شيء يقال عنها إنها ليس لها قاموس، من شدة انحطاطها وبذاءتها، بل تمسّ معتقداتك ودينك، أكثر الإخوة الذين شاركوني هذه المعاناة، وكانوا معي في هذا القسم الأخ الأسير محمود عيسى (أبو البراء)، وهو مثلي قضى أعواماً طويلة في العزل، وتنقّل في جميع أقسام العزل، وكنا مرات نجتمع في أقسام العزل، وقد جمعني هذا القسم به. كان في زنزانة بعيدة عن زنزانتي، يعيش معه سجين أمني آخر من حركة فتح اسمه ناصر عويس من نابلس، وكان في ذلك الوقت يعيش معي في الزنزانة نفسها سجين أمني من حماس اسمه أبو جابر من رام الله، وهذا الأخ صاحب نكتة وله نهفات جميلة جداً تدل على بساطته وطيبته، فهو صغير في السن، وقد جاء للعزل على إثر رسالة مُسِكت معه في الزيارة؛ كنا في هذا القسم نستأنس ببعض، ينادي أحدنا على الآخر، يسأل عن أخباره.

في البداية، عندما وصلت إلى هذا القسم في أواخر سنة 2003، ووضعت في زنزانة لوحدي، وفوراً يبدأ أحدنا ينادي بصوت مسموع، لعل وعسى يسمع صوته أحد من الأسرى الأمنيين، وهذه غريزة موجودة عند كل شخص يريد أن يستأنس بأحد، يسمع صوت أحد، يعرفه لكي يطمئن، ويخرج من جوّ الوحشة المفروضة عليه، كان وقتها في القسم كل من الأخ الأسير محمد الرشق وهو سجين أمني من حماس من منطقة جنين، تمّ وضعه في العزل على إثر محاولته الهرب من السجن في عسقلان،

وكان معه أسير آخر، وكانت طريقة هروبهم عجيبة، حيث تمّ استخدام حبل طويل صنعوه من أيدي الحقائب، وأوصلوه ببعض حتى صارت حبلاً طويلاً، وتمكنوا من الخروج من إحدى فتحات القسم العلوية في السطح، وهناك ربطوا طرف الحبل بشيء ثابت وقوي على السطح، ورموا بالطرف الآخر على جدار السجن وعملوا بذلك سلم كجسر زحفوا عليه حتى وصلوا الجدار، وتمكنوا من الفرار ليوم كامل، لكن لقلة خبرتهم، ومعرفتهم بالمناطق لم يعرفوا إلى أين يذهبون، فقد أخذ التعب منهم مأخذه، وبذلك تمكنت الشرطة من الوصول إليهم، وأعادتهم. كان هذا الأخ معه في الزنزانة نفسها سجين آخر اسمه هاني جابر من الخليل، وُضع في العزل بسبب طعنه لمدير سجن نفحة بعدما قامت الإدارة هناك بتفتيش النساء بطريقة غير لائقة؛ وكم كانت فرحتي بسماع أصواتهم، والتعرف عليهم، وكان أيضاً في زنزانة أخرى أسير من فتح يقال له الفرنسي، وهو مرافق الأسير مروان البرغوثي، واعتقل معه، وكان يتواجد معه في الزنزانة نفسها سجينٌ أمني من حماس اسمه موسى دودين، وقد أفرج عنه في صفقة وفاء الأحرار، والآن يعمل مسؤول ملف الأسرى في حركة حماس، وباقي من في القسم حولنا أسرى جنائيون يهود وعرب، وكلّ لحظة هناك "طوشة" ومشكلة بينهم وبين الإدارة، كان السباب والشتم في القسم لا يتوقف بكل الألفاظ، وكأنك في سوق مزدحم بكل شيء، كنا بصعوبة تامة نستطيع المناداة على بعض، أو سماع صوت بعض، وفعلاً كما قلت سابقاً كانت إدارة القسم جداً قمعية، وغير متفاهمة، ومع ذلك تجد نفسك مضطراً للتعايش مع هكذا وضع، ولو بحدّه الأدنى.

طبعاً أقسام العزل لا يوجد بها استقرار، هناك تنقلات كثيرة تحدث بيننا، وأيضاً وجودك لوحدك، أو مع سجين آخر تتحكم به الإدارة، ولا يتم سؤالك أو أخذ إذنك في أي شخص قد يتواجد معك، يشاركك زنزانتك الضيقة، وهذه كانت من أكبر المشاكل، وخصوصاً عندما يضعون عندك سجيناً لا تنسجم معه، وهم كثر، فتصبح حياتك غاية في الصعوبة، لا تستطيع تبديل هذا الأخ أو إخراجه، لذلك كانت تحْدث إشكاليات كثيرة قد تصل لدرجة مدّ الأيدي على بعض، وهنا الكارثة والإدارة لا تتدخل إلا بعد أن يضرب أحد الإخوة أخاه الذي لا يستطيع العيش معه، ويكون تدخُّل الإدارة قمعيّاً، تنهال ضرباً على الاثنين، وتعاقبهم، وتحرمهم من كل شيء، وقد تفرض

عليهم الرجوع للعيش معاً مرة أخرى قاصدة تحويل حياتك إلى جحيم، وفعلاً هذا ما يحدث، وكثيرة هي القصص المأساوية التي شاهدتها، أو تدخّلتُ في حلها بقدر الاستطاعة، وكنت أنجح مرة، وأفشل مرات، ولكن لا بدّ من المحاولة لأن ما يحدث حولك يؤثر عليك ولو نفسياً.

كان أخي أبو جابر الذي يسكن معي في الزنزانة مصاباً بداء النظافة لدرجة الهوس، وقد أصبح الأمر عنده مرض، وسوسة في كلّ شيء في حياته، وهذا جعل حياته صعبة ومعقدة، فهو يحتاج من أجل الحمّام عدة لِيَف، كل ليفة لجزء من جسده، ويستخدم صابوناً وأدوات تنظيف تكفي لمجموعة أناس، ويحتاج الحمام لساعات، وأمور أخرى لا تتناسب مع هذه الحياة التي نعيشها. في هذه الزنزانة الصغيرة، كانت حياته قائمة على ذلك الأمر، يقضي كل وقته ينظف في نفسه، ملابسه، وأغراضه، أو يشمّ هذا الغرض أو ذاك، أضِف إلى ذلك أنه مدخن شرس، ولكم أن تتصوروا شكل الحياة مع أحد بهذه المواصفات، وخصوصاً التدخين الذي كنت لا أطيقه، ومع ذلك كنت أغلّب عاملاً آخر أهمّ من كل هذه الأمور: ألا أنجرّ إلى ما تريده إدارة السجن، أو لا قدّر الله أعطيهم الفرصة ليشمتوا بنا، أو يفرحوا على خلافنا، كنت أشفق على هذا الأخ، فهو صغير السن، جديد في السجن، تعاملت معه بروح المسؤولية العالية، وخصوصاً أنه كان يسمع مني، ويتمنى اللقاء بي، كان هذا الأخ صاحب نكتة، ويمتاز بخفة الدم والبساطة، وصوته جميل في القرآن، لذلك توافقت معه، وعشنا فترة جميلة جداً كلها أخوّة، وكان الخلاف فيها قليلاً، حاولت قدر المستطاع تخليصه من مرض الوسوسة لكنني لم أستطع، فتعايشت معه، وتركته على راحته، كان يراعيني في التدخين، فيدخن بجانب شباك الزنزانة، أي في الحمام، وكان مكوثه الطويل في الحمام يجعله يدخّن، وهو يقضي حاجته، ولكن مرات كانت تواجهني مشكلة احتياجي للحمّام، خصوصاً في الصباح، لذلك كنت مضطراً لقضاء حاجتي في قنينة حتى لا يحدث معي شيء، وكان هذا الأمر يزعجني جداً، ولكنني كنت مضطراً له.

كنا نقرأ القرآن معاً، وكنت أستمتع بسماع صوته، كنا نخرج للرياضة معاً، وكان رياضياً على الرغم من تدخينه، وكان سابقاً لاعب كراتيه، وقد شارك في مباريات على مستوى الضفة، لذلك استفدت منه في الرياضة، كنت أتنافس معه سواء في الركض

أم المصارعة، وقد صرعتُه مرة فلم يتقبّل ذلك، وحاول إعادتها فرفضت حتى أبقى منتصراً. كانت الرياضة والمحافظة عليها هي من أبقتنا سالمين بعد الله، وكنت أحرص على ممارستها كل يوم في ساحة النزهة، وقد كنت أخرج للرياضة في كلّ الظروف، وفي كلّ الأوقات. كانت الرياضة أكثر من تمارين، كانت إرادة للبقاء، قوة أواجه بها ممارسة السجّان وضيق السجن، كانت عبارة عن رسالة تحدٍّ لإدارة السجون أنني قوي صلب، وأن كل أساليبكم لم تستطع كسري أو النيل مني، وكنت أرى ذلك التأثير في عيون السجانين.

قصصي مع هذا الأخ كثيرة ومضحكة: أقنعناه في إحدى المرات أن يخطب الجمعة عبر شباك الزنزانة، وفعلاً اختار موضوعاً من كتاب معين، وبدأ يقرأ، ونحن على الشبابيك نستمع، وإذا به يتوقف ليتأكد أننا نسمع، وأخذ ينادي، فأخبرناه لقد بطلت الصلاة فأعِد من جديد، وهكذا استمر الوضع لأكثر من مرة حتى كاد أن يغمى علينا من الضحك!

أما أجمل هذه القصص، فقد تمّ إغلاق حساباتنا في الكنتينا، وأصبحنا لا نستطيع دفع المال، وبذلك لا نستطيع شراء كنتينا أي الأغراض التي نحتاجها، وأصبح عندنا شُحّ في كل شيء حتى في الشاي، ولكننا نريد أن نصنع شاياً، وكان أخونا الأسير أبو البراء محمود عيسى في زنزانة تقابلنا، ويوجد عنده شاي، ولكنه يخرج إلى الفورة لوحده، ونحن كذلك، ويرفض الشرطي نقل الشاي بيننا، وهذا القسم له فورتان (ساحتان) بجانب بعضهما البعض مغلقتان، ولكن توجد بينهما فتحات علوية، اتفقنا مع أبي البراء أن يخرج لنا الشاي، ويضعه في أي شيء، ويخبّئه، ونحن نأخذه منه في الفورة، وفعلاً بدأنا ذلك، وكلما حصلنا على كمية شاي أسأله أين خبّأها في جسده وهو خارج لكيلا يراه الشرطي عند التفتيش، فمرة يضعها داخل بنطاله بجانب الملابس الداخلية، ومرات يضعها في داخل حذاء الرياضة، لذلك جهزت علبتين علبة أضع فيها شاي الحذاء الرياضي، وعلبة لشاي الملابس الداخلية، وكان أخونا أبو جابر الذي عنده وسوسة يحب الشاي، فعندما أريد أن أصنع الشاي أخيّره بقولي: يا أبا جابر مِن أيّ شاي تحب أن تشرب: شاي الحذاء أم شاي الملابس الداخلية! فيجن جنونه، وأنا أضحك كثيراً لردة فعله، لكنه يضطر لشرب الشاي، وكان يفضل شاي

الحذاء على الشاي الآخر. عاش أبو جابر معي في الزنزانة نفسها لفترة، وبعدها نُقل إلى عزل آخر وقد مكث في العزل مدة خمسة أعوام، والآن هو موجود في سجن آخر.

كان بجانبنا في العزل سجناء جنائيون يهود وعرب، لا يهدأون، يطرقون على الأبواب، ويصرخون، ويشتمون بكل الألفاظ من أجل الحصول على سيجارة، تشعر وكأنك في مستشفى مجانين، كانت تحدث بيننا وبينهم علاقة وسلامات، وإن استطعنا مساعدتهم بأي شيء لا نقصّر، وكثيراً ما كان يأتي للقسم سجناء جنائيون يهود وعرب معاقبون، لكنهم جيدون ومحترمون، نتعرّف عليهم، ويحدث معهم نقاش، ونتبادل بعض الأغراض على ما هو مسموح، وكنا نطلب منهم أن يتصلوا بالأهل للاطمئنان علينا، أو بمحامٍ نريد منه شيئاً مقابل إعطائهم الدخان.

كان بجانبنا أيضاً أسير أمني، لكنه هارب من الأقسام منذ أعوام، وهو معروف أنه عميل اسمه فايز وهو من قطاع غزة. هذا الأسير كان باستمرار يشتمنا بأقبح الألفاظ، ويشتم الأهل والأخوات، ونحن لا نستطيع فعل شيء معه، ولا نستطيع الوصول له، والإدارة لا تفعل له شيئاً، وتقول إنه مجنون. وهؤلاء المجانين كثر يأتون، ويذهبون، ونادراً ما تجد قسم عزل يخلو منهم، ولهم دور بإزعاجنا، وتوصيل أخبارنا لإدارة السجون؛ ولكن المؤلم جداً أن يكون بجانبك سجين أمني مريض نفسيّاً يتم وضعه في هذه الأقسام الصعبة بدلاً من وضعه في المستشفى للعلاج. وهؤلاء الإخوة يتعرضون لظروف صعبة، وتكون حالتهم جيدة في البداية، ولكنهم لا يستطيعون تحمل ظروف السجن فيصابون بمرض نفسي، ويُتركون في هذه الأقسام فتتفاقم أوضاعهم، ولا أحد يرحمهم، تسمعهم يصرخون، ويتألمون، ولا تستطيع فعل شيء لهم، وينالنا منهم أذى، فهم يشتموننا، ولا نستطيع فعل شيء لهم، نحزن عليهم، ونطالب إدارة السجن بمعالجتهم ونقلهم، ولكن لا يحدث شيء، ويستمر الوضع هكذا، وهذه من مآسي هذه الأقسام المغلقة التي لا يعلم ما يحدث بداخلها أحد.

في هذه الفترة كانت أوضاع السجون غاية في السوء، وهذا كان ينعكس علينا في عنف الإدارة، واستفرادها بنا، وفرض قوانين قمعية علينا؛ كنا نواجه بقدر استطاعتنا هذه القوانين للاحتجاج، أو إرسال الرسائل، أو ترجيع وجبات الطعام، أو الإضراب لأيام حتى نوقف هذه الهجمة علينا، وقد نحقق بعض المطالب الصغيرة التي تحسّن حياتنا وظروفنا.

عاش معي أيضاً في الزنزانة نفسها أحد الإخوة في حركة فتح يقال له الفرنسي، وهي كنية له وكان سابقاً مرافقاً للأسير مروان البرغوثي، كانت الحياة معه جيدة، وكان هناك تعاون بيننا في الحياة داخل الزنزانة. كان هو لا يخرج للفورة، ولا يمارس الرياضة، ويبقى طوال الوقت في الزنزانة، وكان مدخّنا شرهاً، وقد تكون هذه هي أصعب الأشياء في الحياة المشتركة عندما يوضع لديك أخ مدخّن، ماذا ستفعل! تحاول قدر المستطاع الاتفاق معه على آلية معينة ونظام في التدخين، وهذا الاتفاق على حسب الشخص وسهولته في التعامل، لذلك قد تكون الحياة مع شخص آخر في هذه الزنازين عذاباً بسبب عدم التوافق بين هذين الشخصين، وتكون إدارة السجون متعمدة فعل ذلك بهدف تحويل هذه الحياة إلى جحيم، وزيادة صعوبتها على الأسيرين، ومشكلة التدخين هي أكثر المشاكل إزعاجاً، لضيق مساحة الزنزانة، ولأننا نتواجد بداخلها 23 ساعة متواصلة.

وصلنا لسنة 2004 وقد تجمعنا في هذا القسم عددٌ كبير من المعزولين، كنت أنا أقدم معزول، وكان عندنا أيضاً الأسير زاهر جبارين سكن معي في الزنزانة نفسها، وكان أبو البراء محمود عيسى قد تمّ نقله إلى عزل آخر في سجن جلبوع، وكان أيضاً عندنا في القسم الأسير محمد الرشق ومعه الأسير هاني جابر في زنزانة واحدة. وكان عندنا أيضاً الشهيد الأسير فارس بارود وهو أحد أبناء حركة حماس، وكان محكوماً بالمؤبدات، وقد عاش فترة طويلة في العزل وآخرون من فصائل أخرى لهم فترات بسيطة. في هذه الفترة حدث إضراب سنة 2004 المشهور، وشاركتْ فيه كل السجون، وفوراً شاركنا به على أمل أن يتم إخراجنا من العزل؛ ولكن للأسف أفشلت الحركة الأسيرة هذا الإضراب بعدم ترتيبها، وتنظيمها الجيد لهذا الإضراب. لهذا كان له ارتدادات عكسية كبيرة علينا، وعلى جميع الأسرى، وازدادت الإدارة في قمعيتها ووحشيتها، وقد شعرنا بذلك بشكل واضح. وكنا نحن في قسم العزل آخر من فكّ إضرابه، ورفضنا كسر الإضراب إلى أن يأتي أحد من الأقسام، أو قيادة الإضراب يبلغنا بانتهائه، وفعلاً وصلتنا رسالة من قيادة الإضراب تخبرنا بأنهم قد فكّوا الإضراب، وبذلك أوقفنا إضرابنا عن الطعام دون أن نحقق أي مطلب.

استمرت حياتنا كما هي بصعوبتها في هذا القسم، وباستمرار ينتقل الأسرى، ويأتي غيرهم، وبقيت ثابتاً في هذا العزل، وفي ظلّ هذه الظروف التي تزداد قساوة

أكثر من خمسة أعوام في المكان نفسه، حيث حدث خلالها الكثير من الأمور. على الرغم من الصعوبة والحرمان الذي نعيشه في كل شيء كنا نسلي أنفسنا، نتحدث معاً بصوت عالٍ، نعيش أحداث المجانين الذين حولنا، وقصصهم الكثيرة التي لا تنتهي، كان أغلبنا له برنامج شخصي بين قراءة القرآن، وقراءة الكتب على حسب ما هو متوفر، ومتابعة قنوات التلفاز والرياضة، والنوم، وأهم شيء العبادة والتوجه إلى الله لكي يخفف عنا، ويرفع هذا البلاء، ويعجّل لنا في الفرج. في هذه الفترة حدثت قصة في سجن نفحة في أثناء التفتيش في قسم حماس، بأنْ قام الأسرى باحتجاز شرطي داخل الغرفة وضربه، وهذا أدى إلى عملية قمعٍ كبيرة داخل هذا القسم، لذلك وصلَنا على إثر هذه "القمعة" عدد من الأسرى المضروبين بشدة، وكانت أشكالهم يُرثى لها، والدماء تسيل من وجوههم وأقدامهم، وهم نصف عراة. ومن خلالهم بدأنا نتعرف على أوضاع الأسرى، وأخبار كثيرة كنا مغيّبين عنها، ساعدناهم بقدر ما نستطيع، أرسلنا لهم الملابس وجهّزنا لهم الطعام حتى تحسّن وضعهم جميعهم. كانوا من أسرى غزة تابعين لحركة حماس، مكثوا عندنا في العزل أشهراً، ثم غادروا عائدين إلى سجونهم، الجميع كان يأتي، ويغادر، وأبقى أنا، وتبقى الذكريات مع هؤلاء الإخوة.

كانت أوضاعنا في هذا القسم تزداد سوءاً، وخصوصاً مع فشل إضراب سنة 2004، فقد تغوّلت الإدارة علينا، وأصبحتْ قمعية جداً. كنتَ تشعر أنك مستباح في كل شيء، كل شيء في حياتنا صعب، حتى أبسط الأمور التي قد تحتاجها يتم رفضها، نقص في كل شيء الأكل والشرب والكتب والملابس، لا يوجد زيارات، بل حتى زيارات المحامي يحاولون تعطيلها، لا نعرف ماذا يحدث وكأننا في كوكب آخر. يستمر السباب علينا من قبل أسرى تأتي بهم الإدارة بشكل خاص ليزيدوا صعوبة الحياة علينا، ويقولون لنا هؤلاء مجانين، يحاولون الضغط علينا بكل الطرق لننهار، ولينالوا منا حتى إنهم عرضوا علينا الارتباط، والعمل معهم، وهم يعلمون أننا سنرفض، ولكن من باب النيل من شخصيتك وإهانتك، وهذا ما حدث معي كما حدث مع كثيرين. فقد تمّ استدعائي لمكتب الاستخبارات، وشعرت أن هناك وضعاً غير طبيعي، وكان ذلك في اليوم الذي جاء به مسؤول استخبارات السجون، وكانت امرأة واسمها "بيكي"، وجَلَسَتْ، وبدأنا نضحك في المكتب، وكان فيه أكثر من ضابط

استخبارات، وإذا به يقول: "يا حسن! ريِّحْ حالك، وساعدنا على أن نساعدك، ساعِد نفسك للخروج من العزل مقابل أن تساعدنا!". انتابتني موجة من الضحك بصوت عالٍ جداً، وبعدها قلت لهم، وكانوا مستعدين لأي تصرّف: قد تجدونني مؤدباً بالتعامل، لكنني أفهم لغة الشوارع، وإن كنتم تريدون مني مساعدتكم، قد أوافق مقابل الإفراج عني طبعاً، وهذا مستحيل، وهم يعلمون أنني أستهزئ بهم، فقالوا: هذا لا نستطيعه أبداً، ولكن نستطيع إخراجك من العزل! حينها قلت لهم: ما رأيكم أن تعملوا معي أنتم مقابل تركككم تعيشون عندما تتبدل الأمور! فأخذوا يضحكون، وقلت لضابط الاستخبارات: لن يمر طلبك هذا بكل بساطة! وقال لي: ماذا ستفعل؟ قلت له: الآن أستطيع أن أكتب شكوى ضدك! قال لي: لم أقصد إهانتك، ولكن هذا عملي، وانتهت المقابلة. فهم يحاولون بكل الطرق والوسائل للنيل منا، والضغط علينا، لعلنا ننهار في لحظة فيستغلّونها، وهذا يحدث مع الكثير، فقد يكون هذا الأمر أخطر ما يتعرض له المعزول، وهذا دليل على أن كل شيء تتعرض له يكون مخططاً له، وقائماً على منهجية عندهم، ولا يكون عبثاً.

فقد فَرضت هذه المرأة التي كانت مسؤولة الاستخبارات، والتي هي على اتصال مباشر مع الشاباك، أن من يريد الخروج من العزل عليه تقديم طلب لمقابلة الشاباك، وهناك تحْدث المساومات، وبعض الإخوة، وهم ثقات، رأوا الأمر عادياً! وماذا عليهم، لو قدموا طلباً، وجلسوا مع الشاباك، وسمعوا منهم. وقد تمّ إخراج البعض منهم بهذه الطريقة بناء على شروط منها عدم ممارسة أي عمل من داخل السجن، فرفضت أنا هذا الأمر، ورأيته نوعاً من أنواع الابتزاز، وأن وجودنا في العزل في الأساس ليس شرعياً أو قانونياً. مكثت في هذا القسم، وهذه الأوضاع ما يقارب الخمسة أعوام بشكل متواصل حدثت فيها الكثير من القصص، وكنت شاهداً على الكثير من الأحداث، ومنها كما أخبرتكم موت أحد الأسرى الجنائيين اليهود، ذلك الرجل السمين صاحب زنزانة الصراصير والرائحة الكريهة.

على مدار هذه الأعوام، جاء الكثير، وغادر الجميع، منهم من خرج من العزل، ومنهم من انتقل إلى عزل آخر، وقد علمت أنه تمّ نقل الجميع إلى عزل أيالون، وهو قسم عزل فتح جديداً، ولم يبقَ في هذا القسم حتى نهاية سنة 2008 إلا أنا وحولي

سجناء جنائيون عرب ويهود، وهذا زاد من وحشتي في هذا القسم. وشعرت أن هناك فعلاً استفراد بي، لذلك كنت أتوقع أي شيء أن يحدث معي، وخصوصاً أن مدير السجن الموجود، أو الذي استلم جديداً كان شديد السوء، يقال له "سفيكه"، والأسرى الأمنيون يعرفونه جيداً، ولهم تجربة معه، فقد نكّل بهم، وكان سبباً في قمع الكثير من الأسرى، وكنت قد تواجهت معه عند قدومه، فقد حدثت بيني وبينه مشادة كلامية عندما تلفظ عليّ بلفظ لا أقبله، وكنت قد حدثتكم سابقاً عن هذه القصة. وعلى الرغم من سوء الوضع، وذهاب الجميع من حولي، وشعوري بهذه الوحشة ما كنت لأسمح لنفسي أن تُظهر أيَّ ضعف أو انكسار، فالموت أهون من شماتة الأعداء. لذلك كان ملاذي وملجئي هو مناجاة ربي، والبكاء بين يديه، وطلب الاستغاثة والمعونة منه، راجياً أن يساعدني، كنت أشعر بالراحة النفسية وقوة الإيمان التي تعينني على المواصلة، فالإنسان منا ضعيف جداً، ولا يستطيع بما يملكه من قوة جسدية مواجهة كل هذه الصعوبات، فيلجأ إلى القوة التي لا تُقهر يستمد منها قوته، ويناجي ربّه لكي يصبّره. أضِف إلى ذلك إيمان أحدنا بعدالة قضيته، وأنك صاحب الحق، وهم الأعداء المجرمون، وما يجري ما هو إلا استكمال لتاريخ الجهاد الذي بدأه، لكن بأساليب وطرق مختلفة. كنت عنيداً جداً معهم، وأتلذذ بإغاظتهم، والتقرب إلى الله بذلك، والحمد لله كانت لنا علاقة جيدة مع كثير ممن حولنا على الرغم من أنهم جنائيون، وكانت هذه العلاقة تخيف الإدارة، وتزعجها، لذلك حتى الجنائيين قامت بنقلهم من حولنا، ولم تترك بجانبنا إلا المجانين الذين يسبّوننا، ويشتموننا ليلَ نهار.

سمحت إدارة هذا السجن لأحد المتخصصين في قضايانا، وهو دكتور يهودي كان مدرّساً في جامعة بار إيلان Bar–Ilan University العنصرية، بإجراء مقابلات معنا، ووافقت على ذلك، وكنت أعلم أن لهم أهدافاً سيئة، لذلك كنت حذراً في هذه اللقاءات التي استمرت لأيام طويلة. يأتي هذا الشخص، ويدخل إلى الزنزانة، ويبدأ الحديث بيننا، وهو يصور كل شيء بكاميرا فيديو، وقد استخدم هذا الدكتور بعض هذه المقاطع في بعض المناسبات، وكنت قد اتفقت معه أن أحصل على كل هذه الأشرطة، لكنه لم يلتزم بذلك، وهذه هي عاداتهم وصفاتهم، فعلى ما يبدو لم يعجبه ما تناقشنا به، وما تمّ طرحه خلال هذه المقابلات.

في هذه الأيام العصيبة والصعبة أحضروا عندي، وبشكل مفاجئ الأخ الفاضل الأسير جمال أبو الهيجا، وكان له فترة في زنازين العزل، وهذه هي المرة الأولى التي ألتقي به، وكنت سعيداً جداً بذلك على الرغم من حزني على ما سيلاقيه في ظلّ هذه الأوضاع الصعبة التي بدأ يشعر بها. فقد شعر بسوء المعاملة، وخصوصاً عندما أصروا على إبقائه مقيّد القدمين حتى في الساحة، ولم يراعوا كبر سنِّه أو أنّ له يداً مبتورة. حاولنا رفع ذلك القرار، ولكنهم أصروا على ذلك لأيام، وكانت هذه عادتهم مع كل قادم جديد: يفرضون عليه قوانين كثيرة، وبعد ذلك يبدأون بتخفيف بعضها بناءً على سلوك الشخص كما يزعمون؛ وهذا الأمر كان كلاماً أكثر منه واقعاً، لذلك كنا مجبرين على الاحتجاج المستمر على عدم استجابتهم لنا. تحدثنا أنا وأبو الهيجا كثيراً، وسمعت منه أخبار الشباب الذين قابلهم، وحدثني عن قصته أيام معركة جنين، وكيف بُترت يده. لم يستمر هذا الوضع سوى أسبوع، بعدها قاموا بنقله من عندي من القسم كله، وأعادوه إلى قسم عزل سجن عسقلان الذي جاء منه.

من الأشياء التي ما زلت أتذكرها في هذا القسم تسميعي القرآن للأخ الحبيب مازن ملصة، وهو أسير أردني تمّ اعتقاله، وأبقوه في العزل طوال مدة حكمه التي استمرت ستة أعوام، تعرّفت على هذا الأخ، وكان مثقفاً وصاحب شخصية قوية، سعدت جداً بالتعرف عليه، وكان بجانبي في العزل، وكان يحفظ القرآن، لذلك كان بيني وبينه وِرد تسميع يوميّ، وأشهد أن حفظه كان ممتازاً، وأيضاً كنا نتعلم اللغة العبرية عبر شبابيك الزنازين من الأخ الفاضل محمد الرشق الذي حدثتكم عنه، فهو يجيد العبرية، وبدأنا بأخذ دروس معه، وكنا أيضاً نتناقش في الكثير من المواضيع السياسية أو الدينية، وقد مكث في العزل مدة ثلاثة أعوام، وبعدها خرج إلى الأقسام العامة في السجون.

قد يكون الخبر المفرح جداً الذي سمعناه في هذا العزل، وعشنا معه أحلاماً جميلة خبر خطف المقاومة للجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط Gilad Shalit؛ فقد فرحنا، وكبّرنا، وكانت فرحة لا توصف. على إثرها عوقبنا بقطع الكهرباء، وسحب التلفاز، وأمور أخرى، كلها كانت تافهة أمام هذا الخبر، والتعبير عن الفرحة التي أغاظت هذه الإدارة، فجعلها تصبّ جام غضبها علينا، ومع ذلك كنا سعداء، ونحن نعيش أمل

الإفراج عنا، ونراه أصبح قريباً بإذن الله. وكان ذلك على ما أذكر في سنة 2006، وكان حولي حينها كثير من الإخوة الذين تشاركت معهم هذه الفرحة الكبيرة، وعلى رأسهم الأخ الحبيب محمود عيسى؛ ومحمود عيسى (أبو البراء) أحد الإخوة الأفاضل، وهو قائد من قادة الحركة الأسيرة، رجل صاحب خبرة اعتقالية كبيرة، ومثقف، وحافظ لكتاب الله، اعتقل سنة 1993، وهو من سكان مدينة القدس مخيم شعفاط، ولكنه يحمل هوية الضفة. كان اعتقاله على إثر خطف جندي إسرائيلي وقتله هو ومجموعته المكوّنة من إخوة أفاضل من المنطقة نفسها، وعلى إثر هذه العملية تمت عملية الإبعاد لقادة حماس إلى مرج الزهور جنوب لبنان، وقضى في العزل مثلي 14 عاماً لقيامه بممارسة العمل الجهادي من داخل سجنه، وهو صديق كنت أتمنى أن نعيش معاً في العزل، لكن إدارة السجون رفضت ذلك، فكان رفيقي في القسم باستمرار. وقد أُفرج عن جميع أفراد مجموعته في صفقة وفاء الأحرار سنة 2011، وبقي هو ينتظر الفرج القريب مثلي، ومثل بقية الأسرى بإذن الله؛ وهناك إخوة آخرون كانوا معنا في القسم جاؤوا لفترات بسيطة، ثم خرجوا، ذكرتُ بعضهم، وغاب عني البعض بعد هذه الأعوام.

وأخيراً، وبعد خمسة أعوام متواصلة في هذا القسم السيء، وفي ظلّ هذه الأوضاع المأساوية، وبعد أن تُركت وحدي، وتمّ نقل الجميع من حولي، وفي أواخر سنة 2008، تمّ نقلي أنا أيضاً إلى قسم عزل آخر في سجن أيالون، لتبدأ قصة جديدة وأحداث جديدة، وقد نُقلت لأنه تقرر إغلاق قسم العزل في بئر السبع بسبب الشكاوى التي كثرت من قبل الجنائيين، والذين كانوا في هذا القسم، وبعضهم من قادة المافيا في هذه الدولة، ولم يستوعبوا العيش في هذا القسم، ولديهم أكبر المحامين الذين استطاعوا أخذ قرار من المحكمة بإغلاق هذا القسم الذي لا يصلح لحياة البشر، على أن يتم إجراء إصلاحات فيه، وتوسيع الزنازين بما يناسب حياة البشر، وفعلاً تمّ تفريغ القسم، وبذلك نقلت إلى قسم العزل في سجن أيالون.

في العزل في سجن أيالون:

وصلت إلى سجن الرملة، وهو سجن كبير، والذي يعدّ مجمعاً لأكثر من سجن: فهناك سجن أيالون، وسجن نيتسان، وسجن مستشفى الرملة، وأقسام العزل

التابعة لهذه السجون؛ ويعدّ هذا السجن من أقدم السجون في أراضينا المحتلة، فقد أقيم في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، واستمر حتى يومنا هذا. كنت عارفاً بهذا السجن، فقد دخلته خلال عزلتي في المرة الأولى، وذهبت لمستشفى الرملة فيه عدة مرات، وهذه المستشفى ليست لها علاقة بالمستشفى إلا بالاسم فقط، فهي سجن كبقية السجون، ولكن خصصت لاستقبال الأسرى المرضى، وهي عدة أقسام، منها قسم للأسرى الأمنيين المرضى، وكان لي أخ أسير أكرم سلامة اعتُقل قبل اعتقالي، وهو عائد من السودان، وحُكم عليه بثلاثين عاماً، وبسبب ما حدث معه في التحقيق تدهور وضعه الصحي، وحدث معه انفجار في المثانة جعلته يبقى نزيلاً في المستشفى طوال مدة اعتقاله حتى تاريخ الإفراج عنه في صفقة وفاء الأحرار في سنة 2011؛ ومجرد شعوري أنه أصبح قريباً مني مع أنني لم أره جعلني سعيداً ومطمئناً، وأيضاً لأن مدينة الرملة هذه المدينة الفلسطينية القديمة التي ما زالت آثارها شامخة، وشاهدة على عروبتها وإسلاميتها بمساجدها، وخصوصاً مسجدها الكبير ذو المآذن العالية، هي مدينتي فأنا لاجئ من قرية صغيرة تسمى الخيمة وهي تابعة لقضاء الرملة، وفيها عاش أجدادي وأهلي حتى النكبة التي وقعت عليهم سنة 1948، وهجّرتهم من أرضهم وديارهم فتشتّت بهم الدروب، وتوزعوا، فمنهم من ذهب إلى الأردن، ومنهم من وصل إلى الضفة الغربية، وكان نصيب عائلتي الذهاب إلى غزة. كنت أعيش هذا الشعور على الرغم من سجني وقيدي وعزلي، لكنه أمرٌ نفسي كان يجعلني سعيداً ومرتاحاً بعض الشيء.

هذه المرة عند قدومي إلى هذا السجن كنت أتوقع أنني عائد إلى قسم العزل القديم السيء الذي حدثتكم عنه، وشرحت لكم عن حياتي هناك، ولكن ما حدَث أنهم أقاموا في هذا السجن قسمَ عزلٍ جديد تابع لسجن أيالون داخل هذا المجمع الكبير الذي اسمه سجن الرملة، وهذا القسم على أطراف هذا السجن، قريب من الجدار، وبعيد عن قسم العزل السابق بمسافة كبيرة. عندما نزلت في هذا السجن بدأت تعود بي الذاكرة للماضي، فكل شيء كما هو مع بعض التصليحات الخفيفة التي شاهدتها وأنا أمشي، يقودني أفراد النحشون، ومعي حقائبي، أدخلوني إلى مكان التفتيش، أو ما نسميه قسم الاستقبال، وهو القديم نفسه، وهناك قاموا بإجراءاتهم المعتادة من تفتيش حقائبي، ومصادرة أغراضي، وإبقاء القليل منها، وتفتيشي عارياً، والتأكد من اسمي،

ورقم هويتي، وبعد ساعات من هذه الإجراءات المعقّدة وضعت ما بقي من أغراض لي على عربة صغيرة، وقاموا بتقييدي من الأيدي والأرجل، وقادوني في ممرات طويلة حتى وصلنا إلى قسم العزل المستقل تماماً والمنزوي في إحدى زوايا السجن هناك. دخلت وإذا أمامي ممر طويل جداً، وعلى الجانبين زنازين تقابل بعضها البعض، وبدأتُ أسمع كلاماً بالعربية، وهناك أصوات تنادي: مَن القادم؟ فآنسني ذلك! وأخبرتهم باسمي: حسن سلامة، فبدأ التسليم من قبل الجميع، وأخذوا ينادون عليّ، ويرحبون بي، وإذا أنا في قسم عزل تجمّع فيه أكثر من عشرة من الأسرى الأمنيين، وجميعهم أعرفهم. كان في هذا القسم كل من الأخ وليد خالد الشاعر والكاتب، وهو من الضفة الغربية، وبجانبه الأخ الأسير صالح دار موسى، ومعه في الزنزانة نفسها الأخ أبو جابر الذي حدثتكم عنه. وفي باقي الزنازين الأخ إبراهيم حامد قائد الكتائب في الضفة الغربية، وهو لوحده في زنزانته، يقابله زنزانة بها الأخ أبو العبد أبو الهيجا، ويرافقه الأسير أحمد المغربي، وهو أحد الإخوة الذين كانوا عند فتح، وتركهم وانتقل للعيش عندنا خلال فترة عزله، وهو أخ فاضل. وبجانبهم زنزانة بها الأخ محمود عيسى (أبو البراء)، يرافقه الأسير الأخ محمد جمال النتشة (أبو همام)، وزنزانة أخرى بها الأخ إياد فنونة، وزنزانة بها الأخ هشام الشرباتي، والجميع وصل إلى هذا العزل منذ أشهر، ومنهم مَن له عام، أو يزيد. وكانت فرحتي كبيرة جداً بهذا التجمع الذي يحدث لأول مرة.

وضعوني في زنزانة في منتصف القسم بجانب زنزانة الأخ الأسير أبو علي حامد، وأمامي الأخوان أبو الهيجا والمغربي، وبجانبه زنزانة أبو البراء محمود عيسى؛ دخلت إلى زنزانتي، ووضعت أغراضي. وفوراً وضعت كرسي داخل المرحاض لكي أستطيع الوصول إلى شباك المرحاض لأتحدث من خلاله مع الإخوة، وهذا الشباك كان عبارة عن وسيلة التواصل بيننا، وقد أسميناه وأطلقنا عليه فيسبوك Facebook القسم، وبَدَأت السلامات والترحيبات، وكنت جداً مشتاقاً لهم، ولهذا التجمّع، وعشت في هذه اللحظات، وأنا استمع لأخبارهم، وهم يستمعون لأخباري، طبعاً مع اعتراضات مستمرة من قِبل الشرطة الذين كانوا يحاولون منعنا من الحديث بالصراخ، أو بالتهديد بفرض عقوبات، وكنا نصمت لحظات بعدها نواصل حديثنا. وقد استقبلني الأخ الفاضل وليد خالد، وهو صديق أعرفه من بداية اعتقالي، وهو

شاعر، وكان في العزل بالرغم من أنه محكوم بالإداري، استقبلني بقصيدة رائعة احتفالاً بي، وأخذ صديقي أخي أبو البراء ينادي عليّ بصوته المميز، فنحن بيننا لغة مشتركة، هو يناديني أبو علي يخطفها خطفاً، وأنا أناديه عيسى مكسورة مُمالة، وهذه كانت باستمرار طريقة المناداة بيننا، حتى إنه لكثرة ترديدها حفظها الشرطي، وأخذ يستخدمها باستمرار، حتى في بيته حسب ما أخبرنا به، ووضعوا عندي أحد الإخوة من الجهاد الإسلامي وهو أخ جديد وبسيط.

كان هذا القسم طويلاً جداً يحتوي على أكثر من 25 زنزانة، وهذه الزنازين المتقابلة، والممر بينها ضيق، تقريباً عرضه 1.5م. وهذا القسم مغلق تماماً؛ من الأعلى يوجد طاقات صغيرة لإدخال الهواء، لذلك يشعر القادم إلى هذا القسم أنه لا يستطيع التنفس لسوء التهوية؛ بداخل الممر مكيّف هواء، لكنهم لا يقومون بتشغيله، لذلك يضعون مراوح تعمل باستمرار، وتجعل الحديث بيننا صعباً، لذلك نحتاج لرفع الصوت عالياً حتى نستطيع سماع بعضنا البعض، وكانت هذه أكبر مشكلة في هذا القسم.

الزنازين من الداخل واسعة، وفي كل زنزانة برشان (سريران)، وفيها حمام له نافذة تفتح على الممر، وأيضاً مرحاض له نافذة تفتح على الممر، وكل الروائح وبخار الماء يخرج إلى القسم، والزنزانة لا يوجد بها أي نافذة خارجية، وهذا ما يجعلها كالقبر، وخصوصاً في فصل الصيف، فهي شديدة الحرارة. كان متنفسنا الوحيد نافذة المرحاض التي من خلالها نتواصل، ونتحدث، ونحن واقفون على كراسي نضعها داخل المرحاض حتى نستطيع أن نرى بعضنا البعض، ولذلك أسميناها كما قلت: فيسبوك العزل.

وهناك مشكلة أخرى لا تقل أهمية عن هذه المشكلة، فقد كانت ساحة الفورة (النزهة) صغيرة جداً، وكأنها غرفة، لا تستطيع أن تسير بها، وأن تمارس الرياضة بها. ويحتوي هذا القسم على ثلاثة أماكن للفورة بجانب بعضنا البعض، وكل فورة لها باب مستقل، لا أحد يرى الآخر في هذه الفورة، ولكن نستطيع الحديث بصوت عالٍ مع من يكون بجانبنا في الفورة الأخرى. نخرج إلى هذه الفورة أو هذه النزهة ساعة واحدة؛ وكل زنزانة تخرج لوحدها، وهناك برنامج لأوقات الفورة.

المغسلة داخل القسم يعمل بها أسير جنائي، وحتى مكان الزيارة في القسم نفسه، وكذلك زيارة المحامي. باقي الزنازين يسكنها أسرى جنائيون، منهم المجنون، ومنهم العاقل، وأوضاعهم متشابهة كما هي أوضاعهم في بقية أقسام العزل.

في هذا القسم، كان القانون أن يتم تقييد الأيدي من الخلف، وهذه كانت معاناة حقيقية لنا جميعاً بسبب أن فتحة الباب صغيرة، وهي أسفل باب الزنزانة، لذلك كانت باستمرار تحدث المشاكل مع الشرطة عند التقييد لقيامه بسحب الأيدي حتى يستطيع وضع القيود بها، ويتم أيضاً وضع القيود في الأقدام من خلال طاقة خاصة، وهذا يحدث في كل مرة يتم الدخول فيها إلى الزنزانة، ودخولهم لها كثير جداً، أو للخروج للساحة، أو لزيارة المحامين، أو لعيادة القسم؛ ولك أن تتصور أن يتم تقييدك في اليوم الواحد أكثر من خمس مرات، وقد تزيد، أو تنقص، ويستمر هذا الوضع أشهراً وأعواماً.

باب الزنزانة مغلق تماماً، يوجد به ثلاث طاقات: الأولى أسفل الباب يتم من خلالها تقييد أقدامك قبل فتح الزنزانة، والثانية تعلوها قليلاً تُستخدم لتقييد الأيدي من الخلف، وإدخال الطعام أو أي شيء، تفتح فقط للحاجة، وتُغلق فوراً. وأكثر هذه الطاقات إزعاجاً هي الثالثة، وهي في أعلى باب الزنزانة بعرض 20 سم وطول 30 سم، عليها قضبان حديد ولها قطعة حديد موضوعة بين مجريين ليتم إغلاق الطاقة من خلالها، وفي حالة فتحها وإغلاقها تخرج أصوات عالية جداً يسمعها كل من في القسم، وهم يتعمدون فتحها وإغلاقها بقوة وعنف. هذه الطاقة وضعت ليتم مراقبتنا من خلالها، أو للحديث مع الشرطي من خلالها، وهي دائماً مغلقة. وكنت قد كتبت رسالة خاصة عن هذه الطاقة التي تمنعنا من النوم، عنوان رسالتي أننا نشتاق لأن ننام، وفعلاً هذا ما يحدث.

في هذه الزنازين نعتمد في أكلنا وشربنا على ما نملكه من مال يوضع لنا في الكنتينا، نشتري به ما يلزمنا من أغراض، لأن ما يأتينا من قبل الإدارة لا يكفي شيئاً، فهو أقل مما يحق لنا في القانون. كان تعامل إدارة السجن معنا غاية في السوء، بحيث لا يستجيبون لأي طلب إلا إذا قمنا بخطوات جماعية من أجل تحصيل أشياء، أو لتحسين ظروف المعيشة.

كان تجمّعنا في هذا القسم يخفّف عنا جداً، نتحدث، ونتناقش، وخصوصاً ليلاً عبر فتحات "فيسبوك" الخاصة بنا، نسمع الأخبار، ونأتي لنناقشها، ونحللها، وكل منا يدلي بدلوه، منا من يكتب الشعر، ومنا من يؤلّف الكتب، كنا نعتمد في القراءة على ما يأتينا من كتب من خلال الصليب الأحمر، أو من قبل الإدارة نفسها، فلقد كان في القسم ضابطة ومسؤول عن التعليم، وكل فترة توزع بعض الكتب، وجميعها روايات، كنا نتسلى بقراءتها، وتأخذ كثيراً من أوقاتنا، ونحن نتحدث فيما بيننا على ما قرأنا.

في أوقات برنامج الأسرى، وهو بريد التواصل مع الأهل من طرف واحد عبر المذياع، يكون هناك هدوء، كلٌّ يجلس بجانب المذياع يستمع لهذا البرنامج الذي مُدّته ساعة، لعل أهله يتحدثون فيسمعهم، ويسمع أخبارهم، وبعد انتهاء البرنامج يبدأ الحديث بيننا عن أخبار الأهل، وكانت هذه البرامج تساعدنا جداً في الصمود، لأننا نعيش من خلالها لحظات مع الأهل الذين حُرمنا منهم، وفينا متزوّجون ولهم أبناء. أما الطريقة الأخرى للتواصل مع الأهل فكانت من خلال زيارات المحامي، يأتي لنا بأخبار الأهل عبر رسائل مكتوبة نقرؤها هناك في غرفة الزيارة، ونرسل فوراً رداً عليها من خلاله. وكنا نرتب برنامجاً لزيارة المحامي، ونطلب من الجميع عدم الإطالة، لأن الوقت محدود، لذلك كنا نجعل أخانا أبا علي إبراهيم حامد يزور آخرنا، لأنه يأخذ وقتاً طويلاً، وينسى نفسه، ويرسل رسائل طويلة مع المحامي الذي يكتبها له.

من الأمور المزعجة جداً كثرة التفتيشات من خلال وحدة التفتيش التي كانت تقتحم علينا زنازيننا باستمرار محاولةً إرعابنا؛ وتقوم بتفتيشنا بشكل عارٍ، وتخرب الزنزانة، وتقلب أغراضنا وكأن قنبلة انفجرت بداخلها، ويستمر تفتيش الزنزانة ساعتين أو أكثر، نكون جالسين أمامها مقيدين من الخلف، نراقب ما يحدث دون أن نتدخل أو نتحدث. كنا نتغلب على صعوبة الحياة وقساوتها بالتفاعل فيما بيننا، نتحدث، ونتناقش، ونتبادل النكات، ونقرأ الشعر، ونتحدث عن أزكى الأكلات، ويسأل كل منا الآخر ماذا صنع! وكانت هذه الإدارة تمنع أن تأخذ من أي أحد أي شيء ليوصله للأخ الآخر، لذلك كانت كل زنزانة لها حياتها الخاصة في الأكل والشرب ومشتريات الكنتينا.

قصص حدثت معنا:

في هذا القسم كباقي الأقسام يوجد المجانين من اليهود والعرب الذين يحوّلون القسم إلى سوق أو مصحة، الكل ينادي، ومنهم من يشتم بأسوأ الألفاظ، وطبعاً ينالنا الكثير من هذه الشتائم التي تصدر عن أشخاص يعرفون من نحن ويعلمون أننا لا نستطيع الوصول إليهم؛ فيسبوننا، ويسبون أمهاتنا وأخواتنا، بل يسبون الذات الإلهية، وهذا قد يستمر على مدار اليوم، وعندما نحتج يقال لنا: هؤلاء مجانين! فنكون بين أمرين: إما أن نبادلهم بالسبّ، أو نسكت قهراً وعجزاً، وهذا ما يحدث.

في الوقت نفسه، يتواجد أسرى جنائيون يهود وعرب جيدون، نتعرف عليهم، ونساعدهم، ويساعدوننا، وهؤلاء يكونون نوعية خاصة من أصحاب المافيات، وهم أغنياء، وكل ما يهمهم أن نكون أمام الشرطة رجالاً، بغض النظر عمّن تكون، وهذا العامل المشترك بيننا، لذلك تحدث صداقات بيننا ونتحدث معهم على الرغم من اعتراض الشرطة المتكرر، بل إذا زادت الأمور عن الحد المعقول تقوم إدارة السجن بإجراء عملية نقل.

كان عندنا في القسم أسير جنائي يهودي من هؤلاء اسمه "قوسم"، وقد تصادقنا معه وكان في الكثير من المرات يتضامن معنا في الخطوات التي نتخذها ضدّ الإدارة، وعندما يطلبون منه عدم الحديث معنا يرفض، بل يأخذ بالسب على الشرطة. هؤلاء نجد البعض منهم في أقسام العزل، وهم أسماء معروفة في عالم المافيا اليهودي، هذا السجين قوسم كان يزوره أهله، وله ولد صغير يأتيه في الزيارة، ولأن الزيارة في القسم نفسه كان يطلب من ابنه أن ينادي علينا بأسمائنا، فيأخذ هذا الطفل بالمناداة، وخصوصاً على محمود عيسى يستسهل اسم عيسى، ونسمعه، ونحاول أن نتحدث معه، لكن بُعد المسافة لا تدعه يسمعنا.

هذه الأقسام في هذا السجن مليئة بالتناقضات مثل هذه العلاقات التي أتحدث عنها، لكنها تحدث لأننا نعيش المعاناة نفسها، والظروف نفسها، وأكيد تجمعنا مصالح واحدة في هذا القسم وهي تحسين أوضاعنا. وأيضاً أذكر شاباً سجيناً جنائياً عربياً اسمه رأفت هواس، وهو أسير من الداخل كان يعاوننا جداً، وعن طريقه كنا نتواصل مع الأهل باستمرار، ويتصل لنا مع أن ذلك سبب له كثيراً من المشاكل،

بل إنهم حاولوا الضغط عليه من أجل العمل معهم، ونقلِ أخبارنا إلى إدارة السجن، ووعدوه بتحسين ظروفه، أو تخفيف حكمه، لكنه رفض ذلك، وأخبرنا بما حدث معه. فهؤلاء الأسرى العرب من داخل أراضينا المحتلة نجدهم كثيراً في أقسام العزل، نتعرف عليهم، ونتصادق، ويساعدوننا، ونساعدهم بوضع أموال على حسابهم من أجل الكنتينا إن كانوا بحاجة لذلك.

في إحدى الفترات، وفي هذا القسم، أحضروا عندنا الشيخ رائد صلاح، ووضعوه في زنزانة بعيدة عنا، وكنا ونحن في طريقنا إلى الفورة أو للعيادة أو للمحامي ننادي عليه، ونسلم عليه، ولقد مكث في هذا القسم أشهراً لم نكن نسمع له صوت، وعلى ما يبدو كان مشغولاً في الكتابة أو القراءة.

في إحدى المرات، وفي زنزانة من الزنازين التي يتواجد بها بعض شبابنا الأسرى الأمنيين، وكانا اثنين من الشباب الجدد، وضعوهما معاً، ولكنهما لم يستطيعا الانسجام، ولكي يتم فصلهما عن بعض اتفقا معاً على افتعال مشكلة فيما بينهم، وقاما بحرق الزنزانة. في قسم كهذا مغلق شعرنا وكأننا نختنق، وقد دخلوا عليهما، وقاموا بضربهما، وبعد أن أطفأوا الحريق أرجعوهما إلى الزنزانة نفسها، وفرضوا عليهما عقاباً بسحب جميع أغراضهما. وكان هذا من أصعب ما يتعرض له أحدنا عندما يُفرض عليك شخص لا تستطيع الانسجام معه، ماذا تفعل، وكيف ستكون الحياة معه! لذلك إما أن تلجأ إلى مثل هذه الأمور، وقد تنجح مرات بالخروج من الزنزانة، ومرات تفشل، لذلك تحدث عمليات ضرب بين الإخوة مرات كثيرة، وهذا يستدعي دخول الشرطة عليهم، والاعتداء عليهم، وقد تبقيهم معاً قاصدة أن يحدث المزيد بينهم؛ كنا نتدخل مرات لتهدئة النفوس وإجراء صُلحة بين الأخوَين.

من الأمور المهمة التي نُحرم منها في هذا العزل خطبة الجمعة، فنحن لأعوام طويلة لا نصلي الجمعة، ولا يسمحون لنا بذلك، وقد اشتقنا لصلاة الجمعة، فاتفقنا في يوم الجمعة أن نؤخر الفورة بين زنزانتي وزنزانة أخونا أبو البراء محمود عيسى، وكان معه أبو همام محمد جمال النتشة يرافقه في الزنزانة نفسها قاصدين معاً أن نصلي الجمعة في الفورة، على الرغم من وجود جدار أو عازل بيننا، وكان الخطيب أبو همام، وفعلاً تمّ ذلك، وخرجنا وقت صلاة الجمعة، وضعوني أنا والأخ المتواجد

معي في فورة رقم 1، ووضعوا أبو البراء وأبو همام في فورة رقم 2، وهذه والحمد لله الخطوة الأولى. فكنا بجانب بعض في الفورة، ولكن لا نرى بعضنا، ولكن يسمع كل منا الآخر، وعندما دخل وقت الصلاة أذَّن أحدنا، وبدأ أبو همام يخطب بصوت عالٍ لكي نسمعه، ولكن لا نراه. وكنا قد طلبنا منه ألا يطيل لكيلا نلفت انتباه الإدارة، ولكنه أطال، وجاءت الإدارة، وأخبرناهم أنه يعطي درساً، وفعلاً تمكنّا لأول مرة من إقامة صلاة الجمعة، وكنا سعداء جداً بهذا الإنجاز.

كنا نعتمد في أكلنا وشربنا على أنفسنا أكثر من اعتمادنا على ما يأتينا من الإدارة، وكان لكل واحد منا رقم حساب يضع عليه مبلغاً من المال. وكنت أعدّ نفسي مسرفاً جداً، فقبل انتهاء الشهر يكون حسابي قد انتهى، لذلك كان يسعفني أخي أبو الهيجا وأبو البراء فيرسلان لي أغراضاً، وكنت أستقبل منهم هذه الأغراض، وأنا سعيد، ولم تكن تصل بسهولة. وكانوا دائماً يسألون عن حالي: "شو صار لك، خلّصت قروشاتك، يقطع شرك، ارحم حالك، صرت شارب خزان شوكو!"، فقد كنت أشتري أكياس شوكو بشكل كبير، كنت مدمناً عليه، وكانت أموالي تنتهي قبلهم من وراء هذا الشوكو، وهذا يوضح طبيعة الحياة التي كانت قائمة بيننا، والتي كانت تتجسد فيها الأخوّة بجميع أشكالها، في تفقّدنا لحاجات بعضنا، وفي وقوفنا مع بعضنا أمام الإدارة.

قبل انتقالنا من هذا القسم، وتوزيعنا على أقسام أخرى في سجون متفرقة، حدثت معنا قصة عجيبة شاهدة على همجية هذه الإدارة وحقارتها، والتي تسعى لخدمة مصالحها، ولو على حسابنا فهذا هو ديدنها في التعامل معنا، كنا نعيش في هذه السنة (سنة 2008) أخبار المفاوضات من أجل الإفراج عنا، وجميعنا ينتظر الأخبار الشحيحة التي تصلنا، وصعوبة المفاوضات، وإذا بهم يخبروننا وفجأة وبدون سابق إنذار بأننا سنخرج من العزل، وسنعود إلى الأقسام. فرحنا جداً، وكنا مندهشين، ومتشككين في الوقت نفسه، وكانوا قد أخبروا بعضنا بذلك، وهم أنا وأبو البراء محمود عيسى وأبو العبد أبو الهيجا وأبو همام محمد جمال النتشة وأبو إسلام صالح دار موسى، ونحن أقدم المعزولين. وكانوا جداً متعنّتين بخروجنا من العزل، المهم أن هذا ما حدث، وقد طلبوا منا ترك أغراضنا، وهم سيرسلونها لنا

فيما بعد، وطلبوا منا ألا نأخذ معنا إلا حقيبتين لكل شخص، وفعلاً هذا ما تمّ، وكان إبلاغهم لنا بالخروج من العزل ليلاً، على أن نكون في صباح اليوم التالي جاهزين. وفعلاً في الصباح أخرجونا ونحن بين الفرحة وعدم التصديق، وبعد التفتيش ركبنا البوسطة، وأخذونا إلى سجن هدريم، وقد وصلنا ظهراً؛ كنا طوال هذه الرحلة الشاقة غير مصدقين بأننا قد خرجنا من العزل بهذه البساطة، لأنهم كانوا يرفضون بشدة خروجنا، ومنا من كان قد جُدد له في العزل قبل أيام في المحكمة. لكننا عندما وصلنا على سجن هدريم أصبح الأمر حقيقة، وقد تجمّعنا في هذا السجن، ووصل أيضاً أخونا عبد الله البرغوثي من سجن آخر؛ بعدما أنهوا إجراءات التفتيش أخذونا إلى غرفة الانتظار، وقد رفضوا إدخالنا السجن، وهذا جعلنا نتشكك ولو قليلاً بهذه الخطوة، أخبرونا أن السبب في هذا التأخير هو ما يتعلق بالإجراءات، وستنتهي بسرعة، ولكنها طالت، وبقينا ننتظر حتى المساء، ولا نعلم ماذا سيحدث. ونحن هكذا فإذا بالأخ يحيى السنوار (أبو إبراهيم) يدخل علينا، وهو في ذاك الوقت أمير الهيئة في حركة حماس، فرحنا جداً بمشاهدته، فكنا مشتاقين له، وأخبرنا بحقيقة القصة، وأنه هو من طلب خروجنا من العزل لكي يتشاور معنا بخصوص صفقة التبادل التي كانت مفاوضاتها تجري في خارج السجن في هذا الوقت، وكان للأسرى دور في هذه المفاوضات. لذلك كان وسيط العدو في هذه الصفقة يزور السجن، ويلتقي مع السنوار من أجل إيجاد حلول لإتمام الصفقة، فوجدها السنوار فرصة ليطلب خروجنا من العزل من أجل التشاور، وهذا ما تمّ، وكان يجب إدخالنا داخل القسم عند الأسرى، ولكن الإدارة رفضت ذلك، فأصر الأسرى على إدخالنا، لذلك جاءنا السنوار يخبرنا، ومكث معنا عدة ساعات، وجميعنا ينتظر قرار إدخالنا الى السجن الذي جاء متأخراً. وفعلاً دخلنا بعد أن أغلقوا السجن، ودخل الأسرى إلى غرفهم، حتى لا نراهم، ولا تحدث ضجة عند دخولنا، وكان نصيبي الدخول في غرفة السنوار.

بالرغم من الشكوك التي داخلتنا كنا جداً فرحين بهذا اللقاء الذي جمعنا بالأخ يحيى السنوار، جلست عنده بالغرفة، وتحدثت عن كل شيء، عن العزل وصعوبته وبقائنا كل هذه الأعوام الطويلة، وسمعت منه تأكيدات أن الصفقة على الأبواب، وهو يسعى بكل جهده لتحصيل بعض الأمور، لذلك ضغطوا عليهم لكي يخرجونا

من العزل من باب التخفيف علينا ولو قليلاً، ولا يوجد ضمانات بعدم رجوعنا للعزل، وحتى ولو أرجعونا فالفرج قريب بإذن الله. كنت سعيداً جداً بهذا اللقاء، وهذا الحديث، وقد تعرفت على باقي الإخوة عنده في الغرفة، وتناولنا وجبة العشاء معاً، وفي الصباح خرجنا للساحة، والتقينا مع جميع الإخوة، وسلمنا على الجميع. وبعدها جلسنا في اجتماع تشاوري ضمّنا جميعاً مع أبي إبراهيم والإخوة في التنظيم، وفي أثناء الاجتماع طلبت إدارة السجن منا الخروج فوراً وبسرعة، وكان هذا أمراً متوقعاً، فقد كانوا يريدون سماع حديث يتوافق مع ما يريدون، هكذا توقعوا، وكان العكس، فقد كان موقفنا واضحاً، دعماً لإخواننا المفاوضين والإصرار على تنفيذ شروطهم، لذلك سرّعوا بإخراجنا، وفعلاً هذا ما تمّ. وقد خرجنا من عند الإخوة بعد أن ودّعناهم، وتمّ إرجاعنا إلى العزل الذي خرجنا منه، وللزنازين نفسها، وكانت باقي أغراضنا ما زالت هناك، وهذا أكبر دليل على سوء نيتهم، فهذا الوجه الحقيقي لهذه الإدارة، ولهذا العدو الساعي لمصلحته، ومن أجلها تُخترق القوانين، وما كان ممنوعاً يصبح مسموحاً فوراً بدون محكمة، وما حدث معنا شاهد على ذلك.

عادت حياتنا لطبيعتها من جديد كأن شيئاً لم يحدث، وعادت أحاديثنا المعتادة؛ بعد فترة من هذه الحادثة أقدمت إدارة السجن على تفريقنا من هذا القسم، لذلك تمّ نقل الكثير من الإخوة إلى عزل آخر في سجون أخرى، وكان نصيبي الانتقال إلى أسوأ عزل في ذاك الوقت: عزل سجن عسقلان، وكان يرافقني إلى هذا العزل الأخ أبو إسلام صالح دار موسى أحد قادة حماس في الضفة الغربية، وهو من رام الله ومحكوم بالسجن المؤبد عدة مرات، وهو معتقل منذ انتفاضة الأقصى (الانتفاضة الثانية).

وبذلك نكون قد خرجنا من عزل أيالون، وسأعود إلى هذا العزل من جديد بعد عدة أعوام، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد، ولكن بحَسَن جديد وقصة جديدة. التقيت وقتها بالأخ القائد إبراهيم حامد، وكالعادة عندما عدنا نتحدث قال عبارته الجميلة بعدما سمع قصتي وما حدث معي خلال هذه الفترة التي خرجنا فيها من عزل أيالون، ثم عدنا مرة ثانية، والتقينا قال: لقد شاهدت حسن جديد "حسن قبل غفران، وحسن بعد غفران" مختلفان جداً في أمور كثيرة، من تكون غُفران هذه! سأتحدث عنها عندما نصل إلى ذلك التاريخ، أما الآن فحديثنا سيكون عن عزل عسقلان السيء جداً.

عزل عسقلان:

كانت هذه المرة الثانية التي أعود بها إلى عزل عسقلان، فقد حدثتكم عن هذا العزل السيء في أثناء حديثي عن العزل في المرة الأولى، لذلك لم يكن هناك شيء غريب أو جديد أو مفاجئ؛ كانت الإجراءات نفسها، والمعاملة السيئة نفسها، لم يتغير شيء في هذا العزل، ولم يحدث فيه أي تجديد، الزنازين نفسها التي كانت على حالها، التغيير الوحيد هو أنك أصبحت صاحب خبرة في إدارة أمورك، أو في طريقة تعاملك مع هذه الإدارة التي تعرفك جيداً. والتغيير الثاني هو أن الأسرى الذين حولك أو معك هم أسماء جديدة وأشخاص جدد.

كان معي في هذه المرة الأخ صالح دار موسى، خرجنا معاً من عزل أيالون Ayalon إلى عزل عسقلان، وضعونا في زنزانة في آخر القسم، لها فتحات تهوية أو شُباك، إن جاز التعبير، على جهة الفورة، وبذلك تستطيع الحديث مع الخارجين إلى الفورة دون أن تتمكن من مشاهدتهم جيداً. هذه الزنازين من ضيقها لا تتسع إلا لشخص واحد يعيش فيها، لا يستطيع التحرك بداخلها، فكيف عندما نكون اثنان، ومعنا بعض الأغراض! تصبح الحياة بداخلها لا تطاق، تبقى جالساً طوال الوقت وكلّ شيء فيها مغلق. كان يتواجد معنا في هذا العزل الأخ وليد خالد، وكنت سعيداً بالالتقاء به من جديد، ولكنني لم أستطع حتى أن أسلم عليه، فقط كنت أستطيع الحديث معه عند خروجي للفورة أو خروجه إلى الفورة من خلال فتحات الشباك الصغير التابع للزنزانة، كنت جداً مشتاقاً له، وللحديث معه، ولمعرفة أخباره، ولسماع أشعاره الجميلة، فهو من الشعراء الموهوبين؛ حدثني عن بعض أخبار السجون، فقد كان قبل قدومه للعزل يتواجد في سجن هدريم مع باقي الأسرى. وكان الأخ وليد خالد محكوم إداري، ومع ذلك وضعوه في العزل قاصدين عزله عن الأسرى، لاعتقادهم بدوره المؤثر، وهو فعلاً من قيادات حركة حماس في الخارج وفي السجون. وكان أيضاً يتواجد معنا في القسم الأخ الأسير عبد الله البرغوثي، وكل منا كان في زنزانة بعيد عن الآخر، وكانت فرصتنا فقط للحديث عندما يخرج أحدنا إلى الفورة نستطيع الحديث مع الآخرين من خلال فتحات الشباك دون أن يرى أحدنا الآخر.

قضينا في هذا العزل أشهراً بعيدين عن أيّ حياة؛ نعيش في ظلّ واقعنا الذي كُتب لنا أن نعيش فيه صابرين محتسبين الأجر من الله، نواجه صلف هذه الإدارة وقوانينها العنصرية بما نملك من إيمان وإرادة قوية نستمدّها من قوة إيماننا بعدالة قضيتنا، ومع ذلك كانت حياتنا في هذا القسم سيئة جداً؛ رطوبة عالية تجعلنا داخلَ الزنازين وكأننا في بحر من العرق الذي لا يتوقف، تدخل الحمام لكي يبرد جسمك فيحدث العكس، وكأنك في حمام بخار، تجلس على الأرض لتحصل ولو على قليل من البرودة، تعيش في مساحة ضيقة، مغلق حولك كل شيء: لا مجرى للهواء، ومروحة لا تساعد في شيء، لأنها تحرك الهواء الساخن الموجود في الزنزانة، تتمنى لو كنت وحيداً حتى تتعرى، يصبح رفيقك في هذه الزنزانة أكبر المشاكل. ومع ذلك ترفض أن تُظهر الضعف أمام هذه الإدارة، وتتحمل ما لا يستطيع تحمله بشر، حتى لا يشمت بك عدوك، أو يشعر أنه قد انتصر عليك. لم يكن أمامنا للخروج من هذا الجحيم الدنيوي إلا القيام بخطوات احتجاجية، منها جزء قانوني لرفع شكاوى إلى المحاكم، ومنها الإضراب عن الطعام وإرجاع وجبات. وأخيراً وبعد أشهر تمّ نقلنا من هذا القسم إلى عزل جديد في سجن جديد، وكانت وجهتنا الجديدة سجن ريمون وعزل ريمون.

عزل ريمون:

كانت هذه المرة الأولى التي ندخل فيها هذا السجن وهذا العزل، كان هذا العزل حديثاً، فقد تمّ إنشاؤه جديداً، كان هذا القسم عبارة عن ثلاثة أقسام: قسمين للعزل، وقسم زنازين للعقوبة؛ وكل قسم من هذه الأقسام يحتوي على خمس زنازين، كانت هذه الزنازين واسعة، وبها شباك كبير، وقد تمّ إنشاؤه بهذه الطريقة استجابة للشكاوى التي قدّمها الأسرى اليهود الجنائيون. فقد تواجد في تلك الفترة عدد من الأسرى من أصحاب العصابات الكبيرة، وهؤلاء أصحاب نفوذ كبير، ولهم محامون معروفون، وتمّ وضعهم في أقسام العزل التي تحدثنا عنها، ولكنهم لم يستطيعوا العيش فجنّدوا محاميهم، واستخدموا نفوذهم من أجل الاحتجاج على هذه الأقسام. وبعد أشهر من المحاكم تمت الاستجابة لهم، وتمّ إنشاء هذا القسم الجديد، والبدء في تحسين الأقسام السابقة، وتوسيع زنازينها، وبذلك استفدنا نحن الأسرى الأمنيين من هذه الإجراءات التي تمت فعلاً.

كان هذا العزل مختلفاً، ولكنه كان بالقوانين نفسها التي تعوّدنا عليها، وبالمعاملة السيئة نفسها التي فرضوها علينا، كان بجانبنا في هذا العزل الأخ الأسير الذي أُفرج عنه في صفقة وفاء الأحرار جهاد يغمور من القدس، وكان له في العزل أشهر، وكانت هذه فرصتنا للحديث معه، ولمعرفة أخبار السجون وأخبار صفقة التبادل التي كانت في ذلك الوقت تجري كمفاوضات، والكل ينتظر ويترقب ماذا سيحدث. بعد شهر من وجودنا في هذا العزل تمّ إخراج الأخ الأسير صالح دار موسى من العزل، وبذلك بقيت لوحدي في الزنزانة، وبعدها تمّ نقل الأخ جهاد يغمور ولم يبقَ في القسم إلا أنا وحولي أسرى جنائيون يهود وعرب على قضايا مخدرات وقضايا اغتصاب، ومع ذلك كنا نتبادل معهم أطراف الحديث، وكان بعضهم لا يتوقف عن الصراخ والسب طوال اليوم من أجل الحصول على سيجارة، فكان لا ينام، ولا يجعلنا ننام، وبعضهم يكون عنصرياً يأخذ بالسب والشتم علينا من كل أنواع المسبات والشتائم.

خلال وجودي في هذا العزل الذي استمر لمدة ستة أشهر، جاء الكثير وذهب الكثير، ومن الإخوة الأسرى الأمنيين الذين جاؤوا خلال هذه الفترة كعقاب الأخ أبو عبيدة عيد مصلح، والأخ مهاوش نعيمات، ومعه الأخ عطوة العمور، وكان قد اعتُقل جديداً على إثر عملية أسر الجندي شاليط، وقد تمّ إرسالهم إلى العزل فور خروجهم من التحقيق، وكان وجودهم يخفف علينا الحياة، تجد من تتحدث معه ولو عبر الشباك. كنت في هذا العزل أعيش حياتي وفق برنامج، فكنت أحرص على الخروج للرياضة كل صباح، وهي الساعة الوحيدة التي يسمح لي أن أخرج فيها. وكانت سياستهم في هذا العزل التشديد عليّ شخصياً، فقد كانوا يصرون على تقييدي من الخلف عبر فتحة الباب الصغيرة، ويستخدمون قيوداً ثلاثية بحيث يكون هناك سلسلة حديد تربط ما بين قيود الأيدي وقيود الأرجل، وهذا كان من الصعوبة بمكان. طلبت أن يتم تقييدي من الأمام فرفضوا، لذلك قررت حرمان نفسي من ساعة الفورة، والبقاء في الزنزانة طوال الوقت حتى حلّ هذه المشكلة. وبعد شهر من عدم خروجي إلى الفورة جاء مدير السجن، وعلى الرغم من سمعته السيئة عند الأمنيين، واسمه "بوردا"، والكل يعرفه، تحدثت معه عن ذلك، وأن ما يحدث معي غير قانوني، فوافق على أن يتم تقييدي من الأمام لحل الإشكالية، وفعلاً هذا ما تمّ.

كنت في تلك الفترة أمارس الرياضة داخل الزنزانة التي كانت تتسع لذلك، وخصوصاً أنها فارغة؛ فأغراضي المسموح البقاء بها معي قليلة جداً. طبعاً بعد الرياضة عندي برنامج قراءة على حسب المتوفر لديّ من الكتب، وبرنامج العبادة من صلوات وتسبيح واستغفار كزاد روحي يساعد أحدنا على الصمود في ظلّ هذه الأوضاع. كنت أتابع الأخبار وبرنامج الأسرى ورسائل الأهالي من خلال الراديو، وأتابع المسلسلات والأفلام من خلال التلفاز، وطبعاً المشي لساعات داخل الزنزانة في مساحة لا تتجاوز الثلاثة أمتار تعوّدت عليها، وأصبحت ماهراً في المشي وفق هذه المسافات القصيرة دون أن أفقد توازني، طبعاً حياتي في الزنزانة مستباحة من قِبل الإدارة يأتون في أي وقت للتفتيش وفحص الشبابيك ليلاً ونهاراً، وفي كل وقت، يعني كنت خلال اليوم الواحد يتم تقييدي بالقيود الثلاثية أكثر من خمس مرات، ولو للحظات، ممنوع فتح باب الزنزانة من دون أن يتم تقييدي من الخلف، وبعدها أصبح من الأمام.

قد أستوعب تقييد الأيدي لكن تقييد الأرجل للحظات لمجرد فتح الباب فهذا أكبر دليل على مدى كره هؤلاء المعتدين لنا، وحقدهم علينا، ومحاولة النيل منا في أيّ لحظة، وفي كل وقت، وفي كل حين. لذلك، فإن مواجهة هذا المحتل تحتاج منا أن نكون نؤمن إيماناً راسخاً بعدالة قضيتنا، وأن هذا المحتل المتمثل بهذه الإدارة القمعية بإذن الله إلى زوال، وأن ما يقوم به من ممارسات عنصرية في العزل هي جزء من كلّ ما يتعرض له أبناء شعبنا، إذ هي معركة مستمرة معه في مكان آخر وأساليب أخرى؛ تَشعر بمدى حقده وكرهه حتى لنفسه لأنك تكون على احتكاك مباشر معه، في كل شيء، في محاولة لكسرك، لتحطيمك، للنيل منك، وأنت الآن إما أن تضعف أمامه، وهو لن يرحمك، بل سيزيد من قهره لك، وإما أن تبقى صامداً تضحك في وجهه لكي تغيظه، ولكي يشعر أمامك أنه فاشل، بل صغير أمام صمودك الذي هو أساس صمود شعبك؛ يشعر أنك على حق، وجذورك راسخة في هذه الأرض، وهو على باطل، وليس له جذور، منفوش أو منفوخ سيطير حتماً عندما تبدأ الرياح بالهبوب، وفعلاً هذا ما كان يحدث، تشعر بنتائج صمودك في تغيير سلوكه أمامك كاعتراف بالهزيمة. لذلك هذه الحياة تحتاج لهذا الفهم العميق الذي عندما لم يكن موجوداً عند كثير من إخواننا الذين تعرضوا

لهذا العزل وجدناهم قد انهاروا نفسياً، وضعفوا، وكانت فرصة لهذه الإدارة للنيل منهم، وتحطيمهم فقط من أجل النشوة (سادية المحتل).

تصوروا معي عندما تعيش في محيط غير محيطك، مع أناس ليس لك علاقة بهم، ولا ينتمون لك، ولا لثقافتك، ينالون منك طوال الوقت، بالسب عليك وعلى أهلك وأمك وأخواتك بأقذر أنواع المسبات التي لا تطاق، وأنت العزيز الحر الأبيّ، كيف سيكون وقع ذلك على نفسك! في الخارج قد تحدث مجزرة من أجل مسبة صغيرة، والآن أنت محصور في زنزانة مغلقة يستهدفك الجميع بكل أنواع المسبّات، تغلي من الداخل، وقد تُبادلهم المسبات بعض المرات، لكنك لا تستطيع مجاراتهم، الآن إما أن تموت غيظاً وقهراً، وتؤذي نفسك؛ أو أن تتجلد، وتتظاهر بأنك لم تسمع! آهٍ ما أصعب ذلك على الحُر! وهذا يتكرر باستمرار في كل وقت، وفي كل عزل تذهب إليه، تجدهم ينتظرونك تحت اسم أنهم مجانين، لا نستطيع السيطرة عليهم! هكذا تقول إدارة السجون. والأصعب من ذلك، والأكثر إيلاماً عندما يكون بجانبك أو في القسم أحد إخوانك الأسرى الأمنيين الذي تعرفه، ولكنه أصبح مريضاً محطّماً بفعل ما تعرض له، وأصبح يهذي، ويحدث نفسه، ويتحدث خارج الدائرة، ويصرخ، ويسب، ويحطم كل شيء، تسمعه يئنّ، تحاول مساعدته، تنادي عليه، يكون جوابه بمسبات وألفاظ يوجهها إليك وعلى أهلك، تحاول معه، وفجأة يأخذ بالبكاء والنحيب والصراخ، تموت ألف مرة، ماذا تفعل! بل قل: ماذا تستطيع أن تفعل له! قصص كثيرة عشناها مع هؤلاء الإخوة المساكين، سنحدثكم عن بعضها، وقد حدثتكم عن بعضها، وما زال هناك أشياء، كما هي قصة الأسير المريض الأخ منصور الشحاتيت الذي حطّمته هذه السياسة القمعية، وكان العلاج له أن يبقى في زنازين العزل تحت رحمة السجان الذي يأتي كل يوم ليستهزئ به، ويضحك منه، وينال من هذا المريض. أيّ بشر هؤلاء، ومن أين أتوا! بل قل: من أي شيء صُنعوا!

نعود إلى كتاب الله نقرأ عنهم، وعن فسادهم وإفسادهم، وكفرهم بكل شيء، هنا تعرف حقيقتهم، وتتعرف جيداً على نفسية هؤلاء، الذين تخلّص منهم العالم فرماهم عندنا ليحقق من وراء إنشاء دولة لهم أهدافه الاستعمارية، والسيطرة على خيرات وطاقات هذه المنطقة. وفعلاً هذا ما حدث، وهذا هو أساس وجود هؤلاء بعيداً عن

الدّين، ومزاعمهم المكذوبة بوطنٍ قد وعدهم الربّ به. وستكون نهاية مشروعهم هنا على أيدينا المتوضّئة بإذنه تعالى، وهذا ما نحن على يقين منه طال الزمن أم قصر.

بعد عدة أشهر من هذا العزل تمّ نقلي مجدداً إلى عزل آخر، وكانت الوجهة هذه المرة الرجوع من جديد إلى عزل السبع سيء السمعة.

عزل السبع من جديد (عزل إيشل):

كان ذلك في سنة 2009، وفي هذه السنة تنقلت بين سجون كثيرة، وهذا كان نوع من أنواع التعذيب للأسير، لكيلا يشعر بالاستقرار، وتبقى حياته مضطربة، فما أن يصل إلى سجن، ويضع أغراضه، ويبدأ بالتأقلم وفق برنامج معين، حتى يتم نقله إلى عزل جديد وسجن جديد، وهذا ما حدث معي خلال هذه السنة التي تنقلت خلالها إلى أكثر من عزل، كانت أولها الانتقال إلى عزل ريمون مع الشيخ صالح دار موسى، وبعد خروجه من العزل تمّ نقلي إلى هذا العزل بئر السبع (إيشل) الذي عشت فيه سابقاً خمسة أعوام. في هذا العزل لم يتغير شيء، كما تركته، حتى إن بعض السجناء الجنائيين ما زالوا متواجدين فيه كما تركتهم، لم يكن يوجد في هذا الوقت أي سجين أمني، كنت لوحدي السجين الأمني في هذا القسم، وفي هذه الفترة مكثت شهرين تقريباً بالظروف السيئة نفسها، تعرفت حينها على باقي المعتقلين الجنائيين منهم يهود ومنهم عرب. ومن القصص التي حدثت معي في هذه الفترة: كان في الزنزانة التي أمامي سجين يهودي من بخارى، كنت أتحدث معه باستمرار، وعندما كان يأتي وقت الأذان كنت أرفع الأذان بصوتي غير الجميل، ولأن الأذان الذي كنت أرفعه يكون فيه نوع من أنواع المد، فعندما انتهيت من الأذان وإذا بهذا اليهودي ينادي علي، ويقول لي: "شو هذا الأذان، إنتَ بتتسلبَط على الله!"، قالها لي بالعبرية، فقلت له: لماذا؟ فأخبرني أن الأذان في بخارى لا يكون بهذه الصورة، وأخذ يؤذن بصوت عالٍ، وبالعربية الثقيلة.

بعد شهرين، تمّ نقلي إلى عزل هوليكدار في منطقة السبع نفسها، وهو يشبه عزل إيشل، لكن إدارة جديدة، وكنت في هذا العزل أيضاً لوحدي، ومن حولي سجناء جنائيون يهود، وخلال شهر من وصولي إلى هذا العزل الجديد وصل إلى القسم الأخ مهاوش القاضي، ومعه الأخ عطوة العمور، وقد حدثتكم عنهما؛ كان هذا العزل

مسرحاً للفئران الكبيرة، في الليل تبدأ تشاهدها وهي تجري داخل القسم، وتطارد فرائسها، وبعضها يتجمع حول الشباك، لذلك تحاول حماية نفسك بإغلاق أسفل الباب، وإغلاق النافذة، ووضع قنينة ماء داخل فتحة الحمام حتى لا تجد نفسك وقد غزتك الفئران داخل الزنزانة، ومع كل هذه الإجراءات كثيراً ما كنت أستيقظ، وأجدها تسرح وتمرح داخل الزنزانة.

وبعد شهرين من وجودي في هذا العزل، تمّ نقلي مرة أخرى إلى عزل ريمون، وفي هذه المرة كان يتواجد في العزل في القسم الثاني الأخ مهند شريم، وكان وجوده عقاباً له من قبل إدارة السجن على محاولته إدخال أجهزة خليوية؛ استطعت التحدث معه من خلال الفورة، فقد كان لكل قسم فورة، وبينهما جدار عال جداً نستطيع الحديث مع بعض بصوت عالٍ، وقد سألته عن أوضاع الأسرى فأخبرني عن موضوع الجامعة، وأن الأسرى يدرسون الآن بجهودهم الشخصية، وبالتنسيق مع الجامعات الفلسطينية، استفسرت منه حول الأمر، وكم كنت متلهفاً لأن أكمل دراستي في الجامعة، لذلك عزمت بمجرد خروجي من العزل، إن خرجت، أن أدرس في الجامعة، وهذا ما تمّ بفضل الله. طمأنني حول موضوع الصفقة، وأن الأمور تسير بشكل جيد، وأن الفرج قريب، وبعد أيام خرج مهند من العزل إلى الأقسام، وتمّ نقلي إلى القسم الآخر، أيضاً قسم عزل.

ومن الأشياء المضحكة التي حدثت أنه عندما كنت في القسم الأول كنت أصلي للقبلة التي كانت باتجاه الشباك، وعندما انتقلت إلى القسم الثاني إلى الجهة المعاكسة بقيت أصلي إلى جهة الشباك دون أن أدري أن الاتجاه قد تغيّر، وكان عندي في القسم الأخ عيد مصلح أيضاً كان في العزل كعقاب، وهو صديق من غزة، وكنت سعيداً وأنا أتحدث معه، وفي إحدى المرات وهو خارج إلى الفورة مرّ بجانب زنزانتي فوجدني أصلي باتجاه الشباك، فعندما عاد سألني لماذا تصلي عكس القبلة، وقتها تنبّهت أن القسم هذا اتجاهه يختلف، وكنت أصلي عكس القبلة لأكثر من أسبوع، فأخبرته، وكانت من الأشياء المضحكة المبكية، أتمنى من الله أن يتقبل صلاتي.

بعد أيام أيضاً، خرج الأخ عيد مصلح (أبو عبيدة) إلى الأقسام، ولم يتبقّ عندي أحد سوى الجنائيين في هذه الفترة، وبعد أيام أيضاً أحضروا سجيناً أمنياً آخر اسمه

إياد أبو حسنة، وهذا السجين مصري فلسطيني من سكان رفح المصرية، وقد حدثت معه ظروف في داخل السجن، ومشاكل أثّرت على نفسيته، وهو السجين الأمني الشهم المثقف، وهكذا لكل حصان كبوة؛ ما حدث معه من مشاكل عادية بسبب عصبيته أثّرت على نفسيته، فتم وضعه في العزل من قبل الإدارة التي كانت تعدّه خطيراً، وعنده استعداد للاعتداء عليهم. زاد وضعه في العزل سوءاً، بحيث قام في إحدى المرات بحرق أفراد الصليب الأحمر الذين جاؤوا لزيارته في الزنزانة، فقد سكب عليهم الماء الساخن، ولولا لطف الله لحرقهم. أحضروه بجانبي، وأنا الذي أعرفه، وعشت معه عندما خرجت من العزل الأول في نفحة، وإذا به الآن بجانبي شخص آخر مريض، لا يتحدث، حاولت أن أساعده، وتمكّنت من شراء أغراض له، ولكنه بقي بجانبي دون أن يتحدث معي، كنت جداً حزيناً عليه وعلى ما وصل إليه حاله. وبعد فترة تركته على حاله، وتمّ نقلي من جديد إلى عزل عسقلان سيء السمعة؛ وها أنا أعود إلى عزل عسقلان الذي غادرته قبل 7 أشهر من هذه السنة 2009، وكانت هذه النقلية الخامسة أو السادسة أو السابعة... لا أدري بالضبط خلال هذا العام أو خلال هذه الأشهر!

العودة إلى عزل عسقلان كان صعباً جداً على نفسي، وخصوصاً وأنا أشعر أن هذه الإدارة تستهدفني بهذه التنقلات، محاولة تعذيبي، والنيل مني، وكنت أشعر أنني لوحدي تستفرد بي هذه الإدارة، وتفعل بي ما تشاء. وكانت في هذه الفترة أوضاع السجون غاية في السوء، والجميع يترقب الفرج وإنجاز الصفقة، لذلك لا يوجد أحد عنده استعداد لخوض إضراب من أجل إخراجي أنا وإخواني من العزل. وكانت تصلنا أخبار السجون عندما نلتقي بإخوة موجودين في العزل كعقاب لهم يحدثوننا عن سوء الأوضاع، وانشغال الجميع عنا، واهتمامهم فقط بموضوع الصفقة. لا أخفيكم أن هذا الوضع كان له أثر سلبي على نفسي، فأنا كأي شخص يتمنى العيش مع الناس وخصوصاً أن شخصيتي اجتماعية، ولكن ما الحل!! لا حلّ إلا الصبر والتوكل على الله، وتحمّل ما يحدث حتى يجعل الله لنا مخرجاً. وكنت على يقين بالله أنني سأكون ممن يُفرج عنهم قريباً، وهذا الأمر كان يعطيني نوعاً من التفاؤل، كنت ألجأ إلى الله، وأدعوه كي يخفف عني، ويصبرني، فقد كانت علاقتي معه جيدة، هكذا أظن، فأنا في وضع في أمسّ الحاجة أن أكون بقربه حتى أستمد منه القوة

النفسية التي كنت أجدها في الصلاة؛ وكما تركت هذا العزل عدت له، ولم أجد به تغييراً سوى أنه ازداد سوءاً.

بعد وصولي بأيام، واستيعابي من جديد لعودتي لهذا العزل، وتدبر أموري وترتيب حالي، ولخبرتي في هذا العزل، بدأت أبحث وأسأل حتى أعرف من يتواجد في هذا القسم. ميزة هذا القسم أنك قد تتحدث مع شخص لفترة طويلة دون أن تراه، تتعرف على صوته، ولكن لا تستطيع رؤية شكل وجهه بسبب الإجراءات الأمنية المتبعة في هذا القسم، كل شيء مغلق، حتى الفتحة الصغيرة تُغلق ولا يتم فتحها إلا لكي يتأكد الشرطي أنك على قيد الحياة، أو إذا أراد إبلاغك بشيء ما، وفتحها وإغلاقها باستمرار هذا وحده له قصة كبيرة وطويلة كانت السبب في كتابتي رسالتي من زنزانة 9 التي خرجت إلى الإعلام، وقد تحدثت عن ذلك، وبما تفعله بنا هذه الفتحة التي كان إغلاقها وفتحها يمنعني من النوم، وسيكون نص الرسالة مرفقة في نهاية هذا الكتاب. (انظر ملحق رقم 2)

كان يتواجد في هذا القسم الأخ هشام الشرباتي من الخليل، وقد كان معنا في عزل أيالون، وأعرفه، ويعرفني جيداً، وكان أيضاً يتواجد في هذا العزل الأمين العام للجبهة الشعبية أحمد سعدات (أبو غسان)، وقد تعرّفت عليه، وتحدّثت معه من خلال الفورة التي كنت أخرج إليها يومياً صباحاً لممارسة الرياضة. وكنت أتحدّث معه ولا أراه، وهو كذلك، ففتحات الشباك خلفها صاج حديدي تمنع الرؤية عن أي أحد، تحدثت معه في أشياء كثيرة، وفي جميع الأمور، وخصوصاً الشأن الفلسطيني، وكذلك مع هشام، وكان وجودهم يسليني، ويطمئنني. وبعد أيام، حضر إلى العزل الأخ أبو العبد أبو الهيجا الشيخ جمال، ومعه الأخ أحمد المغربي. وخلال شهر من وجودي في هذا القسم وضعوني أنا والأخ هشام الشرباتي معاً، وبالرغم من تفاهمي الشديد مع الأخ هشام لكن وجود اثنين في زنازين هذا العزل معاً يعدّ عذاباً بسبب سوء الوضع وضيق الزنزانة وشدة الحرارة، وقد حدثتكم عن ذلك. أجبرتنا الإدارة على العيش معاً، فما كان منا إلا أن بدأنا بخطوات احتجاجية وقانونية تمّ على إثرها نقلي أنا والأخ هشام إلى عزل هوليكدار في السبع، وكان هذا أفضل ما حدث لنا، فلم أمكث في عزل عسقلان سوى شهر ونصف.

في عزل هوليكدار، لم يكن هناك أحد أمني سوانا أنا والأخ هشام، قضينا فيه شهر رمضان، وكان هذا العزل أفضل قليلاً من عزل عسقلان، وزنازينه أوسع قليلاً، وقد كان لي معرفة جيدة في هذا العزل، لأنني وفي بداية اعتقالي عندما كنت أخرج إلى المحاكم كانوا يضعونني في هذا القسم حتى أبقى معزولاً، فكنت أمكث فيه لأيام انتظاراً لوقت المحكمة، وكان جميع الشرطة هناك يعرفونني، وخصوصاً ضابط الأمن، وفي هذه المرة جاءني ليراني، وإذا به أصبح مديراً للسجن، فعندما رآني سلّم علي، وهو يضحك، ويقول لي: "شو صار لك قد شابت لحيتك!"، فقلت له: هذا أمر طبيعي! وكان قاصداً ذلك. على الرغم من العداوة التي بيننا وبينهم تحْدُث معهم جلسات نتحدث فيها عن كل شيء؛ حديثَ الأعداء الذين يحترمون بعضهم، نسمع منهم، ويسمعون منا، وتكون طريقة الحديث لها علاقة بطبيعة الشخص الذي أمامك إن كان يظهر عنصريته، أو كان يخفيها.

بعد فترة من وجودي في هذا العزل، جاء عندنا الأخ مهاوش القاضي وعطوة العمور، وبوجودهما أصبح هناك من تستطيع أن تنادي عليه، وتتحدث معه سواء في الزنزانة نفسها أم عند الخروج إلى الفورة. وبعد أشهر قليلة لا تتجاوز الثلاثة، تمّ نقلي وحدي من هذا العزل إلى عزل ريمون، وبذلك تكون هذه المرة الثانية التي أعود بها إلى عزل ريمون.

عندما وصلت إلى القسم بعد رحلة طويلة، وكنا قد دخلنا في بداية سنة 2010 أخبرني ضابط القسم أنه سيتم وضعي مع سجين آخر في الزنزانة نفسها. وطبعاً فإن وضعك مع سجين آخر يتم غصباً عنك، لا يتم أخذ رأيك في ذلك، بل يفرض هذا الأمر عليك، وتجد نفسك بين أمرين: إما أن ترفض، وبذلك يتم استخدام القوة لإدخالك، أو أن توافق، وتحاول بعد ذلك القيام بخطوات كالإضراب للخروج من عند هذا الشخص الذي وُضعت عنده؛ وكثير من مشاكل العزل كان هذا الأمر هو سببها، لأنه يتم وضعك مع شخص لا يناسبك أو لا تنسجم معه، فتصبح الحياة بينكما جحيماً، وتدخل في مشاكل قد تصل إلى الضرب بينكما، وكثيراً ما حدث ذلك، وهذا ما تسعى إليه هذه الإدارة الفاشية، وعندما يحدث ذلك يدخلون عليكم بعتادهم، وينهالون عليكم ضرباً، ولذلك تحتاج إلى قوة كبيرة وإرادة عالية حتى تستطيع تغيير شريكك في الزنزانة. المهم، أخبروني أنه سيتم وضعي مع الرفيق أبو غسان الأمين

العام للجبهة الشعبية فوافقت، ولم يكن لديّ اعتراض، وخصوصاً أنني تعرفت عليه جيداً عندما كنت في عزل عسقلان، وقد تحدثنا كثيراً، ولكن دون أن يرى أحدنا الآخر.

فعلاً وصلت إلى القسم، وفتحوا باب الزنزانة، ودخلت، وكانت المفاجأة أنه لا يعرفني، وهذا ما لم أتوقعه، لذلك شعرت أنه يرفض دخولي، وهذا حقه لأنه لا يريد أن يدخل عنده أي شخص. عندما سلمت عليه كان جافاً، وكنت مستغرباً من ذلك، ثم عرّفته على نفسي وقلت له إنني حسن سلامة فلم يصدّق، وعندما تأكّد رحب بي بحرارة، واعتذر لأنه لا يعرفني، ووافق على دخولي، وقد سردت هذه القصة سابقاً، وها أنا أسردها هنا مرة أخرى بالتفصيل حتى أوضح كم هذا العزل صعب وغريب! فقد تحدثنا لأشهر في عزل عسقلان، ولكن دون أن يرى أحدنا الآخر، وها أنا عندما جئت لأدخل عنده لم يعرفني، وهذا ما يحدث مع جميع المعزولين، وهذا أكبر دليل على صعوبة القوانين المفروضة علينا في هذا العزل، بحيث لا يرى أحدنا الآخر حتى ولو كان جاره في الزنزانة، وهذا لا يحدث إلا في أقسام التحقيق؛ وحتى في أقسام التحقيق تستطيع أحياناً أن تنظر في وجه جارك في الزنزانة، ولكن في هذا العزل العنصري الذي ليس فيه قوانين لا تستطيع أن تشاهد من هو جارك، فأيّ عنصرية وأيّ حقد يحمله هؤلاء تجاهنا، ويفرضون علينا قوانين لم تفرض عليهم حتى في أسوأ حالاتهم عندما كانوا في أقسام كبوتسات الإبادة المزعومة، والتي ملأوا الدنيا بها صراخاً وعويلاً لكي يستعطفوا العالم! وها هم الآن يمارسون علينا أسوأ من ذلك، بعيداً عن أنظار العالم الظالم. الآن وفي هذا العزل، ومع شريك زنزانتي الجديدة، ستبدأ حكاية جديدة وأحداث جديدة، منها ما هو ممتع، ومنها ما هو مأساوي جداً.

عزل ريمون للمرة الثانية:

الآن نحن في بداية سنة 2010، وما زلنا نترقب حدوث صفقة للإفراج عن الأسرى، وكانت تصلني باستمرار سواء من خلال الأسرى الذين ألتقي بهم، أم من خلال زيارات المحامين أنه لن تحدث صفقة بدون أن أكون فيها، وهذا كلام أكيد. لذا كنت مطمئناً، وكان هذا الأمر يخفف عني صعوبة العزل، ويجعلني أتغلب على كلّ ما أتعرض له، وخصوصاً الحرمان الكامل من زيارة الأهل أو معرفة أخبارهم إلا نادراً. لذلك كانت متابعة الراديو وبرنامج الأسرى أمراً أساسيّاً عندنا، ننتظره بفارغ

الصبر حتى نسمع صوت الأهل، ونطمئن عليهم، وكم كان هذا البرنامج عزيزاً علينا، نجلس، نسمع له بكل شوق.

الآن أصبح لي في العزل بشكل مستمر بحدود سبعة أعوام متواصلة، مرّت عليّ ظروف صعبة ومؤلمة، وكانت حياتي قاسية جداً؛ حتى على مستواي الشخصي كنت مجبراً أن أكون دائم الاستعداد لأيّ طارئ، متوقعاً أن يحدث معي أي شيء سيء، فأنا لا أملك ما أدافع به عن نفسي سوى قوة إيماني وإرادتي، أمام إدارة قمعية حاقدة تستهدفني باستمرار، ومتوقع منها كل شيء، حتى إنني كنت باستمرار مستعداً لأسوأ الاحتمالات أن يتم قتلي في هذه الزنازين بأيّ طريقة، وطرقهم كثيرة. تصوروا معي أن تعيش أعواماً، وأنت تحت هذا التهديد، وكل شيء يحدث معك يشعرك أنك قريب من ذلك، لذلك كنت أحرص أن تكون علاقتي مع الله قوية، ألجأ إليه دائماً، أشكو إليه ضعفي وتعبي وحزني وألمي، طالباً منه أن يحميني من شرهم، وهو وحده القادر على ذلك. وكنت والله أشعر بحفظه وحمايته من حولي، فهو الذي صبّرني على كل هذه الظروف، وهذا أكبر زادٍ يحتاجه أحدنا في مثل هذه الظروف، بدونه أنت ضعيف جداً أمام ما يملكونه من مكر وخديعة ولؤم وعتاد وعدة. مع ذلك كنت أجدني عندما تحدث مشكلة أصرخ، وأعربد، وأهدد، وكأنني أملك جيشاً كاملاً، وهذا كان سبباً من الأسباب التي جعلتهم يحاولون كسري بكل الطرق، ولكن أنّى لهم ذلك مع رجال زادُهم إيمانٌ بالله، يصل درجة التمني أن ينالوا الشهادة في أي لحظة، لذلك لم يكن يخيفني كل مكرهم، ولم تكن حياتي تساوي عندي شيئاً أمام كرامتي وعزة نفسي. وهذا هو حالي وحال جميع إخواني المعزولين أمثال محمود عيسى شيخ المعزولين، والصديق العزيز ورفيق العزل الأخ أبو الهيجا، وأحمد المغربي وعبد الله البرغوثي وأبو غسان والآخرين.

حياتي هذه المرة كانت تختلف، فأنا ولأول مرة في هذا العزل سأعيش مع رفيق كأبي غسان له توجهات تختلف عن توجهاتي، وخصوصاً أمور أساسية في الحياة وهي الدِّين والإيمان بالله، وهذا شيء أساسي عندي، ومع ذلك كانت تجربتي في الحياة مع الرفيق أبو غسان جداً مميزة، فهو رجل وطني بامتياز، ويملك من الأدب والاحترام والثقافة والفهم ما يجعلك تتوافق معه، وهذا ما حدث. كانت حياتي معه أكثر من رائعة، لم أختلف معه إلا في أشياء بسيطة جداً لها علاقة بأنني كنت أرفض

أن يعمل شيئاً في الزنزانة سواء أكل أم تنظيف لكبر سنه، ولكنه كان يرفض، ويصر على أن يشارك، ويغضب مني عندما أمنعه، وهذا ما كان يسبب لي إحراجاً أمام نفسي. كان يدخن، ومع ذلك راعاني جداً، وقلَّل من التدخين، وهو وجدها فرصة لكي يتخلص منه، وحتى زوجته أم غسان تمدحني لأنه قلَّل من التدخين. كنا نتحدث في كل شيء، نتناقش، نتفق، نختلف، ونخرج إلى الفورة معاً، ونأكل معاً، وكان هو خبيراً في صنع المتبل (سلطة الباذنجان) أو قلاية البندورة.

ومن المواقف الجميلة التي حدثت معي والتي لا أنساها غلاية القهوة التي أراد أن يعملها، وكانت تغلي وتفور على الأرض عدة مرات، بحيث إنني غسلت الأرض في غلاية واحدة أكثر من ثلاث مرات، وبعدها طلبت منه بأسلوب الضحك: "دخيلك يا أبو غسان لا أريد قهوة اليوم!". كنا نتساعد في كلّ شيء، فقد كان يأتي لزيارته المحامي، فأُرسل معه ما أريد، وهو كذلك كانت الحياة معه رائعة، لم أشعر بأيّ ضيق أو أيّ عائق بخصوص عبادتي، فقد كان يوفر لي كل الأجواء المناسبة من أجل ذلك، وحتى التلفاز كان من المحافظين جداً، وأمام الإدارة كان صلباً جداً، لم يستطيعوا أن ينالوا منه. كنت في داخلي أتمنى له الهداية، وما زلتُ وما زالت الذكريات بيننا جميلة نتحدث بها عندما نلتقي في السجون بعدما خرجنا من العزل، في هذه الفترة لم يكن في قسم العزل أسرى أمنيون سوانا، وفي القسم الثاني كان يتواجد عبد الله البرغوثي، وكان يوجد سجناء آخرون جنائيون عرب ويهود.

أستطيع أن أقول إننا بما كنا نملكه من فهم ووعي مكّننا من أن نعيش معاً حياة جيدة على الرغم مما بها من صعوبات، وعلى الرغم مما نحمله من معتقدات مختلفة، ولكننا أبناء وطن واحد، وأصحاب قضية واحدة، وعدونا واحد، وهذا يكفي لأن يجعل همنا واحداً، ويجعلنا نستطيع التغلب على مشاكل الحياة. في هذه الفترة سمحوا لي بالذهاب لزيارة أخي أكرم الذي كان في السجن، ومحكوم بـ 30 عاماً، ولكنه قضى أعوام اعتقاله في مستشفى الرملة، وأصبح هناك بشكل دائم ممثلاً للأسرى، وكان وضعه لا يسمح له الخروج من المستشفى بسبب ما حدث معه في التحقيق وأدى إلى تهتك في خلايا المثانة وانفجارها. طبعاً كنت مقطوعاً عنه نهائياً، وغير مسموح لي بزيارته والالتقاء معه، ومن خلال محامي استطعت أخيراً الحصول على موافقة للذهاب إلى زيارته.

الفصل الثالث

العزل بطعم الحب

العزل بطعم الحب

اخترت هذا العنوان لأن ما حدث معي في هذه الفترة ليس له معنى إلا هذا العنوان، لأنه أغرب شيء، وآخر ما كنت أتوقع حدوثه، وأنا الذي كنت أعيش في أصعب الظروف، مستوعباً ما يحدث معي لأنني أعلم جيداً أهمية ما قمت به، وآذاهم! لذلك كنت نفسياً مرتاحاً، وفي الوقت نفسه مستوعباً ما يحدث معي، أو ما قد يحدث معي، أصبحت هذه حياتي أتعامل معهم بالندية، وهم يحاولون النيل مني وكسري، وأنا أحاول الصمود، بل وإغاظتهم كنوع من أنواع المقاومة التي أستطيعها، ولو كنت أستطيع فعل أكثر من ذلك ما قصّرت. ومن أسباب وجودي بالعزل، هو أنني باشرت عملاً جهاديّاً من داخل السجن، وتواصلت مع الأخ أبو خالد الضيف، واستجبت لرسالته التي أرسلها لي يطلب وصله مع المجاهدين في الضفة الغربية، وفعلاً قمت بذلك، وعملت اللازم، وأوصلته مع الكثير حتى إنني فتحت له خطّاً مع مجموعة من الجولان المحتل، والحمد لله لم يتمكنوا من أخذ أي كلمة مني.

وهذا الكشف هو أول مرة أتحدث به، وهم يعرفون ذلك الآن لكنهم وقتها لم يستطيعوا نزع اعتراف مني، وما زلت أعيش بهذه النفسية المقاوِمة التي تبحث عن أيّ طريقة من أجل مواصلة عملي الجهادي لدرجة إغاظتهم. كنت أراه طريقتي الجديدة للمقاومة والانتصار عليهم، منتظراً أن يأتي الله بالفرج القريب حتى أعود إلى ساحات الوغى جنديّاً مجاهداً لمواصلة جهادي حتى ألقى الله، وأنا على ذلك، وهذا ما أخبرتهم به في لقاء حدث معي بعد خروجي بأعوام من العزل الانفرادي في سنة 2018 في التحقيق. فقد أخذوني إلى التحقيق على إثر إمساكهم بـ"ذاكرة" بها صور للأسرى كنا نريد إخراجها مع أحد المفرج عنهم، وعلى ما يبدو أنهم اشتبهوا به، فأخذوه إلى التحقيق فساموه سوء العذاب، فاعترف، فأخذوني إلى التحقيق.

وهناك كانت فرصة للجلوس، والحديث حول ما تملكه حماس الآن من جنود، في أجواء أقرب إلى أجواء العائلة في هذه اللقاءات، ونحن نتحدث، وكان حولي كل ضباط الشاباك، وعلى رأسهم مسؤول قسم غزة تحدثنا عن السنوار، وكم يرونه كارثة لهم، وكم هم مهتمون به، وبشخصيته، ويرون أنفسهم أخطأوا بالإفراج عنه، سألوني

حول ما تملكه حماس، وادّعوا أن ما تملكه حماس عبارة عن جثث، وإلا لمَ حتى الآن لم تعلن عن شيء، ولم تُظهر شيئاً! أخبرتهم أن هذه المعلومة أكيد لا يملكَها أحد سوى الأشخاص أصحاب الشأن، وأكيد أنني لا أملك معلومة كهذه، ولكنني أعتقد جازماً أن حماس تملك أحياء، هذا ما صرّحت به بشكل واضح، وأنكم قد تعاملتم مع السنوار سابقاً، وأنتم تعرفون عقليته، فهو لا يريد أن يعطيكم فرصة لأن تساوموا، أو تناوروا، أو تعترضوا على أي اسم، لدرجة أنه سيدفّعكم أثماناً باهظة من أجل معلومة، فكيف بالصفقة! سألوني: هل أنت متفائل بالفرج؟ قلت لهم: أكيد وأنا على يقين من ذلك، ولن يتكرر ما حدث في الصفقة الأولى! ولكن لي نصيحة لكم! قالوا: ماذا؟ قلت لهم: أنصحكم أن تسعوا بكل ما تستطيعون، وأن تستخدموا نفوذكم لكيلا يتم الإفراج عني، استغربوا بشكل كبير بحيث كان ذلك ظاهراً على وجوههم. قلت لهم: أولاً أنا سأخرج ليس بموافقتكم، وهذا أكيد، يعني خروجي إن تمّ سيكون رغماً عنكم وفقاً للصفقة التي ستحدث، ولكن والله إن خرجت لأجعلنّ الدنيا عليكم جهنّما، وكأن على رؤوسهم الطير. وتحدثنا عن عنصريتهم، وما فعلوه بنا كأسرى، وعن أعوام العزل بحيث لم يتركوا لنا باباً إلا أن نتصرف معهم بهذه الطريقة، وكانت كل يوم خلال هذا التحقيق تحدث معنا لقاءات نتحدث عن هذه الأوضاع، وقد شاهدت عبر مقاطع الفيديو كم هي الأضرار التي لحقت بهم بسبب البلالين الحارقة، وكم هذا الأمر مزعج لهم جداً بحيث لا يستطيعون إيجاد حلّ له.

نعود لموضوع العزل والحبّ، ما قصدته أن حياتي هكذا كانت مبرمجة من قِبَلي، أعرف وضعي جيداً، ومتوافق في حياتي مع هذا الوضع الصعب، أما ما حدث معي فلم يكن في البال، ولم يكن في داخل حساباتي، ولكنه القدر الذي كتب لي ذلك، وكان ما حدث هو رحمة من الله أدخلها في حياتي، حتى تزيدني قوة في هذا العزل، فقد كان تواصلنا مع السجون ومع الخارج من خلال المحامين الذين يُسمح لهم مرات بزيارتنا، ومرات لا يُسمح لهم. كان في هذه الفترة المسؤول عنا في داخل السجون، أو الذي يتابع ملفنا وأخبارنا كمعزولين الأخت أحلام التميمي التي انتُخبت في الهيئة القيادية العليا لأسرى حركة حماس في السجون عن الأخوات، وكان وقتها رئيس الهيئة في السجون الأخ يحيى السنوار، وقد تمّ تكليف أحلام التميمي بمتابعة ملفنا من خلال المحامين، وكان هذا طلبها، والأخت أحلام كانت في تلك الفترة مخطوبة

لابن عمها المسجون والمحكوم بالمؤبدات، وهو من أسرى فتح، واسمه نزار التميمي، وقصَّتهم معروفة، وقد أُفرج عنهم في صفقة وفاء الأحرار، ويعيشون في الأردن،* ونتمنى لهم الخير، وأن يرزقهم الله الذرية الصالحة، إنه على ذلك لقدير.

الأخت أحلام قبل اعتقالها كانت تعمل كصحفية، وكانت تتابع أخبارنا، وكثيراً ما كتبت تقارير عنا، والآن هي معتقلة لانتمائها إلى كتائب القسام، وأصبحت مسؤولة عن ملفنا، لذلك كانت تصلنا رسائلها من خلال المحامين، وهي غير مُصدِّقة أنها تتحدث مع هؤلاء الناس الذين كانت تسمع عنهم، وتكتب تقارير صحفية عن بطولاتهم، لذلك كانت على استعداد لأن تخدمنا باستمرار، وترسل لنا أخبار الأهل من خلال المحامين، وقد تعوّدنا على رسائلها المليئة بالمدح.

وفي يوم من أيام هذا العزل، في سنة 2010، وكالعادة جاءت لزيارتي المحامية الأخت الفاضلة المناضلة شيرين العيساوي، وهي من أشهر المحاميات المعروفات عند الأسرى لِما قدمته من خدمات ومساعدات لنا أدى إلى اعتقالها عدة مرات، فهي من بيت مناضل، وجميع إخوانها مناضلون ومعتقلون وينتمون للجبهة الديموقراطية، جاءت لزيارتي كالعادة، وإذا بها تحمل رسالة من أحلام التميمي، ولكن هذه الرسالة هذه المرة تتحدث عن موضوع آخر، فبعد التحية والسلامات والمدح تتمنى عليّ أحلام أن أعدّها كأختي، وأن أسمح لها بأن تشارك في اختيار شريكة حياتي، لأن أمثالي يجب أن يكون ارتباطه غير تقليدي كما حدث معها ومع ابن عمها نزار. حتى هذه اللحظة الأمر طبيعي، وخصوصاً أننا في أيام مفاوضات، والحديث عن إنجاز صفقة قريباً، فأرسلت لها رسالة أشكرها، وأؤكد لها أنها أختي وأعزّ، وهي تاج على رؤوسنا، وبإذن الله إن فرّج الله كربنا، يمكنك أن تقومي بما تريدين، ليس عندي مانع، بل يشرفني ذلك. وهكذا رأيتُ أن الموضوع قد انتهى، ولم أكن أعلم أن هناك قصة وراء هذه الرسالة، أو كما يقال: "طبخة تطبخ"، فأنا كنت "غايب طوشة" عن أي شيء.

انتهت الزيارة وأرسلت ردي البسيط، وبكل بساطة، ورجعت إلى زنزانتي، ومضت الأيام وبعد فترة من هذه الزيارة تمّ نقلي أنا والرفيق أبو غسان إلى

* تمّ إبعاد الأسير المحرّر نزار التميمي من الأردن سنة 2020.

عزل بئر السبع (إيشل)، وكان كما هو سيئاً، وزنازينه سيئة، ولم يكن يتواجد أي سجين أمني غيرنا. وقتها مكثنا في هذا العزل أسبوعين، وبعدها نقلونا إلى عزل هوليكدار بمنطقة بئر السبع نفسها، لأنه سيتم تصليح السجن، وفعلاً دخلنا سجن هوليكدار الذي أعرفه، ولكن هذه المرة كانت الزنازين أوسع، فقد أجروا إصلاحاً داخل الزنازين، وجمعوا كل ثلاث زنازين في زنزانتين، وبذلك أصبحت الزنزانة أوسع قليلاً، وأصبح لها حمام ودورة، ومنفصلان ولهما باب، وأصبحت أفضل من السابق قليلاً وأوسع أيضاً، ولم يكن في هذا العزل سجناء أمنيّون إلا أنا والرفيق أبو غسان. كانت حياتنا عادية لا جديد فيها، وكانت لنا علاقة مع السجناء الجنائيين نتحدث معهم، ونساعدهم بالدخان الذي نضعه لهم في ساحة الفورة، وعند خروجهم لها يأخذونه، وكان في هذا العزل السجين الذي تحدثت عنه سابقاً (ف. خ.) الذي كان كثير السبّ علينا، لكن هذه المرة كان أهدأ، ساعدناه بقدر ما نستطيع بالدخان، وأغراض الكنتينا حتى نرتاح من مسباته. ولكن العزل هو العزل بقوانينه السيئة، والصراخ المتواصل من قِبل الأسرى الجنائيين، وطَرقهم على الأبواب من أجل الحصول على سيجارة، وكان باستمرار ينالنا الكثير من المسبات، وهذا أصبح أمراً عاديّاً، ومع الفترة تعوّدنا عليه، بحيث أصبحنا نسمع مسبّات علينا، ونتجاهل كأننا لم نسمع، لأننا لا نستطيع مجاراتهم في ذلك، وهذا أفضل.

في هذه الفترة جاء لزيارتي المحامي محمد عابدين، خرجت لزيارته كالمعتاد، وبعد السلام والترحاب وإذا به يحمل رسالة خاصة من الأخت أحلام التميمي، وكان يضحك لمعرفته ما بداخل الرسالة، ووضَعها أمامي، وبدأتُ أقرأ، وكانت من أكثر المفاجآت في حياتي. فقد كانت الأخت أحلام تحدثني عن فتاة اسمها غفران زامل عندها في السجن وصلت منذ فترة محكومة عشر شهور، والإفراج عنها خلال شهرين أو ثلاثة، هذه الفتاة معتقلة بتهمة العمل الإعلامي مع حركة حماس في الضفة الغربية، وتحدّثني عن مواصفات هذه الفتاة وعمرها وعن كل شيء عنها، والأهم من ذلك أن هذه الفتاة قد وهبت نفسها من أجل الارتباط بي، وهي متعلقة بي منذ زمن، وتتابع أخباري، وعلى استعداد للارتباط بي، وهي تعرف كلّ أوضاعي وظروفي، ومع ذلك تُصرّ على الارتباط بي، وكتبت عبارة: "قد وهَبت نفسَها من أجلكَ". وقد اختارتها أحلام شريكة لي، وترى فيها جدارة لذلك، وهي مناسبة، وأمثالي يجب أن يكون ارتباطهم غير تقليدي، لأن حياتهم غير تقليدية، وتطلب مني

أن أرسل لها رسالة مع المحامي، وتضع ملاحظة: "إياك أن تخاطبها كما تخاطبني بأختي"، لأنني كنت أرد على رسائل أحلام بأختي الفاضلة.

كان هذا أغرب عرض قد وصلني، فقد كان أمراً غير متوقع ولم أكن أفكر به نهائياً، وعلى الرغم من تأثري برسالة أحلام، وكانت صاحبة قلم بليغ في رسائلها، وجدت نفسي في "حيص وبيص"، "ملخوم"، ماذا أفعل، كيف أتصرف! خرجت من صمتي الذي استمر لحظات، وأمليت على المحامي رسالتي إلى أحلام أرفض ما تَعْرِضه، بسبب وضعي وظروفي الصعبة جداً التي لا يناسبها هذا الارتباط، حرصاً على الفتاة، ولكيلا أظلمها. فقد كنت متزوجاً قبل اعتقالي لمدة أسبوع، وبعد الاعتقال وحدوث ما حدث انفصلت عن زوجتي السابقة حرصاً عليها، ولكيلا تُظلم معي، فكيف لي أن أكرر الأمر ثانية! وهذا مستحيل، وكتبت لغفران رسالة أشيد بها، وأقدّر تضحياتها، وأنني لو كنت في وضع طبيعي فلن أفكر دقيقة، وسأرتبط بها فوراً، ولكن وضعي لا يسمح، متمنياً لها التوفيق والنجاح في حياتها. هذا كان ردّي، وسلمت على المحامي، وعدت إلى زنزانتي شاردَ الذهن سارحاً مفكراً فيما يحدث، وقد لاحظ الرفيق أبو غسان عليّ ذلك، ولكنني لم أخبره بما حدث، وانتهى الموضوع بالنسبة لي، وأغلقتُ الصفحة، وعُدنا لحياتنا وروتينها القاتل في هذا العزل؛ نتحدث، نتابع التلفاز، وكلّ يوم صباحاً أخرج إلى الفورة، أمارس الرياضة لمدة ساعة، ونعود إلى الزنزانة التي نبقى فيها ثلاثاً وعشرين ساعة متواصلة جالسين بدون حراك، فهذا قدرنا، والحمد لله على ذلك، وننتظر فرج الله.

ولكن بعد أسبوعين جاء لزيارتي محام آخر، ولم تكن هذه العادة، فأنا كنت كلّ شهر أو شهرين يأتي لزيارتي محام، والآن الأمور تغيّرت، خرجتُ للزيارة، وكانت هذه المرة المحامية وفاء من القدس، وهي تعرفني جيداً، وكانت تحمل رسالة طويلة. والمفاجأة أن الرسالة هذه المرة كانت من غفران نفسها، تتحدث معي بشكل واعٍ عن دور المرأة، وأن قرارها هذا قرار مدروس، وليس قراراً عاطفياً أو متسرعاً، وأنّ هذه حياتها، وأنها قد اختارت أن تعيش معي، وكلام كثير حول ذلك. كنت في داخلي وأنا أقرأ رسالتها سعيداً جداً بهذه الفتاة التي اهتمت بحالي، وبحثت عني، وفي الوقت نفسه عقلي لا يطاوعني، كان موقفي صعباً، لذلك كتبت لها أننا الآن على أبواب صفقة، وبإذن الله سيكون الفرج، وإن كتب الله لي الفرج فسأرتبط بك، وهذا شرف لي،

ويكفيني هذه الروح، وهذا الاستعداد للتضحية من قِبلك. ويعلم الله أن رسالتها كان لها أكبر التأثير على نفسي؛ هذه المرة وجدت نفسي أتعامل مع الموضوع بشكل جدّي، وبدأت أفكر فيه. لذلك عندما جاء الصليب هذه الفترة لزيارتي كتبت رسالة إلى الأهل في غزة أحدّثهم عن هذه الفتاة التي لم أرَها وأعرف عنها كل شيء من خلال رسالة أحلام، وأخبرتهم بقراري الارتباط بها في حال أفرج عني. لذلك طلبت من والدتي أن تحاول رؤيتها، وأن تتواصل معها، وأعطيتهم موعد الإفراج عنها، وطلبت من الأهل أن يبقى الأمر في طيّ الكتمان. طبعاً الأهل عندما وصلتهم رسالتي استهجنوا ذلك، وفي لقاء للوالدة تحدثت عن هذا الأمر، وكيف كانت ردة فعلها عندما وصلتها رسالتي، فلقد عدّتني مجنوناً، وأن العزل قد أثّر على عقلي، أو أنني مضحوك عليّ، وأن هذه الفتاة جاسوسة من قِبل اليهود، وقد حضرت هذا اللقاء بعد خروجي من العزل وكان مُضحكاً جداً. لم أستطع أن أتحدث مع أحد في الأمر، أو لم أجد عندي أحداً أحدثه، أو أسمع رأيه، لذلك بقي الأمر في داخلي في هذه الفترة.

وصل عندنا الأخ جمال أبو الهيجا (أبو العبد)، ومعه الرفيق عاهد أبو غلمة (أبو قيس)، وكانوا معاً وحمدت الله على الأمر، ورأيتُ أن الله يرتّب لي ذلك، ولكن في اليوم نفسه لوصولهم أخبرتني الإدارة أنني منقول إلى عزل ريمون لوحدي، ورتّبت معه أن يوكل الأمر لأم العبد زوجته لكي تسأل عن الفتاة، وعن أهلها وعن كل شيء، وطلبت رأيه. وأعطيت الرسالة للرفيق أبو غسان لكي يعطيها له غداً في الفورة، وذلك في وضعها في مكان في الفورة، وعندما يخرج أبو العبد أبو الهيجا يأخذها. وفي الصباح، غادرتُ وسلمتّ على الرفيق أبو غسان، وكانت آخر كلماتي له قصة إسلام سيدنا خالد بن الوليد والعبارة التي أرسلها له أخوه والتي كان يقولها الرسول ﷺ "ليس مثل خالد من يجهل الإسلام"، وقلت للرفيق أبو غسان: ليس مثلك من يجهل الإسلام، وودّعته ومن بعيد سلّمت على أبو الهيجا، وعلى عاهد، وغادرت راجعاً مرة ثالثة إلى عزل ريمون.

إلى عزل ريمون من جديد:

ما زلنا في بداية سنة 2010، وقد كانت هذه السنة مليئة بالأحداث، وخصوصاً هذا الحدث الذي حدثتكم عنه. وضعوني في زنزانة في قسم العزل بعدما فتشوا كل شيء كالعادة، وخصوصاً جسدي، وصادروا كل أغراضي التي بدأتُ أستغني عنها

حتى يخف حملي في أثناء التنقلات، وخصوصاً أنني غير مستفيد من هذه الأغراض، فهم لا يسمحون إلا بالقليل القليل من الملابس والكتب وباقي الأغراض. هذه المرة وجدت عندي في القسم الأخ القائد عباس السيد (أبو عبد الله)، وكان له فترة في العزل معاقباً، وكنت سعيداً بالحديث معه، ومعرفة أخباره وأخبار الصفقة، وقد أخبرني أن في القسم الثاني من العزل الأخ يحيى السنوار (أبو إبراهيم) ففرحت جداً، فلقد كنت مشتاقاً له جداً. خرجت للفورة، وبالصدفة كان هو أيضاً في الفورة الثانية، يفصلنا جدار عالٍ، لكننا نستطيع الحديث، تحدثنا عن كلّ شيء، وحدثته عن العزل، وسألته لماذا حتى الآن لم تقوموا بخطوات من أجل إخراجنا، وحدّثني عن وضع الأسرى، وعدم اتفاقهم على القيام بإضراب كبير، لأن إخراجنا من العزل لا يمكن أن يتم من دون ذلك، فهم يرفضون إخراجنا من العزل نهائياً، أقصد الإدارة، لذلك لا بدّ من خطوات كبيرة، لكن الجميع مشغول في أخبار صفقة التبادل، والتي أكَّد لي أنها قريبة، والتي لا يمكن أن تتم بدون الإفراج عني، وعن جميع المعزولين، وهذا كلام أكيد. حدثته عن قصتي مع غفران، وما حدث معي، وكيف جرت الأمور، وكان رأيه عدم الاستعجال، والتروي والانتظار بعد الإفراج، وكان هذا الحديث الأول والأخير، فقد أخرجوه من العزل، وعاد الى الأقسام، كان عنده في قسم العزل أيضاً الأخ عبد الله البرغوثي، وكنت أتحدث معه في الفورة وقت خروجه إليها، وهذا التوافق يتم بالصدفة، غير مرتب.

بعد أيام معدودة من وصولي إلى ريمون جاء مرة أخرى الرفيق أبو غسان، وتمّ وضعه عندي في الزنزانة، وعدنا من جديد نعيش معاً، وأخبرني أنه أعطى الرسالة لأبو العبد أبو الهيجا، وبعد أسبوع من مجيء أبو غسان جاء الرفيق عاهد أبو غلمة، ومعه الأخ محمد جمال النتشة (أبو همام)، ووضعوهما معاً، وكانت زنزانتهما بجانب زنزانتنا، وهذا مكّننا من الحديث معهم باستمرار؛ كان هذا التجمع الذي يحدث كل فترة يخفف علينا صعوبة الحياة، ويقوينا أمام الإدارة، وكانت خطواتنا موحّدة، واحتجاجاتنا أيضاً مضبوطة، وكانت أيضاً علاقتنا بالمعتقلين جيدة. فقد كان عندنا سجين جنائي يهودي لا يهدأ، دائم الصراخ والسب والشتم، ولا يسمح لنا بالحديث فيما بيننا، طلبنا من الإدارة إخراجه من بيننا، لكنهم رفضوا ذلك، ولم يكن أمامنا سوى الصبر عليه، وخصوصاً أننا لا نستطيع الإمساك به، فكل منا في زنزانة مغلقة، وكل إجراءات الإدارة قائمة على عدم وصولنا لبعض.

استمرت حياتنا كالمعتاد، وبقيت محتفظاً بموضوع غفران، لا يعلم به أحد من حولي. وفي إحدى الأيام أخبرني الرفيق عاهد أنه استمع لبرنامج الأسرى الذي يأتي على إذاعة أمواج، وقد تمّ الإفراج عن الأسيرة غفران زامل، وقد تحدثتْ عن الأسرى والأسيرات، وأرسلت سلاماتها للجميع، وخصتني بالذكر أنا وأخي أكرم. وقد كان خبراً عادياً، فدائماً يحدث مثل ذلك ولا غرابة به، ولكن بعد أيام من هذا الخبر الذي أخبرني به الرفيق عاهد على مسمع الجميع، ونحن نستمع لبرنامج الأسرى كالمعتاد، والذي يسمعه الجميع، تحدّثت الوالدة، وأرسلت لي سلاماتها، وإذا بها توجه السلام للأسيرة المفرج عنها غفران، وكانت قد حضرت مقابلة معها على قناة الأقصى بعد الإفراج عنها، وأعجبت بها وبحديثها، لذلك أخذت تشكر بها، وتدعو لها. وكان هذا ملفتاً، وقد شعر جميع المعزولين أن هناك شيئاً، وبدأت الأسئلة والاستفسارات، ووجدتُ نفسي وقد حدثتهم بما حدث بالتفصيل، واستمعوا جميعهم لقولي وطلبت منهم الاستشارة، وكان الجميع مع الأمر ما دام هي موافقة ومقتنعة، وهذا سهّل عليّ الأمر، وساعدني في المضي بالموضوع. ورأيتُ أن كلام الوالدة على الإذاعة موافقة من قبلها، ولكن مع ذلك لم أجد طريقة للتقدم، وخصوصاً أنني لا أعرف ماذا فعل أبو الهيجا، ولم يصلني منه شيء، وكنت قد استخرت الله في ذلك، وإذا بهم يخبرونني أنني خارج إلى محكمة خاصة في تل أبيب، وكان الأمر غريباً جداً: لماذا، وما السبب! وفعلاً خرجتُ للمحكمة.

محكمة الولايات المتحدة الأمريكية:

نحن المعزولون عندما نخرج إلى المحاكم يتم أخذنا لوحدنا، يضعوننا في زنازين قد أعدوها لنا داخل البوسطة، حتى لا يرانا أحد، ولا نرى أحداً، وفعلاً هذا ما تمّ؛ وضعوني في البوسطة في مكان العزل، ومن ثقوب الزنزانة كنت أشاهد باقي الأسرى وهم يصعدون إلى البوسطة. وبعد صعود الجميع بقيت البوسطة واقفة فترة طويلة، وهذا مكنني من المناداة على الأسرى المتواجدين في البوسطة مع بعضهم، وقد سمعوني وقد أخبرتهم باسمي فعرفوني، وأخبروني أن معهم الأسير والصديق عايد دودوين (أبو حمزة)، وهو أخو الأسير المفرج عنه في صفقة وفاء الأحرار، وعضو المكتب السياسي لحركة حماس ومسؤول ملف الأسرى الأخ موسى دودين (أبو محمد). وكان أبو حمزة صديقاً قديماً التقيت به أيام اعتقالي الأول، عندما كان معتقلاً إدارياً قبل هذا الاعتقال، وأعرف أنه رجل فاضل ومحترم، وفعلاً وبعد

السلامات عليه، ومعرفة أخباره، حدَّثته بموضوع غفران، وطلبت منه تولي الأمر، والتواصل معها، والتأكد من قصدها، وأن يتفاهم معها، وأن يعمل بأن يصلها مع الأهل حتى تتعرف عليهم، وفعلاً أخبرني أن الأمر عنده، وسيقوم باللازم، ورأيتُ أن ما حدَث توفيقٌ من الله.

وفعلاً أخذوني إلى المحكمة التي أدخلها لأول مرة، وضعوني في زنازين المحكمة، وإذا بأبناء قضيتي بجانبي: وهم أكرم القواسمي، وهو ما زال في السجن، وأيمن الرازم، وقد أُفرج عنه في صفقة وفاء الأحرار، وجميعهم لا يعرف لماذا أحضرونا. بعد فترة قصيرة طلبوني، وأخذوني إلى المحكمة، وإذا بي أمام محامين يمثّلون مكاتب في أمريكا، وهم مكلَّفون من قِبل بعض العائلات الأمريكية، والتي قُتل أبناؤها في العمليات الاستشهادية، وهم يهود ولكن يحملون جنسيات أمريكية وجواز سفر أمريكي، مكلَّفون برفع قضية، ومحاكمتي، وكانت في المحكمة قاضية يهودية افتتحت الجلسة، وبعدها سلّمت الأمر للمحكمة الأمريكية، وخرجَتْ. وكانت هذه المحكمة موصولة مباشرة مع قاعة المحكمة في أمريكا عن طريق الفيديو كونفرنس (نظام مؤتمرات الفيديو) Video Conference، وبدأت محاكمتي، وكانت تتواجد مترجمة.

وكان قبل هذا الأمر، في بداية اعتقالي، عندما كنت في العزلة الأولى، استدعوني للتحقيق، ووجدتُ هناك محققين تابعين لمكتب التحقيقات الفيدرالي (أف بي آي) Federal Bureau of Investigation (FBI) الأمريكي، وقد أجروا تحقيقاً معي، واتهموني بقتل أمريكان كانوا في الحافلات التي فُجّرت، وأن الأهالي هناك لا يطالبون بتعويض، بل يطلبون إحضاري إلى أمريكا، ومحاكمتي في إحدى الولايات، وتطبيق حكم الإعدام بالكرسي الكهربائي على حسب قانون تلك الولاية، والآن ما يحدث معي تكميل لهذا الدور. وسبقه عندما كنت في بداية هذا العزل سنة 2003 في عزل شطة، تمّ تقديم طلب من قبل سيناتور أمريكي من خلال وزارة العدل في أمريكا إلى وزارة العدل في دولة الكيان يطلبون تسليمي لهم، ليتم إعدامي هناك، وهذه المحكمة كانت من أجل تثبيت ذلك، وأخبروني أنهم وفي أي وقت يستطيعون إحضاري إلى أمريكا، يوجد بحقي حكم جاهز بالإعدام بالكرسي الكهربائي.

هذا ما تمّ نشره في الصحف التي أحضروها إليّ في عزل شطة حتى أرى الخبر، على الرغم من أنهم كانوا يمنعون عني كلّ الصحف، لكن هذه الصحيفة التي كان فيها هذا الخبر أحضروها عندي بشكل خاص للتأثير النفسي عليّ من أجل تحطيم معنوياتي، وبعدها أرجعوني في اليوم نفسه إلى عزل ريمون، وقد حدّثت الجميع بما جرى لي.

إجراءات الخطوبة:

صدقاً لا أستطيع التعبير عن مشاعري: عزلٌ، وهمٌّ، وحياة كلها صعوبات، وحرمان من كل شيء، وتنكيل، ومحكمة جديدة، وحكم إعدام بحقي، وفي الوقت نفسه خطوبة، ومشاعر وأحاسيس! خليط من المشاعر، وكأن الله سبحانه وتعالى قد جعل هذا الأمر يدخل حياتي رغماً عني حتى يكون فيه التخفيف عني، وفعلاً هذا ما كان، فقد أنساني هذا الأمر كلّ همومي، وشعرت بنافذة أمل قد فُتحت لي من جديد، وقد أعادني هذا الأمر من جديد للحياة، وكان هذا بفضل الله، وبترتيب منه سبحانه، ليس لي علاقة به، والحمد لله على كل هذا الحال.

في الخارج، علمتُ لاحقاً أنه تمّ التواصل بين أهلي وغفران، التي خاضت نقاشاً طويلاً مع أهلها لإقناعهم بالأمر، ولم يكن الأمر سهلاً، ولكنها استطاعت فرض ما تريد، وإقناعهم بقرارها. لذلك تواصل أهلي مع أهلها وتمت قراءة الفاتحة بينهما عبر الهاتف، وهذا ما علمتُ به لاحقاً من خلال زيارة للمحامية أم عبد الله الأخت زهراء التي كنت أعرفها جيداً، وكانت تعرف غفران جيداً، فقد زارتها عدة مرات، وتربطها صداقة بغفران، وعندما زارتني طلبتُ منها أن تتعامل معي كأخ لها، وتشرح لي بالتفصيل كل شيء عن غفران، وخصوصاً مواصفاتها، وفعلاً شرحتْ لي كلّ شيء، وهذا جعلني أوافق على هذه الارتباط، وتحرَّكت الأمور على الرغم من اتفاقنا أن لا يحدث شيء إلا بعد الإفراج عني، لكنه قدر الله. أرسلتُ لغفران رداً على رسالتها التي أخبرتْني فيها بما حدث مع أهلها، وبتواصلها مع أهلي وقراءة الفاتحة، وطلبتُ منها أن ترسل لي مع الصليب الأحمر وكالة، حتى يتم توقيعها، وأخبرتها أنني سأوكل الشيخ حامد البيتاوي رحمه الله نيابة عني لكي يقوم بإجراءات كتب الكتاب أو عقد القران في المحكمة الشرعية. وفعلاً عندما جاء الصليب، وكان يحمل الوكالة وقّعتُ عليها، ووقّع عليها شهود كل من الأخ عباس السيد (أبو عبد الله)، والرفيق أبو غسان، كشهود على هذا العقد، وبذلك أصبحت الوكالة جاهزة، وأصبحت الوكالة رسمية،

على أن يتم ترتيب الأمور لكتابة العقد بين العائلتين، وأخبرتهم أن ينتظروا الإفراج عن الأخ أبو همام محمد جمال النتشة بعد أيام، وقد كلّفته بالقيام باللازم، وكان لديه استعداد كبير. وحتى هذه الفترة لم يكن تعاملي مع غفران إلا برسائل رسمية بعيداً عن أي مشاعر، وكنت حريصاً على ذلك حتى يتم كتابة العقد.

الآن كل إجراءاتي التي كنت أقوم بها أتّخِذها بناءً على التشاور مع الإخوة الذين حولي في العزل، وخصوصاً الأخ أبو همام، وقد اتّفقت معه عند خروجه أن يأخذ جاهة كبيرة، ويأخذها ليطلب لي من جديد، وبعدها يتم عقد القران والإشهار عندهم، وعند الأهل في غزة. وفعلاً أُفرج عن الأخ أبو همام، وانقطعت الأخبار، وكانت العلاقة مع الإدارة تلك الفترة غير جيدة، لذلك لم يأتنا محام من فترة طويلة، ولا أعرف ماذا يحدث، وماذا تمّ، وعبر الإذاعة وخصوصاً برنامج الأسرى لا يتم الحديث عن ذلك، فقط تتحدث غفران مع الأسيرات، وترسل سلامها لجميع الأسرى، والأهل كذلك.

في هذه الفترة وهذا الوقت أيضاً خرجتُ إلى المستشفى، وقد كنت أجري فحوصات بسبب ضيق بالتنفس، لذلك غبت أربعة أيام في مستشفى الرملة، هناك وضعوني في زنازين العزل، ولم يسمحوا لي بالدخول عند أخي أكرم المتواجد هناك، ولكنه تمكّن من أن يأتي ليسلم عليّ من خلف باب الزنزانة، ولم يسمحوا له بالدخول، وكانت هذه من أكثر الأمور تأثيراً عليّ. أخبرته "على السريع" بما يحدث، وطلبتُ منه أن يحاول إحضار صورة لغفران إن استطاع عن طريق زيارات نابلس لأن لي مراجعة بعد فترة، وسآتي من جديد، وبعد إجراء الفحوصات لي تمّ إرجاعي إلى عزل ريمون عند الرفيق أبو غسان، وكالعادة وبعد أخذ حمام سريع والاستراحة كنت مشتاقاً لسماع برنامج الأسرى حتى أسمع أخبار الأهل، فأنا غائب منذ أيام.

العريس آخر من يعلم:

بدأ البرنامج، وكان الوقت قبل المغرب بقليل، وإذا بمقدم البرنامج يبارك للأسير حسن سلامة خطوبته، وكنت لا أعلم شيئاً، وعلى الخط أمي، وعلى الخط الآخر غفران التي أصبحت خطيبتي بشكل رسمي. وبدأت أمي تبارك لي، وتزغرد، وغفران لم تتحدث بشيء، فقط أَخَذَت تبكي، وأنا العريس لا أعرف شيئاً، والجميع ينادي عليّ، ويبارك لي، وهذا ما حدث، فقد كنت آخر من يعلم، علمتُ من خلال المذياع؛ هكذا كانت حياتي في هذا العزل الذي منعني حتى من معرفة وقت خطوبتي، وحرمني من

كل شيء، حتى ولو بالمشاركة بمعرفة موعد خطوبتي، لا أعرف! هل أضحك أم أبكي أم ماذا! لأنني لا يجوز لي أن أبكي، فهذا في عرف العزل ممنوع مهما كانت صعوبة الموقف، وعلى الرغم مما في الأمر من ألم فقد انعكس علينا ذلك في واقع العزل فرحة، وبدأ الشباب يضحكون، وكل منهم يشاركني فرحتي التي غابت.

الأمر الآخر والأهم أننا وفي اليوم الثاني كنا ننتظر برنامج الأسرى لكي نسمع غفران، ونسمع صوتها، وماذا تقول لخطيبها، والكل يراقب، وفعلاً تحدّثت غفران كالعادة، وسلّمت على الجميع، ولم تذكر اسمي نهائيّاً، حتى لو مجرد سلام، وكانت هذه أكبر من الأولى، صدقوني أن ما أتحدث عنه قد وقع فعلاً! وليس عبارة عن مشهد تمثيليّ أبداً! هذه هي الحقيقة بكل وضوح. بعدها عرفنا أنها لم تستطع الحديث خجلاً، وأن الأمور تمت بشكل سريع، فالأخ الشيخ حامد البيتاوي وكيلي، هو وخال غفران الأخ الشيخ أحمد الحاج علي عضو المجلس التشريعي كان موقفهم رافضاً لموضوع الخطوبة، لكنهم استجابوا لطلبي وطلب غفران، فعملوا الأمر في أضيق حدوده، ورفضوا وجود الإعلام، بل رفضوا قدوم الأخ أبو همام بجاهته الكبيرة، وطلبوا أن يتم الأمر بأضيق حدود. وعندما علمت بذلك زاد قهري، وتضاعف ألمي، ولكن ما باليد حيلة، فحتى أخصّ أمورك لا تستطيع إنجازها، يمنعك ألف ألف سبب، يتم إنجازها من غيرك، مشكورين جداً على ذلك، لكن ينجزونها كما هم يريدون! وهذا حقهم ما داموا مسؤولين عنك، وما دمت أنت عاجزاً عن القيام بأمورك، فما عليك إلا الرضا بما يحدث. وتبقى المرارة في داخلك، وشعور بالعجز لا يفارقك، لا اليوم ولا حتى بعد ألف عام، هذا هو العزل الذي يسلبك كل حقوقك، أبسطها، أهمها، كل شيء حتى إنه يسلب الحياة منك، يسلب الفرحة والسعادة، هذه ضغوطات العزل، وهذا ألمه، وهذا قهره، ومع ذلك يجب أن تبقى صامداً، رأسك مرفوعة، تلعق جراحك، كما يفعل أي أسد جريح، تلعقها وتداويها بنفسك، وتحرص ألا يطلع عليها أحد حتى لا يشمت، أو يستخدمها ضدك، وهذه قصة من آلاف القصص التي تمر علينا في هذا العزل باستمرار، ويبقى ظلم ذوي القربى أشد وأعظم، وسامح الله الجميع!

ومع ذلك كانت لهذه الخطوبة الأثر الإيجابي علينا، وعلى حياتنا، وخصوصاً على حياتي، وسيكون هذا واضحاً عند حديثي عن باقي مجريات الأمور. كان الرفيق أبو غسان من أكثر الداعمين لهذه الخطوبة، وكنت دائم الحديث معه، واستشارته

في كثير من الأمور، وكذلك باقي الإخوة حولي، أصبح موضوع خطوبتي الموضوع الأول والرئيسي في أحاديثنا، وخصوصاً عندما نجلس في فترة المساء لسماع برنامج الأسرى على إذاعة صوت الأسرى؛ وعندما يأتي دور غفران تسمع الجميع ينادي على حسن لكي يسمع، وهم يعلمون أنني أسمع، ولكنه من باب الدعابة وإدخال السرور على قلبي، ومرات تكون الإذاعة غير واضحة، والصوت عليه تشويش، ويبدأ الجميع في جمع كلمات المكالمة، يأخذ منا هذا الأمر وقتاً يكون من أجمل أوقاتنا. كنت أجلس بجانب الشباك ليلاً، وكنت أرى القمر من خلال فتحات ضيقة، ولم يكن يعني لي شيئاً، والآن أصبحت أبحث عنه لكي أراه وأسرح في جماله، بل وأوقظ أبا غسان ليلاً لكي يراه معي، وينظر إليه، وأجلس أكتب الرسائل المليئة بالمشاعر والأحاسيس، ماذا حدث لي، وما هذا التغيير! كم من المشاعر والأحاسيس التي كنت لا أعرف عنها شيئاً، بدأت تتفجر في داخلي، وأسالت قلمي، وأنا الذي كنت أجد صعوبة في كتابة رسالة صغيرة! الآن أجلس ساعات لأكتب عشرات الصفحات عن هذه المشاعر والأحاسيس! ما حدث معي شعرت بأهميته، وكم كان نعمةً من الله، وهدية ثمينة خفّفت عني صعوبة الحياة، فَتَحَت أمامي أبواباً كثيرة، حتى صرت أشعر أنني أديب يبحث عن الشعر، ويتذوقه، ويحفظ منه أعذبه! سبحانك ربي، ما أعظمك!

وأنا في خضمّ هذه المشاعر وصلتني أول رسالة من غفران، وكان بداخلها صورة لها، شعرت أن باب الفرج قد فتح لي، وبعدها بأيام زارني الصليب الأحمر، وأحضر لي عدة صور لغفران فحمدت الله على هذا الاختيار، ووصلني أيضاً مع الصليب عقد الزواج، وفوراً قدمت طلباً إلى الإدارة من أجل السماح لي بزيارة، ولكنهم رفضوا، ولم يعترفوا بهذا الزواج، وبهذا العقد. لذلك طلبت مقابلة مع مدير السجن، وكان حاقداً جداً، وفي المقابلة طلبتُ منه أن يسمح لي بالزيارة فرفض، ورأى أن الأمر مستحيل، وأنه لا يعترف بهذا الزواج، وكنت أعلم أنهم لن يسمحوا لي بالزيارة، ولكني أطالب بحقي!

طبعاً في العزل يتم إبلاغك فوراً بأنك ممنوع من الزيارة، وهذا ما تمّ، واستمر المنع طوال فترة العزل بدون وجه حق، فقط حقد وعنصرية وإمعان في تعذيبك، وحرمانك من أهلك، ولو كان باستطاعتهم حرماننا من الهواء لفعلوا، قد قالوها لنا بصريح العبارة، وكانت سياستهم في التعامل معنا تصدق قولهم.

استمرت حياتي مع الرفيق أبو غسان في حدود العام والنصف، كان آخرها في هذه الفترة التي أتحدث عنها، فقد تمّ نقله ليعيش مع الأخ جمال أبو الهيجا الذي كان قد وصل عندنا، فلقد كان الأخ أبو عبد الله عباس السيد قد نُقل إلى عزل آخر في سجن آخر، وفي اليوم الذي نُقل فيه الرفيق أبو غسان من زنزانتي أحضروا عندي الرفيق عاهد أبو غلمة (أبو قيس)، فقد كان لوحده مع الأخ أبي همام، وقد أفرج عن أبي همام محمد جمال النتشة، وكان أبو قيس لا يختلف عن أبي غسان فهو قيادي في الجبهة الشعبية، وأحد أفراد المجموعة التي نفّذت عملية قتل المجرم رحبعام زئيفي Rehavam Ze'evi رداً على اغتيال أبو علي مصطفى الأمين العام للجبهة الشعبية، وقد ربطتني علاقة صداقة مع أبو قيس، وانتقلت هذه الصداقة إلى الأهل، فقد تعرفتْ خطيبتي غفران على زوجته، وكانتا على تواصل مستمر.

في هذه الفترة أيضاً، خرجتْ بوسطة من جديد إلى مستشفى مراش في الرملة من أجل فحوصات، وتمكنت من مشاهدة أخي أكرم الذي كان قد أحضر لي صورة لغفران، وحصل على معلومات كثيرة عنها، فأخبرته بما حدث، وبكل التطورات التي حدثت، وكان حديثي معه لدقائق معدودة من خلف الباب بـ"السرقة".

في هذه الفترة، حضر إلى قسم العزل شخصيات يهودية من المافيا، وهم سجناء جنائيون تمّ اعتقالهم، ووضعوهم بيننا في القسم، وتعرفنا عليهم، وتحدثنا إليهم، وتصادقنا. وعلى الرغم من العداوة فإن كل ما يهمهم هو مصلحتهم الشخصية، غير سائلين عن الدولة أو عن الوطن، وهم حاقدون على جميع السياسيين عندهم، ويعدّونهم فسدة وسارقين، ويسبونهم باستمرار. سبب الصداقة التي حدثت بيننا أننا نعيش في القسم نفسه، وفي الوضع نفسه، ومصالحنا تتطلب أن نكون معاً من أجل تحقيق بعض مطالبنا في القسم، مطالب لها علاقة بالأكل والشرب والتفتيشات وأمور حياتية، لذلك كنا "زعران" أمام الإدارة، وهذا ما جعلنا أصدقاء. وكثيراً ما كنتَ تلوم هؤلاء الجنائيين، وتذكّرهم أنهم يهود، وأنهم أعداء لنا، وليس منطقاً وقوفهم معنا! فكان رد هؤلاء: ليس لنا علاقة بقضاياهم، كلنا سجناء، ونعيش الأوضاع نفسها، لذلك كنا دائمي الحديث معهم، حتى إنهم ما زالوا يرسلون لنا السلامات حتى الآن على الرغم من خروجنا من العزل، وهنا لا أريد ذكر أسمائهم حرصاً

عليهم، ولكنهم من كبار رجالات المافيا في هذا الكيان، ويعرفوننا جيداً، ويحفظون أسماءنا، ونحن كذلك.

كان وضع أبي غسان، وهو رجل كبير، مع أبو الهيجا، وهو أيضاً رجل كبير في السن، وعنده بتر في اليد، يعدّ ابتلاء كبيراً لهما، لأنهم في زنزانة صغيرة بها بُرشان: أحدهما سفلي، والآخر علوي، وهذه كانت من الأمور الصعبة عليهما، لأنهما لن يستطيعا الصعود للبرش العلوي، لذلك بقي أبو الهيجا ينام على الأرض. وقد عملنا احتجاجاً على ذلك، وقدَّمنا شكوى للمحكمة، لذلك تمّ نقلهم من هذا القسم إلى قسم عزل نفحة، ولم يبقَ في هذا القسم إلا أنا والرفيق أبو قيس عاهد أبو غلمة.

وبعد أيام، تمّ نقلنا إلى القسم الثاني من العزل في السجن نفسه، ووضعونا في زنزانة كان يسكنها من حدثتكم عنه سابقاً العميل (ف. خ.)، وكانت أشبه بحظيرة حيوانات، وكانت كأنها مزبلة، أخذت منا وقتاً طويلاً ونحن نقوم بتنظيفها حتى منتصف الليل، وقد نمنا من شدة التعب، وإذا بهم في الصباح يقولون إننا منقولون إلى عزل أيالون من جديد، وهذا كان متعمداً من قبل هذه الإدارة، وهذا المحتل، ولكن ما باليد حيلة.

عزل أيالون من جديد:

حياة الترحال يعيشها شعبنا في الخارج وفي داخل السجون، فهو ترحال من مكان إلى مكان، أو من سجن إلى سجن، وبذلك نكون قد تنقلنا في كل أرجاء فلسطين المحتلة، من شمالها إلى جنوبها، من شرقها إلى غربها، خلال فترة بسيطة، ولكن عبر زنزانة متنقلة اسمها البوسطة، مقيدين من الأرجل والأيدي، نحاول أن ننظر إلى السماء من خلال ثقوب صغيرة نبذل جهداً للوصول إليها، نسقط مرات كثيرة بفعل سرعة البوسطة، وتوقفاتها، وطلوعها ونزولها، ولكننا نحاول بدون كلل، فهي فرصتنا لنرى سماءنا وأرضنا بأشجارها وسهولها وجبالها، قبل أن تصل بنا البوسطة إلى قبورنا الجديدة التي سنُدفن فيها لأشهر، ولا نعرف هل هناك رحلة جديدة أم لا.

وصلنا إلى سجن الرملة الذي يتواجد فيه سجن أيالون وعزل أيالون، وكنت عندما أصل إلى هذه المدينة، والتي أنا من قضائها، أشعر أنني أصبحت قريباً من موطن

أجدادي، أحنّ إليها، وينسيني هذا الحنين ما أنا به، وكيف حالي، وإلى أين أنا ذاهب! أعيش ولو للحظات هذا الشعور الجميل.

كنت قد حدثتكم عن سجن الرملة وعزل الرملة وعزل أيالون؛ فهذا السجن يُعدّ من أكبر السجون المزروعة في أرضنا المحتلة وأقدمِها أيضاً، وكان سابقاً يحتوي على العزل الوحيد، والأسوأ في هذه السجون عزل الرملة القديم، كان عزلاً تحت الأرض، تنزل له عدة درجات، وعندما تدخله تدلك عليه رائحة العفن، تشعر أنك داخل إلى أنفاق سيئة التهوية. هذا العزل القديم عاش فيه جميع أبطال فلسطين الذين سمعتم عنهم، أمثال الشهيد الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، والشهيد صلاح شحادة، والأخ الفاضل يحيى السنوار، وجميع المجاهدين أصحاب العمليات الكبيرة والنوعية، كانوا بمجرد اعتقالهم يتم وضعهم في هذا العزل السيء غير الإنساني، والذي لا تتوفر فيه شروط للحياة؛ فهو مجمع لكل أنواع الحشرات والقوارض، تجدها في كل مكان، تعيش معها، ومن كثرتها تتجرأ عليك، وتتحرك أمامك بدون خوف، وتحاول سرقة طعامك، تخرج من كل مكان، وخصوصاً من فتحة الحمام، وكثير ما تجدها داخل غطائك عندما تستيقظ، وقصص كثيرة، منها ما هو مضحك ومنها ما هو مؤلم، وكأنك في فيلم سينمائي أبطاله أنت وعشرات الفئران الكبيرة، ومئات الحشرات المتنوعة. وقد أُغلق هذا العزل بعد خوض الأسرى للإضراب الشهير عن الطعام سنة 1992، والذي استمر لأكثر من عشرين يوماً، خرج بعدها هؤلاء الأبطال من هذا العزل، وهم أكثر إصراراً، وأقوى شكيمة بعد أن نال هذا العزل من أجسادهم، وتحوّل هذا القسم بعد ذلك لمعبار؛ ينزل فيه الأسرى لأيام، وهم في طريقهم للمحاكم، وفي أثناء عودتهم منها، راجعين إلى سجونهم. وكان في هذا الوقت نفسه، وفي السجن نفسه عزل آخر في الطابق الثاني أكثر سوءاً من الأول، لأنه وبالرغم من أنه في الطابق الثاني، لكنه مغلق تماماً بكل أنواع الحديد التي تمنع حتى أشعة الشمس من أن تدخل لهذا القسم. وقد حدثتكم عنه في بداية هذا الكتاب، وعن حياتي في داخله، فقد تمّ إغلاقه من كثرة احتجاج السجناء الجنائيين اليهود عليه، لأنه لا تتوفر فيه شروط للحياة؛ وبذلك رحمنا الله من أن تنتهي حياتنا داخل هذا العزل، وبعدها تمّ إنشاء عزل ثالث في السجن نفسه، لكنه تابع لسجن أيالون، وقد تحدثنا عنه في سياق حديثنا، وقد عشنا فيه فترة طويلة، والآن ها نحن نعود إليه من جديد، ونحن الآن في بداية سنة 2011.

وصلنا إلى هذا العزل بعد مشوار طويل من السفر، وإجراءات التفتيش، ومصادرة الأغراض، وبعدها قادونا إلى هذا القسم، ودخلناه، وكنت أعرفه جيداً، فقد وضعونا في آخر زنزانة، وبعدما قمنا بترتيب أغراضنا، ومن خلال فتحة فيسبوك (شباك الحمام) المرتفعة صعدنا على كرسي، وبدأنا ننادي بصوت عالٍ لكي نعرف من حولنا. وكانت المفاجأة وجود الأخ الفاضل والقائد إبراهيم حامد في الزنزانة التي تقابلنا، وكم كانت سعادتي بذلك، وبدأنا فوراً نتحدث، وعرفنا أنه لا يوجد غيرنا من السجناء الأمنيين في هذا العزل، والجميع سجناء جنائيون يهود وعرب، ومنهم من نعرفهم، وبعضهم جدد، كنا نمضي أوقاتاً طويلة في الحديث من خلال فتحة فيسبوك الخاصة بنا مع الأخ أبو علي إبراهيم، وقد كان الحديث أغلبه يدور حول ما حدث معي من تطورات، وخصوصاً خطوبتي، وقد شعر الأخ أبو علي بأسلوبي الجديد، وتفاعلي الكبير، وحديثي عن الشعر والأدب والمشاعر والأحاسيس، وشعر أن أمامه حسن جديد، لذلك كتب رسالة جميلة في ذلك، سأعمل أن تكون مرفقة في هذا الكتاب أسماها: حسن ما قبل غفران وحسن ما بعد غفران! فهما يختلفان بأشياء كثيرة، وكنت سعيداً، وأنا أحدثه عن حالي ومشاعري، وقد عاش معي هذه الأجواء بمعنى الكلمة، فقد كانت تصلني رسائل من خطيبتي غفران طويلة جداً، وكنت أكتب لها باستمرار، وكانت أطول رسالة كتبتها لها عبارة عن ستين صفحة، فسماها الرسائل الطويلة، وكنت أحدثه عن كل شيء، وكان يقول أصبح حسن إما مشغولاً بكتابة الرسائل، أو بقراءة الرسائل، فقد شاركني أيضاً الرفيق عاهد هذه المشاعر، ولكن لأن الأخ أبو علي أعرفه جيداً، وأيضاً بالقرب الفكري، فكنت أجد راحة واستمتاعاً في الحديث معه أكثر.

كان يزورنا محامٍ كل فترة، كنا أيضاً عن طريقه نرسل الرسائل، وأيضاً تصلنا رسائل من الأهل، وكنا نتابع برنامج الأسرى اليومي، والذي هو صديقنا الحميم في العزل، من خلاله نسمع أصوات من نحبهم، ونستمع إلى كلماتهم العذبة التي كنا نضحك عليها، ونتفاعل معها، ونعيش أحلاماً جميلة. هذه الأشياء الصغيرة من حياتكم في الخارج كانت عندنا في العزل هي الحياة كلها، بل هي كل العالم الذي كنا نلوذ به من هموم العزل والسجن والسجّان، وكل ما نتعرض له يومياً من إجراءات قمعية، سواء تفتيش متكرر، أم اقتحام ليلي للزنازين، أم تقييدنا من الخلف، أم ضيق الفورة ومشاكل الخروج إليها، أم قلة الأكل ورداءته، ومنعنا من الحديث فيما بيننا،

وعندما نرفض يتم معاقبتنا بغرامات مالية أو مصادرة أغراضنا... كان ضابط القسم درزيّاً، ومع ذلك كان حاقداً وسلوكه سيئاً جداً، لذلك كنا دائماً في مشاكل معه، تصل إلى درجة التهديد والصراخ من أجل تحقيق مطالبنا، أو الحصول على ما نريد من أغراض.

في هذه الفترة كنت أقرأ كثيراً، وقد شجعني على ذلك الأخ أبو علي، وكانت أغلب الكتب روايات، وقد ساعدتني هذه الروايات في تحسين أسلوبي في الكتابة، واختيار الكثير من الكلمات والعبارات الجميلة التي كنت أستخدمها في رسائلي مع خطيبتي، وأخص بالذكر روايات الكاتبة أحلام مستغانمي وغيرها. كنا في هذا العزل مقطوعين عن العالم، لا نعرف شيئاً سوى ما يخبرنا به المحامي عند قدومه، ومرات عندما يأتي لزيارتنا لا يكون لديه أيّ معلومات حتى على مستوى الأخبار، وتكون معلوماتنا أكثر منه، لأننا متابعون جيداً للأخبار من خلال التلفاز أو المذياع.

استطعت خلال هذه الفترة بواسطة المحامي عمل كثير من المفاجآت السارة والمضحكة لخطيبتي، وإرسال هدايا لها طالباً من المحامي أن يقوم بذلك، وقد نشعر بذلك عندما نسمعهم يتحدثون من خلال المذياع، وكان الأخ أبو علي إبراهيم حامد مندهشاً من ذلك، وهو الذي لم يتعود على مثل هذه الأمور، حتى إننا كثيراً ما كنا نتجادل حول مشاعره التي يغلق الباب أمامها، وكأنها حياته التي تعوّد عليها بفعل ما تعرض له. ومع ذلك استطعت وخلال فترة بسيطة عمل اختراق في مشاعره لدرجة أننا معاً خططنا لعمل مفاجأة لزوجته من خلال أبنائه، وكان له ولدان: بنوتة جميلة اسمها سلمى، وولد اسمه علي كان أكبر من عمره، وكنا نسمعهما، وهما يتحدثان عبر الراديو، وكم كانت تفيض مشاعر أبو علي إبراهيم، وهو يستمع لهما، وخصوصاً لابنته سلمى! وكنت أحدثه أن ما يحدث معه يناقض ما يطرحه من جمود للمشاعر عنده، لدرجة أنه عندما تعرض لعقاب صادروا الراديو من زنزانته، كنت أضع له الراديو من خلال شباك الحمام، وأرفع له الصوت حتى يصل إليه صوت أبنائه، أليست هذه قمة المشاعر! وقد تصادقتْ زوجته مع خطيبتي من خلال صفحات التواصل، كما هي صداقتي معه التي استمرت حتى الآن، وما زلنا نتراسل، ونتذكر هذه اللحظات الجميلة، على الرغم مما بها من ألم ومرارة وحرمان.

بعد مرور ثلاثة أشهر من وجودنا في هذا العزل، وفجأة وصل عندنا كل من الأخ القائد يحيى السنوار، ومعه الأخ وليد عقل، وقد أحضروهما إلى هذا العزل بقصد إبعادهما عن مجريات مفاوضات الصفقة. فقد كان أبو إبراهيم يحيى السنوار في ذلك الوقت هو رئيس الهيئة القيادية العليا لأسرى حماس، يعني هو أمير حماس، وكان له دور أساسي في مفاوضات الصفقة، وكان متشدداً جداً يطالب بعدم إتمام الصفقة مهما طال الزمن إلا بالإفراج عن كل المؤبدات، لذلك تمّ عزله وإبعاده عن المشهد. وكم كنا مشتاقين له على الرغم من أنهم وضعوه بعيداً عنا، تمكّنا من الحديث معه من خلال فيسبوك الخاص بنا بصوتٍ عالٍ، تعرّفنا على أخبارهم وأخبار السجون، وبدأنا نتحدث عن أهم موضوع يخصنا: موضوع الصفقة، وإلى أين وصلت! وكان كلامه واضحاً جداً أنه تمّ وضع معايير لا يمكن أن يتم تجاوزها، أهمها: أن كلّ من مضى على اعتقاله 15 عاماً سيتم الإفراج عنه، والأمر الثاني أنه لن تتم صفقة مهما طال الزمن بدون الإفراج عني، وهذا موقف أهل غزة، وهذا طمأنني جداً، وكان الأمر الثالث المحزن أنه تمّ تجاوز الإخوة الذين تمّ اعتقالهم مؤخراً؛ وقد أغلق هذا الملف بالرفض، وهذا كان مأساة أزعجت الأخ إبراهيم حامد جداً، فهو معتقل حديثاً، ولكنها الحقيقة، وما زالت الأمور عالقة.

على الرغم من وجود الأخ يحيى السنوار في القسم، لم نستطع رؤيته أو السلام عليه، فقط كنا نستطيع الحديث، ومع ذلك لم يستمر هذا الأمر أكثر من يومين، وإذا بنا نُبلّغ بنقلنا إلى عزل عسقلان من جديد، وكم كانت هذه صعبة علينا، لكن ماذا نفعل! وفعلاً في اليوم الثاني جهزنا أنفسنا، أنا والرفيق عاهد أبو غلمة، وودّعنا جميع الأخوة من خلال صفحة فيسبوك الخاصة بنا، أي فتحة الحمام، وخرجت محملاً بالتأكيدات والتطمينات بأن الصفقة لن تتم إلا بالإفراج عني، وهذا يكفيني حتى أكون جاهزاً في أي لحظة، وفي أي وقت، وأمرٌ كهذا جعلني لا أبالي بالعزل، وبكل ما فيه، وبكل ما أتعرض له، فأنا على موعد مع الحرية قريباً بإذن الله، وخرجنا من هذا العزل، وكان هذا خروجنا الأخير منه.

عزل عسقلان من جديد:

وقتها لم نكن نعلم أن هذه المرة ستكون الأخيرة لنا في هذا العزل السيء، وفعلاً هذا ما كان، ولكن كانت هذه الفترة من أصعب الفترات، فقد كانت الإدارة في غاية السوء، وكان الجو في أسوأ حالاته، تشعر أنك تكاد تختنق، تكاد لا تستطيع التنفس، بمجرد أن تتحرك يتصبب جسدك عرقاً، فنسبة الرطوبة عالية جداً. وصلنا ونحن في قمة التعب، وما إن انتهت إجراءات التفتيش غير الإنسانية، وبدأنا نتحرك إلى زنازيننا، ونحن مقيدون طوال الوقت، نجرّ أنفسنا وأغراضنا جرّاً، في أثناء ذلك سقط الرفيق عاهد على الأرض من التعب، وكأنه أغمي عليه، وجميعهم واقف يتفرج، ساعدته بقدر ما أستطيع حتى عاد لوعيه، وساندته حتى وصلنا إلى الزنزانة التي حُشرنا بداخلها نحن الاثنان، ومعنا أغراضنا، وكانت الزنزانة من شدة الحر كأنها مشتعلة ناراً. وضعنا أغراضنا، وبدأنا نبرّد أنفسنا وأجسادنا بالماء، على الرغم من أنهم أجروا تحسيناً على الزنازين، لكن ما شاهدناه أنها أصبحت أكثر ضيقاً باستثناء أن الحمام والمرحاض أصبح يفصل بينهما وبين باقي الزنزانة باب، وهما بشكل طولي، ووضعوا مغسلة عريضة جداً في داخل الزنزانة لا تسمح لك بالحركة، بل إن استخدمتها يمتلئ الفرش السفلي بالماء.

كانت مسؤولة القسم ضابطة اسمها "ليزانا"، عجوز شمطاء، استطعنا التفاهم معها على ما بعض ما نحتاج، وبدأنا نطالب بنقلنا من هذه الزنزانة التي كانت في بداية القسم، وطلبنا أن يتم وضعنا في زنزانة داخلية، وتكون أكبر، لأننا لا نستطيع العيش في هذه الزنزانة مع هذا الحر، ولكنهم رفضوا، وهذا جعلنا نخوض خطوات كبيرة من أجل ذلك حتى نجحنا، وأخذنا ما نريد، فتم نقلنا إلى زنزانة أوسع قليلاً قد خصصت لمن يستخدم كرسياً متحركاً، وضعونا فيها بشرط نقلِنا منها إن احتاجوها، فوافقنا. وكانت في آخر القسم في جانب قسم الزنازين الذي أصبح جزءاً من قسم العزل؛ وهذه الزنازين تختلف عن زناين قسم العزل لأنها صغيرة جداً، ولا يوجد بداخلها حمام أو مرحاض، وهي خصصت للعقاب، وهذا جعلنا نتواصل بشكل مستمر مع من يأتون من الأقسام معاقبين، سواء أسرى أمنيون أم سجناء جنائيون. ويوجد أيضاً زنزانة خاصة لمن يحاول الانتحار يتم وضعه فيها، وداخلها كاميرات حتى يتم مراقبته طوال الوقت، على أن يتم تقييده من الأطراف، وهو نائم، لمدة معينة حتى يتمنى

الموت، ولا تفك قيوده إلا من أجل الأكل، ويبدأ هذا المقيد طوال الوقت ليلاً ونهاراً بالصراخ والبكاء والسب والشتم وسبّ الذات الإلهية.

كان في هذا القسم يوجد الدكتور ضرار أبو سيسي، وهو الذي تمّ خطفه من أوكرانيا من قِبل الموساد Mossad الإسرائيلي، وأحضروه هنا ليتم التحقيق معه، وبعد التحقيق وضعوه في العزل الانفرادي، تعرّفنا عليه، وكم كان سعيداً بقدومنا، شعر بالوَنَس، وجد مَن يتحدث معه، ونحن كذلك.

كان بجانبنا في الزنزانة أسير أمني اسمه مازن على ما اعتقد، أعرفه جيداً، ولكن هذه المرة كانت حالته متدهورة جداً، يبقى طوال اليوم يتحدث مع العالم الخاص به بصوت عالٍ، وكأنه يخاطب أحداً، وفجأة يضحك، وبعدها يبكي بنحيب يقطّع نياط القلب، حاولت الحديث معه، لكنني لم أستطع، تمنيت أن أخفّف عنه، ولكن كيف! يبدأ يحطم في كل أغراض الزنزانة، فيدخلون عليه، ويضربونه، ويقيدونه بلا رحمة، كنا نحتج عليهم، ونحاول مساعدته، ونطالب بأخذه إلى مصحة للعلاج، فيرفضون.

وأيضاً كان حولنا أسير آخر أمني، اسمه محمد، على ما أعتقد، كان مريضاً، ولكن بصورة أخفّ، ينادي علينا، ويتحدث معنا عن عالم الملائكة، كل يوم يأتي لزيارته سيدنا جبريل، ويضمّه، ويقبله، وكل يوم قصة نسمعها منه، ونتفاعل معه حتى لا يشعر بشيء، وله من القصص الكثير، هؤلاء جميعاً ضحايا هذا المحتل، وهذه الإدارة المجرمة التي لا ترحم أحداً، ولا يوجد عندها شيء إنساني، تحقد عليك لمجرد أنك فلسطيني، تنال منك، وتستغل ضعفك، ولا تراعي في ذلك مريضاً أو غير ذلك، أنت دائماً عندهم مستهدف لأنك فلسطيني.

استطعنا في الزنزانة الجديدة أن ندبّر أمورنا، وأن نعيش وفق برنامج معين، كنا نحافظ على الرياضة عندما نخرج للفورة لساعة واحدة، ونبقى باقي ساعات اليوم في الزنزانة جالسين، ولكي أتحرك كنت أنظّف الحمام، وأبدأ بالمشي هناك ما بين الحمّام وصولاً إلى الدورة، بينهما متران ونصف على طول الزنزانة حتى لا أزعج شريكي، وكانوا يشاهدون ذلك، ويتعجبون، فقد أصبحت خبيراً بالمشي في المسافات الضيقة؛ تحدثنا مع الدكتور ضرار، وواسيناه، وكنا له عوناً، وأخبرناه بأمر الصفقة التي قد تكون على الأبواب.

على الرغم من صعوبة هذا الحال، والسوء الذي نعيش فيه حافظت على نفسي، وعلى علاقتي مع ربي، وكنت أحرص جداً أن تكون هذه زادي الذي يصبّرني، أصلي، وأصوم، وأقرأ القرآن، وأقرأ ما أستطيع، وألخص؛ وفي الوقت نفسه كنت مشغولاً بكتابة الرسائل لخطيبتي غفران، أشرح لها حالي، وأوضاعي، وكان بعضها يصِل، وبعضها يتم مصادرته، وكانت تصلني رسائل من خطيبتي أعيش معها، وأقرؤها، وأكتب الردود عليها، وهذا كان يخفف عني وعن حالي.

تستطيع على الرغم من الجحيم الذي تعيشه أن توجِد في داخلك حياة أخرى تنسيك أي جحيم، وهذا ما أكنت أعمله، وداومت عليه، أشرد من هذا الواقع المؤلم إلى واقع أصنعه لنفسي، يكون جميلاً كالحلم، ولكنني مستيقظ.

زارني الصليب عدة مرات، ولكن زيارته ما غيّرت شيئاً في حياتنا أكثر من أنه كان يحمل لنا الرسائل، ونسمع منه أخبار الأهل، وكانت زيارته كل شهرين، أو أكثر.

كنا كثيراً ما نتحدث مع من يأتون معاقبين، ويتم وضعهم في الزنازين، نسأل عنهم وعن أوضاع السجون، ونسمع أخباراً لا تفرح ولا تسر، فهذه الفترة كتبت رسالة، وخرجت للإعلام، عنوانها: زنزانة رقم 9، عن حالنا، وأوضاعنا، وكيف أننا نشتاق للنوم بفعل ما يمارس ضدنا من قبل الشرطة الذين يفتحون، ويغلقون فتحة الزنزانة كل دقائق بصوت عالٍ، لا يراعون ليلاً أو نهاراً، وينظرون إليك بخبث ومكر.

كنا نعتمد في الأكل على مشتريات الكنتينا، فقد كان الأكل عندهم سيئاً جداً، أي كنا نعيش على حسابنا، ومن أموالنا، كان الرفيق عاهد محبّاً للحياة أكثر، يتابع التلفاز باستمرار، ويتابع المسلسلات، وكنا نتحدث في كل شيء، وعن كل شيء، نتفق، ونختلف، ولكن حافظنا على صداقة بيننا ما زالت حتى الآن باقية، وكذلك زوجته مع خطيبتي كانت تربطهم علاقة جيدة.

كانت هذه الإدارة القمعية تحاول منع الدكتور ضرار من رفع الأذان، ولقلة خبرته، كان عندما يؤذّن لا نسمع صوته، لذلك ومن باب التحدي كنت أرفع الأذان، وبصوت عالٍ، فيأتون فوراً لمنعي، فلا أبالي بهم، وأبقى كما أنا حتى آخر الأذان، وهذا سبّب لنا مشاكل كبيرة معهم، وفرضوا علينا عقوبات، ولكنني حافظت على ذلك، وكنت مرات

أضطر لرفع الأذان من أسفل الباب لوجود فتحة حتى يصل صوتي للجميع، يعني أؤذّن، وأنا نائم على الأرض، لأنهم يرفضون فتح الطاقة العلوية؛ كانت تحدث كثير من المناكفات والمشادات بيننا، لكننا كنا نحرص ألا تصل لدرجة الاعتداء علينا، وهذا ما كانوا يريدونه.

بعد فترة أحضروا عندنا اثنين من الأسرى الأمنيين، أحدهما مَن حدثتكم عنه: الأخ المريض إياد أبو حسنة، وكان على حاله لا يتحدث مع أحد، ولا يسمع لأحد، وكم حاولت أن أتفاهم معه، لكن لا حياة لمن تنادي، والسجين الآخر إياد أبو خيزران من أسرى الجهاد الإسلامي جاء إلى العزل بسبب رفضه الدخول إلى الأقسام، وهو أبٌ واعٍ، وفهمان ومحكوم بالمؤبد، وقد تحدثنا عن آخر أخبار السجون، وأهمها قرب التوصل إلى صفقة تبادل، والجميع متفائل أن تكون في هذه السنة، وهذا رفع من معنوياتنا، وهذا زاد صبرنا، وتحمّلنا للأوضاع التي نعيشها.

إضرابي عن الطعام وصفقة وفاء الأحرار:

في هذه الفترة أصبحنا في بداية شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2011، وأصبح لنا في هذا العزل ما يقارب الأربعة شهور أو أقل أو أكثر، وصلَنا خبرٌ عن طريق المحامي أن الأسرى يخطّطون لخوض إضراب مفتوح عن الطعام لتحسين ظروفهم، وأيضاً لإخراج المعزولين، وأن هناك توافقاً بين حماس وباقي الفصائل على ذلك، وخصوصاً مع الجبهة الشعبية التي كانت تريد إخراج أمينها العام من العزل بعد هذه المدة الطويلة. وبقينا ننتظر، وقد وصلَنا موعد الإضراب الذي كان في بداية شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2011، ولكن لم يتم التأكيد على ذلك، فقد منعوا المحامين من الوصول إلينا كعادتهم عندما تكون هناك خطوات، وكانت هناك أخبار شبه مؤكدة أن حماس ترغب بتأجيل الإضراب، لذلك وجدت الجبهة الشعبية نفسها مضطرة للدخول في إضراب مفتوح عن الطعام لوحدها من أجل إخراج أمينها العام من العزل، وقد قرر الرفيق عاهد أبو غلمة المتواجد معي في الزنزانة دخول الإضراب مع رفاقه، لذلك قررت الدخول معه تضامناً.

وفعلاً أعلنّا الدخول في الإضراب، واتفقنا مع الدكتور ضرار ألا يدخل فيه لأنه مريض، وأيضاً ليزودنا بالأخبار، حتى لا نصبح معزولين عن العالم، لأننا بمجرد

الدخول بالإضراب يتم معاقبتنا بكل أنواع العقوبات، وأولها وضعنا في زنازين العقاب، بدون أي شيء سوى ما نلبسه، وفعلاً هذا ما تمّ، وبدأ الإضراب، وتمّ أخذنا من زنزانتنا المتواجدين فيها، وبها أغراضنا إلى زنزانة ضيقة جداً بدون أغراض، وبدون حمام، أو دورة.

حاولوا في هذه الفترة الضغط علينا من أجل وقف إضرابنا، حاولوا معي عبر جلسات كثيرة، وأخبروني أن حماس لم تدخل الإضراب، فلماذا أدخل أنا! فقلت لهم: فليأتوا بالأخ توفيق أبو نعيم ممثل حماس في سجن عسقلان في ذلك الوقت لكي أتحدث معه، فرفضوا، وقلت لهم: سأواصل إضرابي، تضامناً مع الرفاق، وخصوصاً مع شريكي في الزنزانة، لذلك استمر إضرابنا 15 يوماً، وفي هذا اليوم الخامس عشر، وكان على ما أذكر يوم ثلاثاء من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2011، حدث أمر مشهود وكبير، ونحن نعيش آلام الإضراب وصعوبته، وإذا بالدكتور ضرار ينادي بأعلى صوته عليّ، وهو يبشّرني أنه تمّ إنجاز صفقة تبادل، وبعد قليل سيتحدث أبو الوليد الأخ خالد مشعل مُعلناً ذلك، وسيكون هناك أيضاً خطاب لرئيس وزراء العدو بنيامين نتنياهو Benjamin Netanyahu بعد قليل. وأضاف قائلاً، إن الجميع توجهوا إلى بيتنا في خان يونس بمسيرة كبيرة، وخرجت الوالدة تزغرد، وبدأت الأفراح، وهذا طبعاً منقول بثّ مباشر عبر إذاعة الأقصى الذي كان يسمعها الدكتور ضرار، وهي مصدر أخبارنا.

وفعلاً هذا ما تمّ، فقد خرج أبو الوليد معلناً التوصل إلى صفقة، وكذلك رئيس حكومتهم، لذا أصبح الأمر فعلياً، كنا سعداء جداً، وخصوصاً أنا، لأنني على يقين أنه سيفرج عني، لم أشكّ في ذلك أبداً، وكانت التطمينات قوية، وقد حدثتكم عن ذلك، وكان الوقت قريب المغرب، جلست مع الأخ عاهد، وتحدثنا بشكل واعٍ، واتفقنا أن أقوم بكسر إضرابي حتى أعود إلى زنزانتي التي بها أغراضي، وأتابعَ الأخبار، وأتجهز للإفراج عني، وبالنسبة للرفيق عاهد لم نعلم إن كان اسمه موجوداً أم لا، وفعلاً شكرني الرفيق على تضامني معه، وأوصاني بما يريد، وطلبتُ الإدارة، فجاؤوا، فأخبرتهم أنني أوقفت إضرابي، فطلبوا مني تناول الأكل، فرفضت بشرط عودتي إلى زنزانتي، فأجروا اتصالاتهم، وأخبروني أنهم لا يستطيعون إرجاعي اليوم لعدم

وجود مدير السجن، لذلك قررت البقاء مضرباً حتى يوم غد، وفعلاً هذا ما تمّ. وفي الصباح أخرجوني إلى زنزانتي بعدما تأكدوا من وقف إضرابي، وبقي الرفيق عاهد لوحده، وكنا بجانب بعض، وبدأتُ أتابع الأخبار سواء من الراديو أم التلفاز، ولأنني كنت على يقين من الإفراج رتّبت أموري. وعندما تحدّث الأهل في أول يوم شعرتُ من خلال حديثهم أنهم حتى هذه اللحظة غير متأكدين من الإفراج عني، ومع ذلك هم مستبشرون خيراً. وحتى المساء علمت بخبر أن اسمي تمّ رفضه من خلال التلفاز، في أثناء حديث رئيس الشاباك العدو الذي قال بالحرف الواحد باللغة العبرية مبشراً شعبه أنّ المخرّب حسن سلامة لن يُفرج عنه! فعلمت حينها أنني باقٍ!

هكذا تمّ إبلاغي للأسف، ولم يصلني أيّ محام، ولم يتصل أحد بالأهل، فوراً تماسكت على الرغم من ضعفي، وما بي من أوجاع بسبب الإضراب، وقررت الخروج فوراً من حالة الضعف، وفي اليوم الثاني صباحاً خرجت أمارس الرياضة على مشهد من هذه الإدارة الحاقدة، دون أن أتحدث مع أي شرطيّ، ويعلم الله كم كنت مريضاً لا أستطيع ممارسة الرياضة بسبب ضعف جسدي، بسبب الإضراب، لكن هذا كان الحل لنفسيتي، فأهونُ عليّ الموت ألف مرة على أن يشمت بي هذا العدو، أو هذه الإدارة التي حاولت استفزازي ببعض الكلمات مثل: بأنهم "تركوك"، أو "تخلوا عنك"، ولكنني جعلت نفسي، وكأنني لا أسمع، وكنت أضحك وألعب رياضة، وكأن شيئاً لم يحدث.

منذ الإعلان وحتى بدأ تنفيذ الصفقة 2011/10/18 تقريباً أسبوع أو خمسة أيام عندما بدأوا يجمعون الأسرى بالنقب، كانت فترة جداً صعبة، خفّف عنّي فيها أنني عندما سمعت أسماء المفرج عنهم من خلال الراديو، وإذا بالكثير من الإخوة القدامى أسماؤهم غير موجودة كمحمود عيسى وعبد الناصر عيسى وعثمان ومعاذ بلال وآخرين، فشعرت أن هناك مشكلة حقيقية قد حدثت، وزاد الطين بِلّة عندما خرج أحد إخواننا من القادة عبر التلفاز، ويتحدث أنه تمت مشاورتنا في ذلك، وهذا غير صحيح نهائياً.

كان عندي في القسم اثنان مفرج عنهما: الأسير إياد أبو خيزران والأخ المريض إياد أبو حسنة، وقد طلبت مني الإدارة الحديث مع إياد أبو حسنة، وفعلاً استطعت

الحديث معه، وطلبت منه تجهيز نفسه، وأنه سيُفرج عنه، والحمد لله أنه فهم قولي، وتمّ أخذه بعد أيام. وخلال هذه الفترة انتهى إضراب الجبهة الشعبية، وعاد الرفيق عاهد عندي بعدما استمر إضرابهم 18 يوماً.

ولولا أنني تحاملت على نفسي، وخرجت سريعاً من هذا الواقع لكان الأمر صعباً جداً، ولعمل جرحاً عميقاً في داخلي، وخصوصاً شعوري بشماتة الأعداء الذين كنت أتحداهم بالإفراج عني رغماً عنهم، ولكن قدّر الله، وما شاء فعل! وما قوّاني أكثر سماع كلمات خطيبتي غفران على الراديو، وهي تواسيني، وتشد من عزيمتي، وتجدد الارتباط بي، وأنّ ارتباطها أبداً ليس له علاقة بالصفقة، وهذا ما أراح نفسيتي على الرغم من معرفتي كم كان الأمر صعباً عليها، وعلى الأهل، وعلى الجميع، وما حدث معي حدث مع جميع إخواني المعزولين الذين لم يفرج عنهم.

كما لم يتم إخراجنا من العزل، وهذا ما لم نتوقعه، على الأقل أن يتم إخراجنا من العزل، وعدم تركنا هكذا ننزف في هذا العزل، وكان ذلك مستطاعاً، وهذا ما كان مستغرباً! فقد زاد همّنا، وأشعرنا أن هناك خللاً حقيقياً قد حدث، على الرغم مما تمّ إنجازه من صفقة كبيرة جداً. وبدأنا نتابع الأخبار حتى لحظة التنفيذ، وشاهدنا ما تمّ عرضه من صور للفرحة، فقد سعدنا بذلك، وفرحنا، ويعلم الله أن هذه الفرحة الكبيرة التي عاشها شعبنا أنستْنا أنفسنا وهمومنا وما حدَث معنا، فنحن متوكلون على الله، والبيعة معه وحده، وإرادته سائرة علينا، والخيرة فيما اختاره لنا، والحمد لله على ذلك. وفور وصول محامٍ لنا أرسلتُ رسالةَ مباركةٍ للأهل بالإفراج عن أخي أكرم الذي لم أره، ولم أودّعه، ورسالة أخرى مباركة للحركة على هذا الإنجاز الكبير والعظيم، وعادت حياتنا إلى طبيعتها من جديد، وتجاوزنا ما حدث سريعاً على الرغم من شعوري بالتأثر الكبير والحزن العميق الذي حدث مع الدكتور ضرار، فقد كان متوقعا أن يُفرج عنه، ولكن هذا ما حدث، والحمد لله على كل حال.

بقينا في عزل عسقلان حتى نهاية 2011، وبعدها أخبرونا بنقلنا إلى عزل ريمون من جديد، فغادرنا هذا العزل تاركين وراءنا في هذا العزل الدكتور ضرار لوحده.

عزل ريمون من جديد:

لا أنكر أن الأمر كان صعباً جداً، وزاد من صعوبته أننا لم نكن نعلم ماذا حدث، ولماذا حدث ذلك!؟كنا غائبين عن كل شيء في هذا العزل، حتى الأخ أبو إبراهيم السنوار، الذي تمّ وضعه في العزل ليتم استبعاده عن كل شيء بسبب مواقفه المتشددة، علمنا لاحقاً أنه عندما خرج من العزل إلى النقب في مرحلة الإفراج عنه، وعلم بما حدث، ووجد أنه تمّ استثناء أسماء كبيرة مثل محمود عيسى وحسن سلامة وعثمان ومعاذ بلال وغيرهم صُعق، وأخذ يصرخ في الجميع، لم يصدّق ما حدث، وللأسف وحتى هذه اللحظة وحتى كتابة هذا الكتاب ونحن الآن في سنة 2021 لا نعلم ماذا حدث، وكيف حدث! فقد طالبنا بتشكيل لجنة لتقييم المرحلة الأخيرة من المفاوضات، لكن لم يستجب لنا أحد! وما قيل فقط هذا ما استطعنا إنجازه، وكانت هناك ظروف خاصة للجندي جعلتنا نقوم بذلك! إذاً لماذا لم نخرج من العزل! وهل كانت هناك صعوبة في ذلك! وكنا قد أكدنا على ذلك أن لا يبقى أحد في العزل! لكنْ تمت الصفقة، وخرج من خرج، وبقينا نحن في عزلنا نتجرع مرارته، ونعيش آلامه، وقد حُرمنا حتى أن نودع من خرج، أو أن نفرح معهم.

كانت أياماً صعبة جداً، شعرنا بشعور الجندي الجريح الذي تُرك في ساحة المعركة حتى دون أن يراعي أحد مشاعرنا أو مشاعر أهلنا الذين شعرنا بهم، ينزفون، ولكنهم تحاملوا، وتجرعوا كل أنواع الألم من أجل أن لا يؤثّروا على معنوياتنا. كان موقف الأهل أكثر من رائع، بل كانوا في حرصهم علينا وعلى الحركة أكثر فهماً ووعياً من كثير من بعض الشخصيات التي خرجت علينا تتحدث بكلام غير مفهوم، وبعيد عن الصحة، وليس له علاقة بحسّ المسؤولية. وعلى الرغم من ذلك نحن نعدّ ما حدث إنجازاً كبيراً، فقد خرج مئات الأسرى بعد أن قضوا أعواماً طويلة من عمرهم داخل الأسر، وظنّ المحتل أن هذه السجون قد تكون قبوراً لنا، لكن بفضل الله وشراسة المقاومة استطاعت تحقيق هذا الإنجاز الكبير الذي أغاظ العدو، وأدخل الفرحة في معظم البيوت الفلسطينية؛ والجميع شاهد على أعراس الاستقبال، وكم كان هذا الشعب رائعاً، وهو يستقبل أبطاله بالورود والزغاريد وزخات الرصاص وهتافات التكبير، فلقد كان انتصاراً عظيماً.

وصلنا إلى عزل ريمون، ودخلنا قسم العزل، وكان في هذا القسم الصديق ورفيق العزل الأخ القائد محمود عيسى (أبو البراء)، وكم كنت متأثراً، وأنا أتحدث معه، وقد حُرم من الإفراج عنه؛ فعلى الرغم من خروج كل أبناء قضيته بقي هو لم يُفرَج عنه، وقد عاش آلام ذلك هناك في عزل جلبوع، ووقتها كان عنده كل من الإخوة جهاد يغمور من القدس، وهو أحد أبطال عملية أسر الجندي ناخشون فاكسمان Nachshon Wachsman، والأخ القائد زاهر جبارين أحد قادة كتائب القسام، وأحد مؤسسيها، ومَن على يديه تمّ تجنيد المهندس الشهيد يحيى عياش. كان هذان الأخوان عند الأخ محمود عيسى في العزل، وكان وجودهما عقاباً، وقد أخبراه بأنه سيكون من المفرج عنه، ولكن ما حدث غير ذلك، فقد أُفرج عنهما، وبقي محمود عيسى يرزح في زنزانة عزله يتعرض لشماتة الإدارة التي حاولت استفزازه كثيراً؛ وقد حدثني كيف جرت أموره هناك، وكم كان الأمر مؤلماً وصعباً عليه، ومع ذلك، وعلى الرغم من كلّ ما حدث، وبفضل الله تجاوزنا هذه المرحلة، وخرجنا منها بأفضل حال، متوكلين على الله.

كان أبو البراء يتواجد في زنزانة بعيدة، ومع ذلك كنت أقضي الساعات، وأنا أتحدث معه، نضحك، نقرأ المأثورات، نتناقش في كل المواضيع، وكان يقرأ لي الكثير من أشعاره التي يكتبها، وهو صاحب موهبة شعرية، وصاحب قلم، وله كثير من المؤلفات المتنوعة في عجائب القرآن وإعجازه، بدأت آخذ معه دروساً في الشعر، وفعلاً قطعنا شوطاً كبيراً في ذلك، وكنت أكتب بعض الأبيات، وأقرؤها عليه، فيضحك مني، ويخبرني أن هذا ليس بشعر، ولكنه كلام مسجوع أو موزون لا أكثر ولا أقل؛ كنت أتذوق الشعر، وأحب سماعه، ولكنني لم أكن أجيد تأليفه، ولم أستطع أن أكتب إلا بيتاً واحداً أجازه لي، كتبت عليه: أول بيت شعر أكتبه! وهو على البحر الكامل:*

يا طالب الخلود في حياتك تفنى الحياة ويخلد العمل

بعد فترة من وجودنا في هذا العزل أحضروا عندنا الرفيق أبو غسان، وتمّ وضعه عند الأخ محمود عيسى، وقد طلبنا من الإدارة أن يتم تبديلنا بحيث يكون أبو غسان مع الرفيق عاهد، ويأتي الأخ محمود عيسى عندي، وخصوصاً أن شهر رمضان

* البيت ليس من الكامل، وهناك مشكلة في الوزن فلعله نُقل من الأصل (المخطوط) دون تدقيق.

على الأبواب، ولكنهم رفضوا ذلك، فقد كانوا يرفضون نهائياً أن يسمحوا لي بالعيش مع أبو البراء، ونحن كنا أقدم معزولين، ومع ذلك لم نتمكن من العيش معاً على الرغم من وجودنا في القسم نفسه، و في الفترة نفسها. استمرت حياتنا كالمعتاد لا جديد فيها سوى ما يحدث بعض المرات من مشاكل بين الأسرى الجنائيين فيما بينهم أو بين الإدارة، ومرات كثيرة يمسّنا من "الحُبّ" جانب، فنجد أنفسنا في قلب معركة لا دخل لنا بها.

كانت أقسام العزل أشبه بالسوق لا هدوء فيها في الليل أو النهار، يكفي أن يكون عندك في القسم أسير جنائي واحد حتى يسلبك الهدوء والراحة من أجل أن يحصل على سيجارة؛ تَعجَبُ من جلَد هؤلاء، فهم لا يكلّون ولا يملّون، وحتى لا ينامون، عالم غريب بمعنى الكلمة! عشنا فيه، وتعايشنا مع أهله، وحاولنا بقدر ما نستطيع المحافظة على أنفسنا بما نملك من قوة إيمان وإرادة. ولكن بعض إخواننا وللأسف لم يستطيعوا تحمل هذه الأوضاع فضعفوا، ونال هذا العزل من نفسياتهم البريئة، فأصبحوا مرضى، فكان علاجهم مزيداً من القهر لهم من قبل هذه الإدارة الفاشية التي تستهدفك في كلّ لحظة، يعملون ليلاً ونهاراً من أجل النيل منك، من أجل تحطيمك، ليس لهم علاقة بالإنسانية، بل ليسوا من البشر، هم حيوانات مفترسة وظيفتها أن تنهشك، لذلك يجب أن تكون مستيقظاً باستمرار، واعياً لكل ما يدور حولك، متوكلاً على الله، فهو الحافظ والحامي.

تأتي عليك لحظات في العزل تملّ من كل شيء "تكون قرفان"، تريد أن تعيش مع محيطك، تتحدث، تناقش، تضحك، تمشي، تشعر أنك بين إخوانك، لكن ما العمل، وما الحل! إن لم تخرج من هذه الحالة، وتستسلم لها فأنت حينها في خطر، فوراً عليك أن تلجأ إلى الله، تصلي له، وتدعوه، وتطلب العون منه، وتبكي في حضرته، وأنت ساجد، تستمد منه القوة، حينها ستشعر أنك تملك إرادة تستطيع بإذن الله أن تواجه كل الصعاب. إياك أن يكون اعتمادك على نفسك فقط، فأنت ضعيف جداً أمام ما يملكون! كن دائماً متسلحاً بسلاح الإيمان! حاوِل أن تتعرف على نفسية عدوك من خلال كتاب الله الذي قصّ علينا أفعال هؤلاء، وحذرنا من مكرهم وألاعيبهم! تعاملْ معهم بنوع من أنواع التحدي، واعتبرها معركة مفتوحة بينك وبينهم! وقتها ستحرص

كل الحرص على أن تكون منتصراً، ولكي تحقق ذلك ستبحث باستمرار عن عناصر وعوامل النصر، وبإذن الله وتوفيقه ستجدها كاملة داخلك، فأنت تملك في داخلك من الإرادة التي إن أيقظتها في وقتها بما تتشرّبه من حلاوة الإيمان تستطيع أن تواجههم، وأن ترعبهم أقلّها أن تضع حداً للكثير من ألاعيبهم.

إضراب الكرامة والخروج من العزل:

في هذه الحياة التي أطلقنا عليها حياة البرزخ تحدث كثير من القصص لا تستطيع الإلمام بها في صفحات هذا الكتاب، لأننا نعيشها كل يوم، وتستمر معنا لأعوام، فلقد أصبح لنا في هذا العزل الآن، وبشكل متواصل عشرة أعوام، بل أكثر! فكم يوم في هذه الأعوام! وفي كلّ يوم قصص وأحداث ومآسٍ وآلام وصعوبات نؤثِّر فيها مرات، ولكن في أغلب الأحيان تترك هي تأثيرها على نفسياتنا، فكل منا على حسب قوة مقاومته يحاول الحفاظ على نفسه سليماً حتى يأذن الله لنا بالفرج والخروج من هذا العزل.

آهٍ كيف لنا أن نخرج من هذا الجحيم، وكأن أبوابه أغلقت علينا، فكُتب لنا أن نعيش أعمارنا في هذه الزنازين زنازين الموت! قد يسأل أحد، ويقول: ولماذا لم تقوموا بخطوات للخروج من هذا العزل؟ وهل مثلنا لم يحاول! فقد حاولنا، وبذلنا كل ما نستطيع، ولكن كان هناك رفض نهائي لخروجي وخروج بعض الإخوة، لأنهم يصنفوننا حسب تصنيفهم أننا خطيرون، لدرجة أن بقاءنا في العزل يحتاج إلى عزل آخر، فكيف بكم تريدون منهم أن يوافقوا على أن نخرج، ونكون مع باقي الأسرى! خروجنا يحتاج جهداً كبيراً، وخطوات تشارك فيها كل السجون حتى يكتب لها النجاح، وهذا فعلاً ما كنّا ننتظره، ولكن بعد أن تمت صفقة وفاء الأحرار، وخرج الكثير من إخواننا الأسرى، وتُركنا في العزل أصبح أملنا بالخروج ضعيفاً؛ لأن كثيراً من قيادات الحركة الأسيرة أُفرج عنهم، وهم أصحاب خبرة وتجربة. وكيف الآن! وهل يستطيع مَن بقي القيام بشيء! لذلك أغلقنا هذا الملف، ولو مؤقتاً حتى نرى ما سيحدث في عاجل الأيام، واهتممنا أكثر بتحسين واقعنا في العزل بقدر ما نستطيع، ولكن قدر الله كان غير ذلك، وإتمام الصفقة كان فيه الخير الكثير، فقد تداعى الأسرى الذين لم يُفرج عنهم، وصمّموا أن يقوموا بأول خطواتهم ضدّ الإدارة حتى يحافظوا على قوتهم، وبدأوا يرتبون، ويتشاورون، ويتراسلون من أجل القيام بخطوات

كبيرة لخروجنا من العزل. وقد راسلونا من خلال المحامي الذي كان يزورنا، وبثّوا الأمل في نفوسنا، وقالوا لنا: ترقبوا، وشاهِدوا ماذا سيحدث! بل أكثر من ذلك طالبونا بعدم المشاركة بأي خطوات قد يقومون بها حتى لا نتعرض لغضب الإدارة وعقابها في حال فشلت خطواتهم، وتمّ تحديد موعد الانطلاق في بدء الإضراب المفتوح عن الطعام، وذلك في ذكرى يوم الأسير الفلسطيني 2012/4/17.

يعلم الله كم كنا سعداء بهذه النفسيات، وبهؤلاء الإخوة الذين شغَلَهم وضعُنا، وشعروا أنهم قصّروا معنا، لذلك أرسلنا لهم أننا سنكون في أوائل الداخلين إلى الإضراب، لأن المعركة معركتنا في الأساس، وفعلاً تمّ ترتيب كل شيء من قبل قيادة الإضراب، والتي كانت قيادة وطنية تضم كل الفصائل، كل فصيل ممثل في هذه القيادة على حسب نسبته، واتفقوا على شيء واحد: إخراج المعزولين، ولا رجوع عن ذلك! وكتبوا ميثاق شرف، وأقسموا على ذلك، وجيّشوا القواعد، واستنهضوهم، وأشعلوا هممهم، وشرحوا لهم تفاصيل خطّتهم، وأن أي أخ يقرر الدخول في الإضراب سيصبح حراماً عليه الرجوع مهما كان الثمن إلا بأمر من قيادة الإضراب، وأرسلوا لقياداتهم في الخارج من أجل مناصرتهم ومساعدتهم، والوقوف بجانبهم، وتجييش الرأي العام ضدّ هذا الكيان. وبدأ الإضراب في 2012/4/17، وبدأ العد التنازلي لبقائنا في العزل، وشاركنا متوكلين على الله مُقسمين أن لا رجوع حتى إنهاء العزل، وقد مارست إدارة السجون أبشع أساليبها ضدّ الحركة الأسيرة، واستخدمت كلّ إمكانياتها من قمع وتنكيل ونقل،... لم يتركوا شيئاً لم يفعلوه، مارسوا وحشيتهم وساديتهم وعربدتهم في وجه أسرى لا يملكون إلا إيمانهم بربهم، وبعدالة قضيتهم، وإرادة لا تلين، وهانت أمامها كل الصعاب. وبعدها انتقلوا إلى أسلوب الحديث والمفاوضات والتفاهمات، وطرحوا حلولاً كثيرة، كانت كلها لا تضمن خروج كلّ المعزولين، فرُفضت كلها، وكنا في العزل نعيش أوضاع باقي الأسرى نفسها، بل أسوأ، ونتعرض لأضعاف ما تعرضوا له.

تمّ نقل الرفيق أحمد سعدات (أبو غسان) إلى المستشفى لتدهور حالته، وكان الرفيق عاهد عندي، ووضعه صعب بشكل كبير بسبب الصداع النصفي الذي يصيبه، وقد دخل في حالات إغماء شعرت في لحظة من اللحظات أنه أصبح قريباً

من الموت؛ صرخت عليهم، فعندما جاؤوا وقفوا متفرجين طالبين منه فكّ إضرابه فرفض، وبذلك هم رفضوا معالجته. هذا الإضراب قرّبنا جداً من بعضنا، وعزّز صداقتنا، وما زلنا نذكر هذه الأيام الصعبة، وكيف كانت، وكيف مرّت! ولكن كيف لهؤلاء شذاذ الآفاق أن يستطيعوا كسرنا! الموت أهون علينا! كل يوم كان يمضي من عمر الإضراب كان يقرّبنا من الفرج، ويزداد الأمل. ومن عجائب القدر أنْ سخَّر لنا بجانبنا سجناء يهود من المافيا كانوا هم مصدر أخبارنا، يسمعون ما يتم بثه، ويخبروننا عن كلّ شيء بالتفصيل، فكنا على الرغم من انقطاعنا عن العالم، لأنهم صادروا كل شيء من عندنا، كنا على معرفة بكل شيء من خلال هؤلاء.

في مرحلة من مراحل الإضراب جاؤوا وأبلغوا أخانا محمود عيسى بالخروج من العزل، وفعلاً تمّ نقله إلى سجن هدريم، ومع ذلك استمر الإضراب حتى الموافقة على إخراج الجميع. حافظتْ الحركة الأسيرة على قوتها وثباتها وصمودها، وتحدّت كل وحشية العدو بصفّ قويّ وموحّد، وبقيت كذلك، وصامدة كالصخرة، حتى انتزعت منهم الموافقة على خروجنا من العزل جميعنا؛ هذا فعلاً ما تمّ، وقد تكلل هذا الإضراب الذي أطلق عليه إضراب الكرامة بالنجاح، وقد استمر 28 يوماً متواصلة، سطّرت الحركة الأسيرة فيه أروع وأنبل مواقف العزة والكرامة، وكان نصراً كبيراً له ما بعده.

وفي اليوم الأخير لهذا الإضراب، ونحن نترقب ماذا سيحدث! وكانت الجلسة الأخيرة منعقدة بين قيادة الإضراب وضباط مصلحة السجون، أخيراً أمطرت السماء ماءاً منهمراً، ووصلت البُشريات تزفّ لنا خبر الموافقة على خروجنا من العزل، وقد رفضنا فكّ إضرابنا إلا بقدوم أحد من قيادات الإضراب، وهذا ما كان متفقاً عليه. كنت يومها لوحدي في الزنزانة، فقد كان الرفيق عاهد قد تمّ أخذه ليمثّل الجبهة الشعبية في جلسات التفاوض، وإذا أحدهم ينادي عليّ من فتحة باب الزنزانة. وكم كانت المفاجأة عندما كان القادم الأخ أكرم القواسمي ابن قضيتي وصديقي، وكان وقتها ممثل السجن في ريمون، جاء رغماً عن الإدارة وبالاتفاق مع قيادة الإضراب ليخبروني بنجاح الإضراب، وأن خروجنا من العزل أصبح أكيداً. وأنهم ما زالوا ينتظرون الأخ مهند شريم أحد قيادات الإضراب من حركة حماس عن

سجن ريمون، وطلب مني فك إضرابي بقليل من السوائل، أو انتظار قدوم الأخ مهند لكي يؤكد ذلك، ففضلت انتظار قدوم الأخ مهند شريم أبو مجاهد. وكم كنت مشتاقاً لأخي أكرم أبو مالك رفيقي وصديقي وابن قضيتي، ووجدتها فرصة أن أسأله عن أوضاع السجون، فأخبرني بشكل سريع، وسألته عن شريكنا في القضية الأخ أيمن الرازم: ما أخباره؟ فكانت المفاجأة أنه تمّ الإفراج عنه في الصفقة، ولم أكن أعلم بذلك، ففرحت جداً، وتألّمت لعدم معرفتي.

كان لقائي مع أكرم أبو مالك لدقائق من خلف الباب، وحوله ضابط الاستخبارات، ودّعني، وعاد إلى الأقسام، وجلست أنتظر قدوم الأخ مهند شريم أحد قيادات الحركة، وهو أخ فاضل من طولكرم محكوم بالمؤبدات لمشاركته بعملية التفجير التي حدثت في فندق بارك، وهو صديق عزيز.

آه ما أجمل شعور النصر! أمامه تهون كلّ المشقّات، وتصبح كل الآلام في لحظة واحدة آمالاً بفجر جديد؛ ما هي إلا ساعات حتى سمعتُ جلبة في الخارج، وإذا بباب القسم يفتح، ويدخل الأخ الحبيب مهند شريم (أبو مجاهد) شامخاً كعادته يضحك، ووقف على باب زنزانتي، وبصوته الذي أعرفه يناديني "حسن خلصنا، ستخرج من العزل رغماً عنهم!". تعني هذه العبارة أنني سأعود إلى الحياة، سأخرج من مقابر الأحياء، سيفرج عني ولو مؤقتاً حتى أتنفس، وأشعر أنني ما زلت إنساناً يعيش مع أمثاله، يتمتع ببعض الهواء، يرى الشمس ولو من خلال أسلاك، يصلي صلاة الجماعة التي حُرم منها، يعود إلى صلاة الجمعة، يُكبّر تكبيرات العيد، وقد يُسمح له بزيارة الأهل والوالدة؛ بعد هذه الأعوام الطويلة لا أعلم: هل سالت دموعي، أم أنها من شدة الضحك! حمدت الله، وسجدت له شاكراً، وسلّمت على أخي أبو مجاهد. وما زلت أحفظها له في داخل قلبي حباً واحتراماً وتقديراً، ضاحكني، وتحدّث معي ببعض الكلمات، وودّعني عائداً إلى الأقسام. ودخل وقتها عندي الرفيق عاهد أبو غلمة (أبو قيس)، فقد جاء أيضاً، سلّمت عليه، وهنّأته بالسلامة، وكان وضعه صعباً، فوراً طلبنا من الإدارة أن يحضروا لنا بعض الأشياء المسموح تناولها، وكعادتهم ماطلوا حتى تمكنّا من أخذ بعض الشوربة والشاي الساخن. كان الرفيق عاهد متعباً فوضع رأسه ونام، وجلست أنا جانب النافذة أنظر من خلالها للسماء، وأحلم بغد قد يكون أفضل.

كان انتصار الأسرى قد تمت تغطيته في كلّ وسائل الإعلام، وهذا أغاظهم، ولذلك كنا متخوّفين من عدم التزامهم بالاتفاق، وهذه عادتهم، وهذا تاريخهم! ولكن بفضل الله، وبقوة الصبر الذي أظهرها الأسرى، وبفضل قوتهم ووحدة موقفهم، التزمت الإدارة بهذا الاتفاق، وكان ينص على إخراجنا من العزل خلال 73 ساعة. اتفقنا أن أذهب إلى سجن يتوفر فيه تواصل حتى أستطيع التواصل مع الأهل، ومع خطيبتي التي كانت تنتظرني بفارغ الصبر، وشاركتني همومي وساعات الإضراب.

كانت الأيام الثلاثة طويلة جداً، حاولتْ خلالها الإدارة أن تُشعرنا بعدم حدوث شيء، ورفضوا أن يجيبوا عن أي استفسار لنا؛ ومع ذلك وعلى الرغم من هذه التخوفات كانت هذه الأيام الثلاثة أيام فرح وسرور وسعادة، عشناها، وعاشها معنا مَن كان حولنا من سجناء جنائيين يهود وعرب، وقد شكرناهم على ما قدَّموه لنا، وكانت فرحتهم كبيرة بانتصارنا على هذه الإدارة، فهم أسرى مثلنا، ويعيشون المعاناة نفسها، ويعلمون ماذا يعني الخروج من العزل.

كتبتُ في هذه الأيام صفحات كثيرة عن مشاعري وأحلامي، وكنت باستمرار دائم التسجيل لكل شيء، وفي اليوم الأخير في هذه الأيام الثلاثة، وفي الصباح أبلغونا أخيراً بأن نجهز أنفسنا، لأننا سنخرج من العزل إلى الأقسام، وأخيراً جئنا عند لحظة الحقيقة، واكتمل النصر بفضل الله، فهو صاحب الفضل أولاً وأخيراً. أبلغوني أنني سأتوجه إلى سجن نفحة، والرفيق عاهد سيتوجه إلى سجن هدريم، وفعلاً ودّع كلّ منا الآخر، وخرجت وكأنه يوم للفرج، مع علمي أنني ذاهب إلى السجن، ولكنه مع المقارنة بحياة العزل يعدّ فرجاً كبيراً، وما حدث معي بعد ذلك من قبل إخواني الأسرى داخل السجن أنساني همومي وآلامي. فقد وصلت الى سجن نفحة، ووضعوني في غرفة الانتظار، وبعد قليل وصل أسرى آخرون من سجون أخرى، كانوا قد شاركوا بالإضراب، وكان معهم أيضاً الأسير المعزول الأخ الحبيب أحمد المغربي (أبو محمود)، وكم كانت سعادتي وفرحتي به وبهم، سلمنا على بعض، وحمدنا الله على هذا الانتصار. وبعد الانتهاء من إجراءات التفتيش أخذونا إلى الأقسام، وقد سبقتنا أخبارنا، وما أن صعدنا إلى القسم، وفُتح لنا، وإذا بأصوات التكبير والتهليل من جميع الأسرى الذين أحاطونا، ورفعونا على الأكتاف، وهم يهتفون ويهللون، آهٍ ما أجمله من مشهد، وما

أجملها من لحظات تنسيك كل آلامك وكل همومك! وأنت بين إخوانك يحتفلون بك، وقد تمّ تصوير كل شيء من خلال ما يملكه الأسرى من أجهزة يتم تهريبها، وقد نزلت هذه المقاطع على الإعلام، وشاهدها الجميع، وشاهد مظاهر الفرحة والسرور.

وأخيراً أنت الآن بين إخوانك، وسط محبّيك، مَن ضحّوا من أجلك، وجاعوا، ومرضوا، وتحملوا كلّ شيء من أجل هذه اللحظة، والآن يعيشونها، ورؤوسهم مرفوعة، يكبرون: الله أكبر، تكبيرات العيد، فهذه هي أعيادنا نحققها بسواعدنا وقوة إيماننا وصلابة مواقفنا، كان ذلك اليوم مشهوداً ما غاب عن ذاكرتي، ولن يغيب. دخلت إلى الغرفة التي سأسكن فيها، وجلسنا وسط أحبابنا وخصوصاً أخونا الكبير محمد جمال النتشة (أبو همام) الذي احتضننا؛ وفوراً طلبوا منا أن نتواصل مع الأهل، ولأول مرة سأتحدث فيها مع أهلي، ومع الوالدة، ومع خطيبتي. وكم كانت لحظات سعيدة، وأنا أسمع صوت أمي، وهي تزغرد عبر الهاتف، وتبارك، وتهنئ! حمدت الله على هذا الانتصار، والآن جاء دور حديثي مع خطيبتي التي ما سمعتْ صوتي، وكانت تعلم بقدومي، لذلك ما أن اتصلت بها حتى صمتت، تريد أن تعيش مع هذا الصوت الذي حُرمت منه، سمعتُها تبكي، وحاولتُ بقدر ما أستطيع إضحاكها، فضحكتْ، تحدثتُ معها بكلمات قليلة، على أن أعود من جديد للحديث معها؛ تحدثتُ معها رغماً عنهم؛ لكنهم وحتى الآن، وحتى كتابة هذا الكتاب يمنعونها من زيارتي على الرغم من مرور أكثر من 11 عاماً على خطوبتي، لم تتمكن من زيارتي، يرفضون ذلك. وبإذن الله كما كان حديثي معها انتصاراً وانتزعناه انتزاعاً رغماً عنهم، سيكون لقائي بها رغماً عنهم بانتصار أعظم، وأكبر بصفقة وفاء أحرار جديدة تفك أسرنا، وتكسر قيدنا، وتعيدنا إلى الأهل!

يومها يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء.

الخاتمة

يقول تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (سورة الإسراء، الآية 4).

وهل هناك أكبر من هذا الإفساد الذي يقوم به هذا الكيان بما يرتكبه من قتل وتشريد وظلم لأبناء الشعب الفلسطيني، وما حدثتكم عنه جزء يسير من هذا الظلم الذي يتعرض له أبناء شعبنا في كلّ أماكن تواجده، من أجل طمس هويته، وإلغاء وجوده، وتحطيمه حتى إنهائه؛ لأن مجرد وجودنا وصمودنا في أرضنا حتى في سجونهم لأكبرُ دليل على زيف روايتهم، فهم يخافون من هذا الصمود، لذلك يستخدمون كل عتادهم وعدّتهم من أجل تحطيمه، وما يمارَس معنا في هذه السجون، وفي أقسام العزل الانفرادي خاصة، ما هو إلا صورة من صور كثيرة تجري أحداثها في أماكن أخرى، يُشعرون أنفسهم بأنهم فوق الجميع، إنه العلو الذي جعلهم يكررون إفسادهم من جديد ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ (سورة الإسراء، الآية 5).

هذه معادلة الصراع مع هؤلاء! كل ما تكرر إفسادهم يرسل الله لهم من يضع حداً لهم، وبإذن الله سنكون نحن أبناء هذا الشعب الفلسطيني من يضع هذا الحد لهذا الإفساد الذي لن يطول، لأن علوّهم وصل إلى أعلاه، وإفسادهم كذلك. فنحن وعلى الرغم مما يمارس ضدنا في كل بقاع فلسطين المحتلة، وخصوصاً في القدس والمسجد الأقصى على موعد مع النصر والتحرير، وما هذه الابتلاءات التي نمرّ بها إلا وقود حرب قادمة ستكون لنا الغلبة فيها بإذن الله، فهذا وعد الله لعباده المؤمنين.

الآن وأنا أكتب هذه الكلمات أعيش خارج أقسام العزل، ولكنني ما زلت أسيراً، ومعي مئات من إخواني الأسرى نتجرع مرارة السجن وآلام البُعد والحرمان، ولكننا على موعد مع الحرية قريبٍ بإذن الله، فهذا عهد المقاومين المخلصين لنا الذين يصِلون الليل بالنهار من أجل إعداد العدة لتحريرنا، وتحرير الأرض والأقصى، وهو وعد الله لنا بالنصر والتمكين. وكما كان خروجنا من العزل الانفرادي بعد قضاء 14 عاماً فيه

أنا ومجموعة من إخواني الأسرى الذين ذُكرت أسماؤهم، وكان خروجنا انتصاراً كبيراً في معركة الأمعاء الخاوية معركة الكرامة في 2012/4/17 فسيكون تحريرنا قريباً في صفقة وفاء أحرار تكون نصراً كبيراً من كتائب القسام، وفصائل المقاومة، وسيحتفل شعبنا الفلسطيني باستقبال أبطاله، بإقامة الأعراس في كل أماكن هذا الوطن المحتل، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (سورة الإسراء، الآية 51).

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ !(سورة هود، الآية 81).

أخوكم الأسير حسن عبد الرحمن سلامة

من سجن بئر السبع (إيشل)

2021/5/1م

19 رمضان 1442هـ

الملاحق

بعض من رسائل الأسير حسن سلامة من زنازين العزل الانفرادي والتي خرجت إلى الإعلام

ملحق رقم 1:

الرسالة الأولى

تحية وألف سلام؛

الأحبة الكرام!

يا من تسكنون ذلك العالم الكبير الذي نسمع عنه دون أن نراه!

مكاني عالم صغير نحيا فيه مرارة الاعتقال والعزل؛ في هذا المكان الضيق الذي يضيق أكثر وأكثر، كم يحلو لنا أن نتذكر ذلك الزمان الذي مضى، والذي قد يكون هو الصورة الأجمل التي ما زلنا نحملها في قلوبنا وعقولنا!

... كم أتمنى أن يعود ذلك الزمن الجميل، يوم كنا صغاراً كلنا براءة، لا نعرف الكره، كان احترامنا للكبير شيئاً مقدساً، وكأنه آية من القرآن.. أتذكر عندما كنا نعود من المدارس، وتبدأ حملة تفتيش الحقائب على الدفاتر والكتب المرتبة، وكنت دائماً أكون الأكثر ترتيباً! كم أتمنى أن أعود إلى بيتي وشارعي ومدينتي... كل شيء نشتاق إليه، أنا لست معزولاً فقط، بل محروم من أن أعيش مع أي صديق من منطقتي، أتحدث معه عن غزة أو خانيونس، أو ذكريات الطفولة... شكلي قد كبر، ولحيتي شابت، لكنني أعيش وكأنني طفل، أحنّ وأشتاق لكل شيء!

أيها الأحبة! هم يريدون عزل ذاكرتي، إخراجي من عالم البشر، ووضعي في عالم الأموات، لكي بعد سنوات طوال يصِلون بأحدنا إلى ذاكرة جديدة ليس لها علاقة بالبشر، رسالتي هذه هي وسيلتي الوحيدة للمحافظة على نفسي، لحظات سعادتي في هذا العزل هي عندما أكتب رسالة أو تصلني من الخارج رسالة؛ أجلس كطفل

صغير على فراشي، وأحشر نفسي في الزاوية، وأقرأ رسالة جاءت من عالم الأحياء عالمِ البشر.

كيف وصلت، بأي طريقة! لا يهم، المهم وصلت، بمجرد استلامي لها أشعر أنني ما زلت أنتمي لكم، أشعر بأنني ما زلت حيّاً، أقرأ كل كلمة، وكل حرف، وكأنني أتناول إكسير حياة يعيدني للحياة، وينتشلني من بين الأموات.. هكذا هي رسائلكم وسماع صوتكم!

أبحث عن وسائل مساعدة حتى أبقى حياً، أتنفس، والله ثم والله إنكم الأكسجين الذي أتنفس من خلاله، إن وصلني تنفّست، وانتعشت؛ وإن انقطع عني عُدت جثة بين جثث تتحرك، كما في أفلام الأموات التي تتحرك بعوامل معينة، لكن لا روح ولا نفس، فقط جسد يسير، ويمشي.

تسع سنوات متواصلة تنقلت فيها بين قبر وقبر، أمكث في القبر 23 ساعة، وأخرج ساعة لقبر أوسع قليلاً، لكن ما زلت بفضل الله قوياً، وأملك إرادة صلبة، وكل ما أنا فيه من أجل تحطيم هذه الإرادة باستخدام أحدث ما توصل إليه علم النفس؛ أمامي، وبجانبي أصدقاء كانوا ما أجملهم، فجنّوا، وأصبحت حالتهم يرثى لها!

وصدِّقوا: إنّ ما أنا فيه من قوة وثبات هو بفضل الله.. أبداً ليس لي فيه أيّ فضل، هو وحده من يقف معي؛ حتى أنتم من أحبهم! شغلتْكم همومكم ومشاكلكم عن أن تتواصلوا معي، ولو لحظات، هي عندكم دقائق معدودة كل أسبوع، لكنها عندي الحياة بأكملها الدنيا؛ التحدي الأكسجين.

أحدكم عندما يملّ يذهب لأي مكان، أو يزور صديق طفولة يتحدث معه، فما بالكم بمن مفروضٌ عليه أن يتحدث مع نفسه، ويعيش معها ذكريات يحنّ إليها؛ مسكت قلمي حتى أتحدث معكم، ووجدت نفسي كالجائع أو العطشان لأن يتحدث بما يجول في نفسه.

ومشكلتي أنني لا أبكي! وأحبسُ دمعتي لكي تنزف دماً في قلبي، أصبحتُ أستمتع بنزف القلب، وأشعر أن دموع القلب تعقّم جروحي، وفي نفس الوقت أتركها تزيد من ألمي.. لأنني لا أريد أن أنسى الآلام، لا أريد أن أنسى أوجاعي! أريدها أن تؤلمني كل

دقيقة؛ هي بركانٌ، كل يوم أريده أن يغلي، حتى لا أنسى من أنا ومن هؤلاء! حتى أشعر بأنني ما زلت من بني البشر، وما زلت من الأحياء!

كم سيتكلف أحدكم من الوقت إذا تحدث لدقائق معدودة، كل أسبوع أو أسبوعين، أو كتب رسالة مع محامٍ أو على البريد، وهو يشعر بأنها ستقوّي وتعين سجيناً معزولاً، هي عنده حياة جديدة.

لو كنت أملك شراء دعمكم لي ولمن هو مثلي من الأسرى بكل ما أملك والله ما قصّرت!

وهي كلمات نطق بها وجعي من هذا الزمن!

إلى أصحاب العالم الآخر، ذلك الذي نسمع به ولا نعيشه!

أتمنى لكم من كل قلبي التوفيق، وسأبقى أحبكم، ولو نسيتموني فعزائي أن لي رباً اسمه الكريم لن ينساني ربّي!

إن الله جميل جداً، وأنا أعيش وفق هذا الجمال في كلّ شيء في حياتي حتى في عزلي، ورغم همومي ومصاعب الحياة ومصائبها.

أخوكم الأسير حسن سلامة

عزل أيالون

ملحق رقم 2:

الرسالة الثانية

رسالة الأسير حسن سلامة من مقابر الأحياء، من قبره رقم 9 في عالم الأموات

من العالم المجهول بالنسبة إليكم، الأحبة الكرام!

يا من تسكنون في العالم الذي لا نعرفه، من زمن تلك الرسالة الأولى، التي وصلتكم من مقابرنا في عزلي في سجن أيالون – الرملة فاتحاً لكم قلبي الذي حدثكم عن عالمنا، عالم الأموات، عالم المعزولين في مقابرنا الخاصة التي فُصّلت لنعيش فيها الحرمان والنسيان، عالمنا الذي يتوسط بين الحياة والموت، وإن كان للموت أقرب، حتى إنه يحلو لبعضنا أن يطلق عليه عالم البرزخ.

رغم ذلك وصلكم صوتنا يحدثكم عن أوضاعنا وأوجاعنا وآلامنا، لا لننال شفقة علينا، ولكن لنتقوّى بكم، ونشعر من خلالكم أننا ما زلنا ننتمي لكم، ولو عبر رسالة هي، كما أخبرتكم، دليل شاهد على أننا ما زلنا أحياء، فإن وصلتكم رسالتي هذه، وهي الثانية من عالمنا، ومن داخل مقابرنا في عزل عسقلان، فهي دليلنا الثاني على أننا ما زلنا أحياء في عالم الأموات. في هذه الرسالة وعبر هذه الكلمات لن أحدثكم عن أشواقي لحياتكم التي لا نعرفها! عن شمسكم، هل ما زالت تشرق كل صباح، ولها غروب!! وهل ما يزال الشفق أحمر وقت الأصيل! أتذكر أنني كنت أرقبها في الماضي البعيد وقت الغروب، وأقف أمام البحر وهي تختفي؛ وقتها كنا نقول ابتلعها البحر! فهل ما يزال البحر قادراً على ابتلاع الشمس؟! عن القمر، هل هو جميل، أم أنكم تعيشون مثلنا بلا قمر ولا نجوم وبلا غيوم! لكننا ما زلنا نسمع صوت المطر، فيعود بنا إلى تلك الأيام الجميلة، يوم كنا نلعب، وحباته تتساقط علينا، كنا صغاراً، وكانت لنا أغانينا الخاصة للمطر!

صلاة الجمعة، هل ما زالت تقام في عالمكم! فأنا لم أصلها منذ سنوات، لكنني ما زلت أتذكرها، وأتذكّر هذا اليوم الجميل، وما زلت أيضاً أشتاق لصلاة الجماعة التي أصليها لوحدي، فهل أنال الأجر؟!

الأعياد، هل زاد عددها عندكم! كنت أتذكر في ذلك الزمان عيد الفطر وعيد الأضحى! فأنا منذ سنوات رغم وجودي، في عالمي الخاص الذي يبعد كثيراً عن عالمكم، ويختلف عنه في كل شيء أحتفل بنفسي في هذه الأعياد، وأستيقظ باكراً بعدما أصلي الفجر، أجلس أمام باب قبري، وأبدأ بالتكبير، فلا أسمع إلا صدى صوتي يؤنس وحدتي، وبعد الصلاة ينتهي عيدي، وأعود لحياتي، وأتناول حلويات أصنعها من الخبز والسكر!!

أشواقنا كثيرة، وأحلامنا جميلة، وعالمنا خُصِّص ليقتل الحياة فينا، بل ويريدون فوق ذلك مسح ذاكرتنا وإلغاء ماضينا، حتى نصبح بلا حركة، بلا أرض، بلا وطن، بلا فلسطين، أغبياء هم، أغبياء لأنهم يجهلون أننا معجونون بحب تراب هذه الأرض "فلسطين".

أمّا ما سأحدثكم عنه، في هذه الرسالة، فهو شوق من نوع آخر لمعاناة من نوع خاص، فهل تصدقون أننا نشتاق أن ننام، ونعاني أننا لا ننام مثلكم، رغم أن عالمنا قائم على النوم الذي يوصل إلى الموت البطيء، ومع ذلك فهذه معاناتنا!!

هو قبر صغير يعيش كل منا في داخله، معزولون متجاورون أو متقابلون، لهذا القبر باب مغلق تماماً، ولهذا الباب في أعلاه طاقة صغيرة، وهي مغلقة أيضاً، تُفتح هذه الطاقة وتُغلق من الخارج، ومع هذه الطاقة تكمن معاناة منعنا من النوم، فهي تفتح وتغلق طوال الوقت بيد السجان، نهاراً ليلاً.. كم مرة؟ لا أدري! لكنها مرات كثيرة في الساعة الواحدة، يراقبوننا من خلالها، ويتحدثون إلينا عبرها؛ ورغم صغرها تجد عليها قضبان من الحديد، هذه الطاقة، ولأنها من حديد، فمهما حاولت فتحها بهدوء يكون صوتها عالياً جداً، داخل قبر، فكيف وهي تفتح وتغلق بكل حقدهم وكرههم وعنصريتهم وساديتهم.

لكي تعلموا أصلاً مقابرنا التي نعيش فيها، هي من ضمن مقابر يعيش فيها سجناء جنائيون يهود، معظمهم موجودون على قضايا مخدرات، وعملهم الوحيد الطرق على باب المقابر، والصراخ والسب والشتم... بشكل مستمر للحصول على ما يهدئهم من أدوية، لكننا مع الفترة نتعايش مع هذه الضجة، ونعيشها كموسيقى، خاصة إن كانت من سجناء يعانون، حتى ولو كانوا يهوداً جنائيين.

بالرجوع إلى الطاقة التي تبدأ معاناتنا معها، من صباح اليوم حتى صباح اليوم الثاني، على مدار الساعة، وتزداد هذه المعاناة ليلاً، والسجانون يتفننون في فتحها وإغلاقها بكل قوتهم؛ ولا يكتفون بذلك، بل يسلطون ضوء بطارياتهم الليلية على وجوهنا، حتى يتأكدوا أننا لم نزل في مقابرنا.

أذكر في الشتاء ومن شدة البرد، اختفيت داخل الغطاء، وفي جولات السجان الليلية، وبعد طرقه الشديد أضاء القبر ببطاريته، وأخذ يبحث عني، ولكي أرتاح أخرجت له قدمي من تحت الغطاء، ووصلته الرسالة، فتركني، وغادر، ولكن بعد أن أغلق الطاقة بساديته المعهودة! فما رأيكم لو أجريت تجربة في عالمكم! وقِّتوا ساعة نومكم، أو مذياعكم، أو التلفاز الذي يخصكم، أو جوالكم وقت خلودكم للنوم ليُسمعكم كل نصف ساعة موسيقى جميلة، وليكن ذلك في اليوم [لمدة يوم] أو أكثر أو أقل، وليس لسنوات! أخبروني إن أردتم كيف كان نومكم، وكيف كانت أحلامكم!

عيشوا معنا قليلاً، وتصوّروا أن هذه حياتنا لسنوات! فأحلامنا كنومنا، مقطوعة ومتقطعة، ونأمل أن يكون وصلها قريباً.

بجانبي، أو بجانب قبري، قبر لسجين أمني مثلي، لكنه مريض نفسي يعرفني جيداً من سنوات العزل، يوم أن كان سليماً، ينادي عليّ كثيراً، وأنا أعلم أنه لا يعي شيئاً، وأعلم أنني إذا أجبته سيكيل لي السباب والشتائم، لأنه مريض، ولكنني لا أستطيع إلا أن أجيبه عندما يناديني باسمي، حتى يسبني فقد يخفف عنه ذلك وحشته، ويخفّف عني من ألمي الذي أشعر به، لأنني لا أستطيع مساعدته، هو مقيّد في قبره، هكذا يعالجونه بتقييده، يقتلونه كل يوم بعلاجهم له كمريض بعزله، في قبر يمرض فيه السجين، فدعواتكم له فهو يحتاجكم!

مع كل هذه الأجواء لا زلت أشتاق للنوم، وقد أتمكن، لأنني أشتاق لأن أحلم، وأريد أن أحلم، وحلمي بسيط ومتواضع: أن أنام ساعة بشكل متواصل، غير متأكد من تحقيق حلمي، لكنني على ثقة بالله أن الفجر قادم، النصر قادم، التحرير قادم!

ولأنكم في عالمكم مشغولون حتى عن أنفسكم، كان الله في عونكم، سأدعو لكم، لكن هل عندكم دقيقة للدعاء لنا!

أخوكم المعزول في العالم المجهول بالنسبة لكم

ملحق رقم 3:

الرسالة الثالثة

رسالة من عزل عسقلان في إضراب الكرامة 2012

في هذه اللحظات الصعبة علينا جميعاً، وفي هذه الفرصة التي سُمح لي بكتابة هذه الكلمات أود من خلالها أن أوجه التحية والشكر لجميع الأسرى الذين يخوضون اليوم الإضراب المفتوح عن الطعام لأجل قضيتنا، قضية الأسرى المعزولين، هذه السياسة التي فُرضت علينا عنوة وظلماً من قِبل مصلحة السجون حينما انتزعتنا من بين إخواننا الأسرى في السجون لقتل الروح والإرادة، وتحطيم الأسير، واستهداف حياتنا، للنيل منا، بهذه العنصرية الهمجية، عبر زنازين الموت والقهر زنازين العزل الانفرادي.

إنني إذ أوجه هذه التحية والشكر لجموع الأسرى المضربين الذين أعادوا الروح لنا بأنه لا سكوت عن المحتل! بعد سنوات طويلة أكلت من أجسادنا وأعمارنا داخل هذه الزنازين، لأتوجه إلى بقية الأسرى في كافة السجون، وعلى مختلف أطيافهم السياسية لأدعوهم للمشاركة بخوض هذا الإضراب المفتوح عن الطعام، وعلى رأسهم كافة قيادات الحركة الأسيرة، فكلنا أمل بكم إخوانَنا الأسرى أن نمضي سوياً موحّدين، وأن يُسجل التاريخ للحركة الأسيرة هذا العمل التاريخي بإنهاء ملف العزل الانفرادي الذي يتجرع مرارته اليوم ما يزيد عن عشرين أسيراً من قيادات التنظيمات الفلسطينية.

كما أتوجه بالشكر إلى جموع شعبنا الفلسطيني المجاهد في ربوع فلسطين الحبيبة وفي الشتات الفلسطيني على وقفات التضامن، فنشدّ على أياديكم، ونثمن لكم هذه المواقف؛ وفي ذات الوقت فإننا نطالبكم بالاستمرار وتصعيد الخطوات التضامنية وديمومتها حتى تعود لقضية الأسرى دورها وريادتها في كل مكان.

وفي الختام؛ ومع دخول الإضراب اليوم الثاني عشر على التوالي فإنني وبفضل الله بخير، وكل ما يمارَس بحقّنا لم يتعدّ سوى الأمور الجسدية، أما أرواحنا فهي تحلق في رحاب السماء، ومعنوياتنا عالية جداً لن يصيبها الضرر بإذن الله، إرادتنا عالية، وعزيمتنا قوية، وماضون في إضرابنا حتى نيل مطالبنا العادلة.

أخوكم الأسير المعزول والمضرب عن الطعام حسن سلامة

ملحق رقم 4:

الرسالة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإخوة العاملون في إذاعة صوت الأسرى،

تحية طيبة وبعد؛

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من منطلق الدور الرائد الذي تقومون به عبر أثير إذاعتكم الطيبة، والتي انطلق اسمها يحمل همّ شريحة كبرى من شرائح شعبنا، وإذ نرسل لكم كل تحية وسلام أن جعلتم على رأس أولوياتكم هو العمل للأسرى، ومن منطلق الأثر الجميل الذي تتركونه في قلوبنا ونفوسنا ضمن تواصلكم الميمون معنا من خلال برنامجكم على جناح الطير، هذا الاسم الذي حمل معه، وفي طياته، شوق الأهل والأحبة والأصدقاء، وحلَّق معنا في زنازين العتمة والظلام يحمل صوت أناس قد حَرَمَنا القيد والأعداء من لقائهم، والحديث معهم، فكنتم أنتم جسر التواصل الذي عوّضنا الكثير عن الحرمان الذي نعيشه، خاصة نحن أسرى قطاع غزة الحبيبة، سنوات طويلة مرّت علينا، ونحن في زنازيننا لا زلنا نعاني، ونكابد الشوق، مع تفنن الأعداء، وتلذذهم في عذاباتنا، لكن جاء أثيركم يخفف عنا هذا العناء، وهذا التعب، فبوركت جهودكم الطيبة وجزاكم عنا خير الجزاء!

وهنا أحمل لكم باسمي أنا الأسير حسن سلامة، وباسم كافة الأسرى المعزولين تحية وفاء، وتحية شكر وتقدير على ما تبذلونه لأجلنا، وأنتم تعلمون أننا كأسرى معزولين نُحرم من كل شيء على صعيد التواصل الاجتماعي مع الأهل، فأراد لنا المحتل العزلة عن المجتمع، وأن يكسر إرادتنا وعزيمتنا، ولكنكم من خلال برنامجكم اليومي الذي نعتبره بمثابة زيارة حين يحمل صوت أخ أو زوجة أو صديق يعيد لنا ذكريات جميلة عشناها ونعيشها معهم.

فنشدّ على أيديكم، وندعو لكم من كل قلوبنا بالتوفيق والسداد، فواصِلوا السير والمسير برغم كل ما تتعرض له إذاعتكم من تضييق وتشويش من قِبل إدارات السجون حتى يصل صدى صوتكم لكل أسير وأسيرة، وحتى يأتي اليوم الذي يبزغ فيه فجر الحرية، ومن على منبر صوتكم نبث أهازيج الفرح والنصر وليس ذلك على الله ببعيد!

وحتى موعد النصر والتمكين لكم منا كل سلام ومحبة!

أخوكم الأسير

حسن عبد الرحمن سلامة

عزل ريمون

ملحق رقم 5:

الرسالة الخامسة

رسالتي حول صفقة وفاء الأحرار

الحمد لله رب العالمين الذي منّ عليكم بهذا الإفراج، الحمد لله رب العالمين الذي أكرمنا، وأكرم المجاهدين، وأكرم هذه الحركة العظيمة، وأكرم كتائب القسام، وأكرم هذا الشعب بهذا الإنجاز العظيم الذي والله إنه لأكبر إنجاز، ولأكبر نصر!

كنت أتمنى أنا وجميع إخواني الباقين أن نكون معكم، لكن هذه إرادة الله، وأنا أعلم أنكم بذلتم كل ما تستطيعون، لكن لا رادّ لقضاء الله، ولكننا ما زلنا نعيش بعهدكم لنا الذي هو عهد الأبطال، وهذا يكفيني! لأنكم مَن وعدتم وصدقتم، فكانت هذه الصفقة، وكان هذا وعد الأحرار، ويكفي فخراً لكم الإفراج عن حرائر فلسطين، فوالله لو لم تنجز الصفقة إلا الإفراج عن الأسيرات لكانت أكبر إنجاز، فكيف، وهي قد أخرجت رغم أنف المحتل عمداء الأسرى وأصحاب المؤبدات!

إخواني الأحبة المفرج عنهم! كنت أتمنى لو أودّعكم، وأقبّل رؤوسكم، وأرتمي في أحضانكم، لكن يكفي أنني أعلم أنكم ذاهبون إلى حريتكم، فهذا عزائي، وعزاء جميع الأسرى!

باسمي أخوكم حسن سلامة أتمنى لكم حياة سعيدة، وأن تنعموا بهذه الحرية، ولنا موعد سنلتقي به! أبارك مرة أخرى لهذا الشعب، وهذه الحركة، وهذه المقاومة، وعلى رأسها كتائب القسام هذا الإنجاز العظيم الذي أفرح قلبي، وأسال دموعي.

أخوكم وابنكم حسن سلامة

عزل عسقلان

ملحق رقم 6:

الرسالة السادسة

رسالة من المجاهد الأسير حسن سلامة من عزله في عسقلان إلى الأسيرة المحررة أحلام التميمي

لله درك يا أحلام!

أحلامنا الجميلة، فارسة فلسطين، يا ابنة القسام!

أختي الفاضلة!

خرجت رغم أنوفهم، فتحوا لك الأبواب رغماً عنهم، رأيناك، وراقبناكِ ولم نغض البصر، ولم ترمش عيوننا حفاظاً على النظرة الأولى التي ما زالت مستمرة، فقد سُمح للفارس أن يتبختر في مواجهة العدو، وسُمح لنا أن نكحّل عيوننا بالنظر لمن نرى فيها عزتنا وكرامتنا وشموخنا.

من أجلك يا أحلام ترقرقت الدموع، وخفقت القلوب، ومن أجل أن نراكِ حرة وجميع حرائرنا نسينا أنفسنا، وتبلسمت جراحنا، فوالله لو لم تُنجِز هذه الصفقة المباركة إلا خروجك وأخواتك لكان ذلك أعظم إنجاز، وهي كذلك يا أحلام!

أقول لك، ومن كل قلبي، لَخروجك، وأنا أراك حرة طليقة، أهم عندي من خروجي، رغم حبي الكبير وشوقي للحرية، فألف مبروك على هذا الخروج العزيز الكريم!

مبارك عليك، وأنت تدوسين بحذائك على رؤوسهم، وتمرغين بذات الحذاء أنف مَن سجنك، وعذَّبك، هي هذه اللغة التي لا يفهمون غيرها!

فللّه درك يا ابنة القسام، كم كنتِ رائعة! وكم هي فلسطين جميلة بكِ، وبكل حرائرنا وأحرارنا الذين أفرج عنهم!

خرجتم أيها الأبطال عندما شاء القهار، وكانت الطلقة في بيت النار، وسنخرج بإذن الله بسواعد الأبطال، وبمشيئة الجبار، وقد خرجت الطلقة من بيت النار.

ملحق رقم 7:

الرسالة السابعة

رسالة إلى والدتي بعد المنع من الزيارة لمدة 12 عاماً

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين

يا رب لك الحمد، ولك الشكر على ما أنعمت به عليّ، أخرجتني وإخواني من مقابر العزل، وقد دُفنّا فيها أحياء، وأكرمتَني بزيارة والدتي العجوز، وقد منعوني من زيارتها ثلاثة عشر [12] عاماً، فلك الحمد والشكر على كل شيء!

نصف ساعة مدة الزيارة، ضاع منها سبع دقائق جالساً أمامها، لا أسمعها، ولا تسمعني، لا صوت في سماعة هي صلة الوصل بيني وبينها، ومع ذلك كانت تحدثني بعيونها.

آهٍ ما أجملها من لحظات، وهي تقبّلني من خلال حاجز زجاجي! كنت أمامها طفلاً يتمنى لو أرتمي بحضنها، أو أعانقها! كنت مشتاقاً أن أنحني فأقبّل قدميها، آهٍ، كم آلمني عُكّازك يا حجة! وأنت تحاولين إخفاءه! دمعاتك التي تساقطت رغماً عنك، هل ستسامحينني عليها! وهل ستغفرين لي عجزي عن كفكفتها! رجوتك بالإشارة ألا تبكي، وكان كُلّي يبكي، كان في داخلي طفل يصرخ، ويبكي شوقاً إليك! كنت أنظر في عيونك، وأتأمل وجهك، وأقارن بين اليوم والأمس البعيد عندما كانت زيارتي الأولى قبل سبعة عشر عاماً! فاجأتك جالساً بجانب أخي أكرم، كنت وقتها خارجاً من التحقيق، ومصاباً، وإذا بزغرودة تكسر حاجز الصمت، وقف لها الأسرى تقديراً، وتداعى عليها السجان ليمنعها، لكنها انطلقت إعلاناً بالنصر! ما زلت أذكر كلماتك وقتها: "يمّا يا حسن! إياك أن تكون ندمان!"، واليوم آلمني جداً يا أمي أن تكون هذه الدمعة! لأنني والله ما اخترت هذه الطريق إلا من أجل ألا تدمعي! لحظتها شعرت بتقدّم العمر، كلّ منا يا أمي قد تفاجأ بالآخر، وبكى من أجل الآخر؛ بكى قلبي لدمعتك، ولعكازك، ولوجعك، ولألمك؛ بكى قلبي على حالي عاجزاً أمام أوجاعك، فاعذريني يا أمي واغفري لي!

أمي!

رغم كل الألم والوجع كانت سعادتي بك كبيرة وأنت أمامي، تحدثينني، وتسمعين مني كلمة! أمي!

تحدثنا كثيراً وسريعاً، نتسابق مع الزمن، ونتمنى لو يتوقف، لكنه انتهى سريعاً، وكأننا ما تحدثنا إلا دقيقة أو دقيقتين كانتا كل عمري الذي عاد صباحاً؛ حسن! لك زيارة، لم أصدّق!! وكنت خائفاً من التصديق، لكنهم أكّدوا، وانتشر الخبر، وكان ما كان من أمر الزيارة التي ما زلت أعيش لحظاتي معها، وصورة والدتي أمامي لا تفارقني، أضحك، وأحزن مرة ومرات، وأنا أسترجع تفاصيل الزيارة.

وأسأل نفسي هل بعد هذه الزيارة من زيارة! سؤال يسأله كل أسير وأسيرة، هل سنعيش في الأسر سنوات طويلة نتواصل مع الأهل من خلال الزيارة! قلت لها ممازحاً: ما زلت صبية يا حجة، وقد تجاوزت السبعين، فما رأيك لو زوجناك! قالت: ما يبقيني في هذه الحياة أن أرى زواجك! هي أمنية كلّ أم وزوجة وابن وابنة أن يعيشوا مع أحبابهم، وقد فرج الله كربهم.

غادرتني الوالدة سريعاً، وكانت [وكأنَّ] روحي وقلبي وأحلامي وكل عمري قد تخلوا عني، وكأنها تترجاني ألا يطول بُعدي، وكأنها تتمسك بهذه الدنيا من أجلي، وأنا يا أمي أتمنى ألا يطول سجني، وأن تبزغ شمس الحرية قريباً، هذه الشمس التي نعشق نورها وأشعتها، ونشتاق أن نراها بدون سياج.

أمي!

من أجلي تصبّري، فأنا وأنت على موعد، وبيننا عهد أن تبقي قوية، وأن أصبر؛ "لا تندم يا حسن" عبارة عاشت معي، وما زالت، وستبقى، لن أندم! وكيف لي أن أندم والبيعة مع الله! ولي أمٌّ قالت لي: "لا تندم"! هذه كانت الوصية، سابقاً بالزغرودة، واليوم بالدمعة، وأنا سأبقى بينهما شامخاً عزيزاً كريماً، ولن أندم، ولي أمّ تتلمذتُ في مدرسة بساطتها، فتعلمتُ منها دروساً في حبّ الوطن وفلسفة النضال والجهاد يوم أن أوصتني "لا تندم".

سأبقى يا أمي على العهد صابراً قوياً، لن أندم!

ملحق رقم 8:

الرسالة الثامنة

قصة زيارتي إلى أخي أكرم في مستشفى الرملة

من هنا بدأت القصة:

أصبح لي الآن ما يقارب من ستة عشرة عاماً معتقلاً لدى قوات الاحتلال، بعد أن شاء قدر الله أن يتمكنوا من إلقاء القبض عليّ من خلال حاجز مفاجئ تمّ نصبه لي وسط مدينة الخليل في الضفة الغربية، حيث تمّ إيقاف السيارة التي كنت أستقلّها، وقد كنت مطلوباً للاحتلال، وتمّ توزيع صوري على مختلف الحواجز بعد تنفيذ تلك العمليات التي كنت الرأس المنفّذ لها ردّاً على اغتيال الجيش الإسرائيلي للشهيد الحي المهندس يحيى عياش، وقد وفّقني الله برفقة عدد من الإخوة المجاهدين أن نردّ الصاع صاعين وأكثر لحكومة العدو، ونذيقها مرّ العلقم، من خلال ثلاث عمليات استشهادية ناجحة أودت بحياة عدد لا بأس به من الإسرائيليين المحتلين لأرضنا، وأعقب ذلك أيضاً عملية خطف جندي، لكنها باءت بالفشل، ولم يكتب لها النجاح.

ترجّلت من السيارة التي كانت تقلّني، وقبل أن يتعرف عليّ أحد الجنود بادرتُ مباشرة إلى الفرار، وقد لحق بي عدد من الجنود، وأطلقوا النار تجاهي فأُصبت في بطني، وبقيت أواصل الجري، وأنا أنزف دماً حتى سقطت مغشياً عليّ فاقداً للوعي في أحد الأزقة الضيقة بمدينة الخليل، ومن ثم تمّ نقلي من قِبل السكان الذين لا يعرفونني بالطبع إلى مستشفى عالية الموجود بمدينة الخليل، وهناك تم التعرّف على شخصيتي، وللأسف تمّ تبليغ سلطات الاحتلال من قبل عملائهم بأنني موجود في هذا المستشفى، وما هي إلا ساعات، وبقدرة قادر، وصلت مروحية عسكرية إسرائيلية، وتمّ اقتحام المستشفى، وتمّ خطفي مباشرة، وبعدها وجدتُ نفسي مقيّداً في أحد الأسرّة بمستشفى سوروكا الصهيوني، ولا أُخفي عليكم أن هذه اللحظات الثقيلة بكل ما فيها من آلام وعذابات مرت أمامي وكأنها حلم! حتى إنني عندما فتحت عيني، وأنا مقيّد على السرير إذا بي أرى زبانية الموت والإجرام الصهيوني يحيطون بي من كل جانب، ولسان حالهم يقول: لقد بحثنا عنك طويلاً، وها أنت اليوم بين

أيدينا، وقد حانت ساعة الحساب! وقد مرّت عليّ ساعات وليالٍ وأيام حملت بين طياتها صوراً رهيبة من العذاب، والتحقيق الوحشي، واستخدام أحطّ وأقذر وأقسى وسائل التعذيب بحق سجين مُصاب لا حول له ولا قوة؛ ومضت تلك الأيام بكل ما حملته من آلام وعذابات، لا يعلم بها إلا الله، حتى وجدت نفسي بعد ثلاثة شهور متواصلة من العذاب في صندوق المحكمة أقف أمام لجنة من القضاة الإسرائيليين، ويحيط بي الجنود من كل جانب، وعدد من وسائل الإعلام المختلفة تلتقط لي الصور، وبدأت المحكمة، ونطق قاضيهم بالحكم الذي سأبقى بموجبه في السجن 48 مؤبداً، وخمسة وثلاثون عاماً وستة أشهر؛ وهذه تساوي بالحسبة العربية 1,175 سنة، وذلك بحسب حكمهم وخرافاتهم، ومع تاريخ كتابة هذه الأسطر يكون لي في سجنهم ستة عشر عاماً، قضيت منها اثني عشرة عاماً معزولاً في زنزانة هي أشبه بالقبر، لا أخرج منها سوى ساعة واحدة في اليوم يسمونها "فورة"، وأكون خلالها مقيّد اليدين والقدمين بسلاسل تربط اليدين بالقدمين، ووزنها ليس بالخفيف، حتى إذا ما انتهت ساعة الفورة أعادوني إلى قبري من جديد، وأغلقوا باب القبر حتى اليوم الثاني، وهكذا هي حياة مَن هم مثلي من المعزولين.

وقد كان لي في الأسر أخ اسمه أكرم، وكان قد تمّ اعتقاله قبل اعتقالي بشهر تقريباً، وقد حُكم عليه بالسجن ثلاثين عاماً، وتمّ نقله بعد الحكم عليه إلى مستشفى سجن الرملة ليقضي هناك أكثر من عشرة أعوام، وبالنسبة لي فأنا ومنذ اعتقالي لم أتمكن من مشاهدته، أو زيارته مطلقاً، وقد تمّ رفض كل الطلبات التي تقدمت بها من أجل ذلك، وحتى المحكمة عندهم أو ما يسمى بالمحكمة رفضت طلبي، بحجة أنني سجين معزول، وخطير على أمن دولتهم، وما شابه من هذه المصطلحات، مع أن هناك قراراً معمولاً به منذ زمن في مصلحة السجون يسمح للإخوة المسجونين بالالتقاء في السجون، أو الزيارة في المناسبات كالأعياد مثلاً، ولكنهم معي كانوا يتعاملون بدون قانون إلا قانون واحد، وهو قانون المنع والحرمان من كل شيء، وقانون العربدة والبلطجة تحت دواعٍ أمنية وما أكثرها عندهم! وقد حاولت عدة مرات التوجه للعيادة الطبية الموجودة بسجن الرملة لكي يتم إجراء فحوصات طبية لي بسبب ما يحدث عندي من ضيق نفس؛ ومع أنني في العادة لا أتوجه لهم بأي طلب طبي، ولكن هذه المرة

توجهت، وقلت لعلهم يوافقون على إرسالي للمستشفى الموجود به أخي أكرم فأراه بعد طول غياب! و أقوم بإجراء بعض الفحوصات الطبية التي أنا بحاجة ماسة لها، ولعلهم يوافقون على إعطائي وسادة ثانية للنوم، لأن الوسادة الموجودة في زنزانتي صغيرة وهابطة ولا تساعدني على النوم، وبعد محاولات كثيرة أخيراً وافقوا على فحصي، وعملوا لي تصويراً للأنف والحنجرة، وبعدها وافقوا على إرسالي لمستشفى سجن الرملة المتواجد فيها أخي أكرم، والمفاجأة أنهم لم يكونوا يعلمون بذلك، وهذا ما تبين لي لاحقاً.

وفي صباح يوم الأربعاء الموافق 2010/6/9م جاء الى زنزانتي مَن يخبرني بأنه سيتم نقلي إلى مستشفى سجن الرملة غداً الخميس، وفعلاً جهزت نفسي جيداً للسفر، وبقيت في زنزانتي أنتظر قدوم "سيارة البوسطة" من الصباح وحتى الساعة الثانية ظهراً، وعندها تمّ إخراجي من زنزانتي بعد وضع القيود والأصفاد في الأقدام والأيدي وإجراء جميع أنواع التفتيشات، ومن ثم تمّ وضعي في البوسطة استعداداً لبدء السفر.

سيارة البوسطة:

...البوسطة هي عبارة عن باص شكله من الخارج جميل جداً، ولا يكشف أبداً عن وضعه الداخلي، لأنه من الخارج عبارة عن باص جميل وملوّن بألوان زاهية، وكأنه مخصص للسفر السياحي، ولكن من الداخل شيء آخر مختلف تماماً، فهو من الداخل عبارة عن زنازين صغيرة إضافة إلى زنزانة كبيرة الحجم نوعاً ما تحتوي على كراسي حديد، لا يوجد عليها أي جلد أو أي شيء، وممنوع على المعتقل أن يحمل معه أي شيء لكي تضعه تحتك، بل مطلوب منك أن تجلس على الحديد، والذي بالطبع يفعل فعله مع مؤخرة الشخص الجالس عليه، ويكون المعتقل داخل البوسطة مقيّد اليدين والقدمين، ويوجد في الزنزانة الكبيرة 12 كرسي حديد، وعلى كل كرسي يجلس أسيران، وهي عبارة عن صفين بينهما ممر ضيق لدخول وخروج الأسير. وبالنسبة للشبابيك فجميعها مغلقة ومدهونة من الداخل بمادة سوداء فاقعة السواد، بحيث لا ترى أي بصيص منها، ولا يتمكن أحد من رؤيتك. وعن طبيعة الجو داخل البوسطة فهي في الصيف تكون شديدة الحرارة، حتى إن العرق يتساقط من

كل مكان، وفي الشتاء تكون شديدة البرودة، وكأنها صُنعت بإتقان لزيادة معاناة وآلام الأسرى الموجودين بداخلها! ويكون في هذه الزنازين المتنقلة ما يقارب من 20 سجيناً أكثر أو أقل، يمكثون في هذه الزنازين الصغيرة والكبيرة ساعات طويلة، وهم على هذا الوضع، كلٌ بحسب أين هو ذاهب، وإلى أيّ سجن، أو إلى أيّ محكمة! ولا تستغرب إن قلت لك بأنه قد يستغرق المكوث في هذه الزنزانة من خمس إلى عشر ساعات حسب الوجهة التي تسير نحوها هذه البوسطة، وطوال هذه الساعات يبقى الأسرى فيها على حالهم دون حراك، لا أكل ولا شرب، ولا دخان ولا حمام؛ تبقى جالساً حتى تصل إلى المكان الذي ستُنقل إليه، وباب الزنزانة مغلق عليك، ويوجد به ثقوب لكي يراقبك الشرطي المسلّح، ويكون جالساً خارج هذه الزنزانة في مكان خصص له، ويكون عنده كل وسائل الراحة، وبجانبه يوجد كلب مدرب له أيضاً من وسائل الراحة الشيء الكثير.

تسير بك هذه البوسطة، وأنت تشعر بكل اهتزازاتها من ميل لليمين أو الشمال أو الخلف أو فوق أو تحت، وأنت في كل الأحوال تكون عاجزاً عن أن تتحكم بنفسك! وكثير من الأسرى تعرضوا، ويتعرضون للخدوش والكدمات بسبب هذه الاهتزازات العنيفة، وأخطر شيء أنه قد يكون في هذه الزنازين الصغيرة الموجودة بسيارة البوسطة أسرى مرضى لا يقدرون على الحركة، عاجزين بسبب كسر أو شلل، وما شابه ذلك، ويتم أخذ عكاكيزهم منهم عند وضعهم في هذه الزنازين، وتبقى العكاكيز عند الشرطي الذي يجلس في الخارج، وعند وصول هذا المريض إلى مكانه، ويريد استرجاع عكازه يتم الطلب منه بعد فتح الباب الذهاب لأخذها متعكزاً على الكراسي، وبصعوبة يكاد يصل إلى عكازه.

فعلاً هذه هي البوسطة، قطعة من العذاب للأسير السليم، فما بالك بالأسير المريض! والذي يزداد مرضه سوءاً، ويتدهور وضعه؛ والأخطر أيضاً أنك توضع في هذه الزنازين ومرات يكون على جانبك سجناء جنائيون يهود وعرب تقشعرّ منهم الأبدان، وأنت في هذه البوسطة تكون مجبراً على المكوث في زنزانتك الضيقة جالساً لساعات طويلة تصل أحياناً إلى عشر ساعات متواصلة، وهناك أكثر، لأن البوسطة هذه تمر على جميع السجون، وفي طريقها تجمع السجناء، وعند كل مكان تقف

لتنزل أسيراً هنا وأسيراً هناك، وربما تأخذ الوقفة الواحدة ساعة أو ساعتين وأنت على حالك هذا، مع ما تتلقاه من معاملة خشنة من قِبل الشرطي الحارس، وهو في النهاية يجبرك على حمل أمتعتك، وأنت مقيّد لكي تضعها في مكان الأمتعة، وربما تسير مرات لأمتار طويلة وأنت مقيد بالسلاسل، وتحمل أمتعتك حتى تصل إلى مكان البوسطة، ولا يوجد عندهم فرق بين كبير ولا صغير أو بين سليم أو مريض.

ويوجد في هذه البوسطة إضافة إلى الزنازين سابقة الذكر يوجد زنازين منفردة وصغيرة جداً، وهي مخصصة لوضع الأسرى المعزولين والخطيرين على حدّ زعمهم، أمثالي! وتبقى طوال هذه السفرية لوحدك في هذه الزنزانة، وصعب عليك أن تتحدث مع أحد، وحتى إن أردت ذلك فهو لن يسمعك، ولن تسمعه بسبب صوت الماتور العالي جداً، وأنت أيضاً لا تستطيع النوم خوفاً من فقدان توازنك، والوقوع أرضاً، أو ارتطامك بالجدران الحديدية لهذه الزنازين.

ربما يكون هذا وصف وشرح مبسط لما يسمى اصطلاحاً في عالم السجون بالبوسطة، حتى عندما أحدثكم عن أسبوع العذاب الذي قضيته مع هذه البوسطة يكون عندكم معرفة عن ماذا يدور الحديث! وللعلم فإن هذه البوسطة هي الوسيلة الوحيدة والأساسية لنقل الأسرى من مكان إلى آخر، وهي تعمل طوال الأسبوع، وهذا يعني أن معاناة الأسرى تكون يومياً عبر هذه البوسطة وعبر هذه السفريات.

بداية الرحلة:

...أخرجوني في ذلك اليوم من زنزانتي الساعة الثانية ظهراً، ووضعوني في مكان العزل المخصص داخل سيارة البوسطة سابقة الوصف، وكنت أنا المعتقل الأخير، فقد كانت سيارة البوسطة مليئة بالأسرى المتواجدين فيها من الساعة العاشرة صباحاً، وعندما وضعوني انطلقت البوسطة من سجن رامون متوجهة إلى سجن بئر السبع، وقد وصلت إلى هناك في تمام الساعة الثالثة والنصف عصراً، وتمّ إنزالنا هناك، ووضعونا في غرفة صغيرة خُصِّصت للانتظار في هذا السجن، ومثل هذه الغرف صدّقوني عبارة عن مكبّ للقمامة، أرضها غير طاهرة، وهي مغلقة بإحكام، ومعتِمة من الداخل، وضعوني أنا في زنزانة لوحدي داخل هذه الغرفة على أساس أنني ممنوع من الاختلاط بأي أحد، وباقي الأسرى تمّ وضعهم جميعاً في غرفة أخرى، ولكن رغم

ذلك تمكنت من الحديث معهم عن بُعد، وتعرّفت عليهم، وكانوا أسرى من مختلف السجون من نفحة والنقب وعسقلان، وجميعهم كانوا متجهين إلى سجن الرملة، ومنهم من هو متوجه إلى مستشفى سجن الرملة للعلاج، أو إجراء فحوصات طبية، فأخبرت الأسرى الذاهبين للمستشفى أنهم بمجرد وصولهم إلى هناك أن يخبروا أخي أكرم أنني قادم إلى مستشفى سجن الرملة لإجراء فحوصات طبية، وعليه أن يحاول مع الإدارة هناك لكي يتمكن من أن يراني، واعتبرت ذلك مهماً جداً، وقد كانت الفرصة طيبة للحديث مع الأسرى الذين أعرف بعضهم، وأجهل أكثرهم.

المهم أننا تحدثنا، وضحكنا عن بُعد، وتقريباً في تمام الساعة الرابعة والنصف أحضروا لنا العَشاء، وكان عبارة عن قطعتي خبز وبيضة وخيارة لكل واحد منا، وكانت هذه الوجبة الدسمة التي تقدم لنا منذ الصباح، فنحن لم نأكل من الصباح، وكنت أنا يومها صائماً، لأنه كان يوم الخميس، فلم آكل، وتركت الأكل في الزنزانة، وبقينا على هذا الوضع في هذه الغرفة النتنة حتى الساعة السادسة والنصف مساءً، ثم تمّ إخراجنا وإعادتنا إلى البوسطة من جديد، وكانت هذه فترة راحة للشرطة المرافقين لنا، وبعد أن تمّ وضعنا وتجهيز كل شيء تحركت بنا البوسطة إلى سجن الرملة، وقد وصلنا السجن، ونحن على حالنا هذا، تقريباً في تمام الساعة الثامنة والنصف ليلاً أنزلوني هناك داخل سجن الرملة، وكان معي أسيران آخران لكي يأخذونا إلى المستشفى، وقد أخذونا مشياً على الأقدام، وكان كلّ منا مقيد اليدين والقدمين، ومع ذلك كان على كلّ واحد منا أن يحمل ما معه من أمتعة رغم قيوده. وقد سار الأخوان الأسيران أمامي، وأنا بقيت أسير خلفهم، لأنه ممنوع أن نسير معاً، حتى إنني تجادلت مع الشرطي، وطلبت منه عدم استخدام يده لكي يعيق تقدمي بحجة اقترابي من الباقين، وبقينا نسير على هذا الحال حتى وصلنا غرفة الاستقبال في سجن مستشفى الرملة، ومن ثم أدخلونا ثلاثتنا جميعاً في نفس الغرفة، ولكنهم وضعوني في زاوية من زوايا الغرفة، وأوقفوا عندي شرطياً حتى لا أختلط بالآخرين، وعندما حاولت أن أتقدم قليلاً لكي أسلم على أحد الأسرى كادت أن تحدث مشكلة كبيرة، ولكن الأمور انتهت على خير، ولذلك تمّ وضعي في جانب من الغرفة مخصص للزيارات، وله باب زجاجي، وضعوني في هذا الجانب، وأغلقوا عليّ الباب، فأصبحت قريباً من الأسرى، ولكن بيني وبينهم جدار زجاجي.

وقد بدأ العمل في إجراءات الدخول لنا إلا أن هناك مشكلة قد وقعت كنت نَوّهت لها سابقاً، فإدارة المستشفى لم تكن على علم بأن لي أخاً اسمه أكرم موجود في مستشفى الرملة، وعندما علمت بذلك من خلال الاسم رفضتْ استقبالي كوني ممنوعاً من مشاهدة أخي، ولا يجب وضعي في مكان العزل في المستشفى خوفاً من أن أشاهد أخي، أو أكلمه من بعيد؛ وقد بدأت الاتصالات على أعلى المستويات لكي يتم إخراجي من المستشفى، ووضعي في مكان آخر، وبقيت لوحدي في مكاني أنتظر ماذا ستسفر عنه هذه الاتصالات، وقد تمّ إدخال الأسيرين اللذين كانا معي إلى داخل المستشفى، وبقيت أنا وحدي أنتظر، وبفضل الله أن الأخوين لم ينسيا ما كنت قد أوصيتهما به، فعندما التقوا بأخي أكرم داخل المستشفى أخبروه بأنني موجود، وأن هناك محاولات لمنعي من دخول المستشفى، ولكنه للأسف لم يستطع أن يفعل شيئاً، وبقيت على حالي هذا حتى الساعة العاشرة والنصف ليلاً، وأنا صائم، ولم أفطر، أنتظر ماذا سيحدث! وقد طلبتُ الضابط المسئول، وتحدثت معه فأخبرني بكل وضوح أنني ممنوع من الدخول بسبب وجود أخي أكرم في المستشفى، وأنني ممنوع من رؤيته، فأخبرته أن هناك غرفاً للمعزولين، وما المانع أن أشاهد أخي من بعيد، وأنا لم أتمكن من رؤيته منذ عشرة أعوام! فقال لي إنني ممنوع بقرار من الجهات العليا.

وبناءً على ذلك بقيت أنتظر، وأنا أستغفر الله، وأردد لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وبقيت هكذا حتى جاء الفرج، وأُجبروا مرغمين على دخولي المستشفى بسبب استشهاد أحد الأسرى وهو الشهيد محمد عابدين في معبار السجن، وأن هناك مشاكل كبيرة قد حدثت، ودخلتُ المستشفى ببركة استشهاد هذا الأخ رحمة الله عليه وقد أدخلوني بعد أن قاموا بإغلاق السجن تماماً، وكان أخي أكرم يوجد في غرفة في آخر القسم، وقد أُخرج من فتحة باب الغرفة مرآة لعله يراني من خلالها، وما إن وصلت بالقرب منه، ولم يتمكن من رؤيتي بعدُ فقد أخرج يده، وأخذ يلوّح بها، وسمعت صوته ينادي عليّ، فرددت عليه، وطلبت منه أن يخرج يده مجدداً كي أعرف أين هو بالضبط! وفعلاً أخرج يده مجدداً، وبدأ يلوّح بها، وكأنه يرحب بي في هذا المكان الجديد.

بعد ذلك أخذني الشرطي إلى أول القسم حيث المكان المخصص للمعزولين، وكان هذا المكان يجاور الغرف المخصصة للجنائيين والمجرمين، وقد وضعوني في أول غرفة من آخر القسم، وكان أخي أكرم يقبع في أول غرفة من بداية القسم، وكان يوجد بيننا مسافة 150م، وهذه المسافة يتخللها عدة أبواب من الشبك، والقسم في شكله عبارة عن مستطيل يمتد طوله من 150م إلى 200م تقريباً، توجد به غرف متقابلة لبعضها البعض، منها ما هو مخصص للأمنيين، ومنها ما هو مخصص للجنائيين، إضافة إلى غرف مخصصة لإدارة السجن؛ المهم أن غرفتي جاءت مقابل غرفة ليهودي من كبار رجال المافيا في إسرائيل ولله الحمد.

دخلت إلى غرفتي تقريباً الساعة الحادية عشرة ليلاً، وكنت مرهقاً جداً فأنا صائم، ولم أذق طعاماً حتى الآن! فطلبت من الشرطي أن يحضر لي أكلاً لأنني صائم، وأريد أن أفطر، وفعلاً ذهب الشرطي، وأحضر لي بعض الأكل، وأكلت، وصليت، ومن التعب وضعت رأسي، ونمت حتى موعد صلاة الفجر، قمت فصليت، ثم عدت إلى النوم من جديد، واستيقظت صباحاً، وكان اليوم الجمعة، فأخذت حماماً ساخناً، وغيّرت ملابسي، وعملت حملة تنظيف للغرفة، والتي كانت قذرة، ومليئة بالأوساخ رغم أننا الآن في مستشفى عسكري، إلا أنها كانت مليئة بالصراصير، وخاصة ذوي الأحجام الكبيرة، ولكنني كنت قد تعودت عليها من قبل، وأصبحت خبيراً في فن التعامل معها، وما هي إلا ساعتان حتى كانت الغرفة نظيفة تماماً، وتمكنت من القضاء على طوابير الصراصير المنتشرة هنا وهناك داخل الغرفة، بعد ذلك أفطرت، ووقفت على باب الغرفة لعلي أسمع صوت أخي أكرم، وأخذت أتحدث مع من هم حولي وأمامي من اليهود الجنائيين، وبقيت كذلك حتى الساعة العاشرة صباحاً، وقد بدأت أسمع صوت أخي أكرم ينادي عليّ من بعيد، وكان صوته يأتيني منخفضاً جداً، ولكني كنت سعيداً جداً بسماعه بعد ما يزيد عن عشر سنوات، لم أره ولم أسمع صوته! وقد صبّحت عليه، ورحَّب بي ترحيباً حاراً، وبدأ يشرح لي عن الوضع والحياة في المستشفى، وأخبرني أنه يحاول مع الإدارة لكي يسمحوا له بأن يسلّم عليّ من خلف الشبك، وما زال ينتظر الجواب.

...وفي حوالي الساعة الحادية عشر جاءني ضابط يتحدث اللغة العربية، وأخبرني أنهم وافقوا فقط على أن يأتي أخي أكرم لكي يسلم عليّ من خلف الباب، ويتحدث معي خمس دقائق فقط وبوجود الشرطة، وحينها أخبرته كيف ذلك، وأنا لم أرَ أخي منذ عشر سنوات! فخجل الضابط، ولم يعرف ماذا يقول، أو ماذا يفعل! وأخبرني بخجل أن هذا ما سمحت الجهات العليا به، وعلى مضض وافقتُ على ذلك، ورأيت أنها فرصة لرؤية أخي حتى ولو من خلف القضبان، وبدون عناق، و حتى بدون تقبيله، ورأيت أن ذلك أفضل من عودتي بخفي حنين بعد هذه الرحلة الطويلة.

ملحق رقم 9:

الرسالة التاسعة

بقلم الأسير القائد إبراهيم حامد

حسن سلامة... وردة تنبض في جدار السجن

عزل أيلون – الرملة

إنه واحد من أولئك الرجال الذين لهم من اسمهم نصيب، حسن الخَلق والخُلُق، سليم الصدر، صريح الطبع، ودود لطيف قريب، سميح الوجه، كريم المعشر، بريء السريرة، نقي الطويّة، وله من مزاج البحر نصيب، فهو في الغالب رائق هادئ قرير، ولكن عندما تتحرك أمواجه يكون عاصفاً حار المزاج، ولعلها ميزة وخصوصية تميز حيوية ساكني بحر غزة، وتكون مثل هذه الحيوية عزيزة ومرغوبة خاصة عندما تبدي لك الحياة في السجن وجهها الفظّ القاسي، وفي مثل ظروفنا في العزل حيث يتكثف اليباس والجمود لدرجة يشتهي معها المرء بما يذكّره بينابيع الحياة ورقراقها، لو أنه يشتري النكتة والضحكة والنهفة أو حتى يستلفها، هنا حيث تضيق فسحة الحياة، وينسقف الوجود الإنساني من جميع الجهات "من فوق ومن تحت وعن يمين وعن شمال وخلف وأمام"، ويغلّف بطبقات سبع مثل نواة الكرة الأرضية المغلفة بسبعة أراضين.

هنا تبدو الضحكة والبسمة التي قد تأتيك عبر نافذة أو جدار مجاور شيء عزيز وثمين ونادر، وكم يكون المرء محظوظاً عندما ينزل في بعض أقسام العزل التي تضم زنازينُها أحداً من أولئك الذين لديهم قدرة فطرية على منح البسمة، وصنع النكتة، ويكون سخياً في إهدائك مائدة من الفضفضة والأريحية وإدخال السرور والحفاوة ونبض الحياة، هناك من الرجال من لا يملك بالضرورة قدرة حكواتية في سرد النكات، ولكن يتوفر على عناصر في شخصيته كفيلةٌ أن تجعل من يقابله يبادله المزاج الطيب، ويتماهى معه في كيمياء من الحميمية الإنسانية الراقية.

حسن سلامة هو من أولئك الرجال الذين يملكون إحساساً عالياً بالحياة مليئاً بالشغف، يتفاعل مع الأشياء هبوطاً وصعوداً مثل حركة الحياة الصاعدة والهابطة،

إنّ ضحكته الممتلئة التي لعلها تزن بمقاييس والدتي الفلاحة "رطلين" كفيلة أن تسري في وجدان من يقابله شاحنة إياه برطوبة الحياة، ونبضها الطارد للجفاف، وذلك لما فيها من براءة وعفوية وسلامة صدر، ويكون لهذه الضحكة العالية رونقها إنْ ما علمت بأن صاحبها يتوفر على درجة عالية من خُلُق الحياء، هذا الخُلُق الذي لطالما ارتبط في تراثنا العربي والإسلامي بالذروة من قيم الرجولة والمروءة والشجاعة والشهامة والنخوة والكرم.

وقد خصّ الرسول ﷺ خُلُق الحياء كواحد من شعب الإيمان الجامعة، ومن تجربتنا في العمل الوطني لطالما تمتع أولئك المقدامون من الرجال بهذا الخُلُق الجميل والأصيل؛ وليس صدفة بأن هذه الصفة تتوفر في صاحبنا حسن بنسبة عالية تصل أحياناً درجة "الخفَر"، وهي تعكس في حقيقة الأمر روحه المتحررة من الشوائب، ويتمتع بالعادة أصحاب هذه الروح الحرة بحدّة طبع أحياناً، وكأنها كحد السيف، وهي أشبه بالمادة الخالصة pure "في الكيمياء" التي ما إن تلقيها في الحيّز المناقض لها حتى "تطش" حرارتها، وتتقشع، وتشف عن معدن نقي مصقول.

بداية اللقاء:

لقد عاشرت الأخ حسن في العام 2008 عندما كان يقيم في حجرة ملاصقة لحجرتي في عزل أيلون – الرملة، وكانت بصمات السنين الطويلة التي أمضى معظمها في العزل بادية عليه، فقد كان من بين القلائل استُهدف بالعزل، واعتُبر صاحب الحكم الأعلى في السجون لسنوات طويلة. ومع ذلك كنت تجده نشيطاً في القراءة، وتدوين ما يتذوقه من شعر وأدب وفكر، ويحافظ على برنامج الرياضة اليومي، وصيام بعض أيام الأسبوع، وهي الفعاليات التي طالما يقاوم بها المعزول صرامة العزل.

وكان يتمتع بشيء من النزق المحبب، خاصة عندما كان أحد الإخوة المربين الأفاضل يستفزّه بأسلوب المعاكسة والمشاكلة من باب تغيير الجو، وكان المحبب في ردة فعل حسن هو ذلك النوع من العفوية التي تألف استقامة الأشياء، وتنفر من منحنياتها ومنعرجاتها، بالإضافة إلى حركة محببة في الجسد حيث تأخذ يداه مع الكفين بالتقدم مع بروز الرأس للأمام قليلاً، ومع حركة تقدم وتأخر في الجسد، وتبلغ هذه الحالة ذروتها حينما كانت تحتدم المواجهة بينه وبين أحد المحامين بسبب من

الأسباب، حيث تصل الأمور معه إلى مرحلة "التغييم"، ويتعكر قليلاً، ولكن سرعان ما يعود صافياً، وقد غسل آثار الموقف.

لقاء جديد، وحكاية الارتباط:

وعندما قابلته في الستة الشهور الأخيرة "النصف الأول من عام 2011"، وجدته يعيش حالة انقلاب وجدانية حالمة، فقد كان لتوّه عاقداً قِرانه على الأخت المناضلة غفران زامل، وما أن حططتُ رحالي ليلاً في الحجرة التي تقابله، وكنت مرهقاً في أعقاب يوم نقل طويل، حتى فاجأني بوجوده الذي كان قد سبقني به بيوم واحد، ووقفت معه على طاقة الشباك معتلياً الكرسي لأحادثه، ليحدثني بشغف وسرور كبيرين وعلى مدى ما يزيد عن الساعتين بلا انقطاع عن قصة خطبته من الأخت الفاضلة غفران، وقد نسيت معها تعبي وإرهاقي، فهي قصة مؤثرة تستحق أن تسجّل من ضمن سِفر حكاياتنا الإنسانية المميزة في مسيرة شعبنا الطويلة، ولعلني سرعان ما اكتشفت أن الأخ حسن كان من ضمن ذلك الصنف من الناس الذي قد يكون الارتباط "خطبة أو زواج" بالنسبة له مثل دواء ناجع، خاصة وأنه الأسير منذ خمسة عشر عاماً، والمنقطع عن مظاهر الحياة، وتفاعلات المجتمع، ولم يكن يخطر بخلده أن تفتح له طاقة ونافذة توصله بالحياة بهذه القوة، وذلك العنفوان.

لقد غدا مخلوقاً رومانسياً يصنع أحلامه البسيطة، ويعيش عليها، ويقتات منها، وأصبح يفكّر بجدية بالعالم خارج أسوار السجن، ويكرس الجزء الأهم من وقته لقراءةِ أو كتابة الرسائل المطوّلة التي تستحق بأن تُدرج ضمن أدب التراسل في السجون، وقد استهلك أقلاماً وكراريس كثيرة جاوزت أوراقها المئات العديدة في الشهور الأخيرة، كما أصبح مثل لاقط أخبار يستمع لكل برامج السلامات التي يمكن أن يحمل له أثيرها صوت شقيقة روحه التي أحدثت لديه زلزالاً وجدانيّاً عاصفاً، ولطالما كانت تستوقفنا الكثير من انفعالاته الحميمية والوجدانية التي تعكس حالة إنسانية رائعة كانت تُدخلنا نحن أصدقاؤه معه في حالة من البهجة والمسرة والاغتباط، ويكون في مثل هذه الحالة على درجة من الانسجام والمزاج الرائق الذي يشبه مرة أخرى أوصاف والدتي الفلاحة التي كانت تقول في مثل هذه الحالة "وجهه بضحك، وقفاه بضحك".

في الحقيقة لطالما وُصفت المرأة في شتى الآداب والثقافات كرمز للحياة والحيوية والنبض، وهي بالنسبة لسجين موغل بالعزلة، ومحاصر بالحكم المؤبد المضاعف عشرات المرات، والمحذوف خارج الزمن فيما يشبه البرزخ الأرضي، تعتبر بحق "نداء الحياة" الأكثر هزّاً للمشاعر والأشواق الإنسانية الكامنة، كيف لا! إذا ما كانت تلك المرأة على درجة رفيعة من النضج والوعي والالتزام والذوق والأدب والخُلُق والتجربة الغنية، التي لعل أَحَدَ المحامين غبط حَسَناً عليها عندما قال له بما معناه: "أغبطك، وأحسدك عليها، وليس العكس".

لذلك سنجد الأخ حسن مشدوداً إلى عالمه الجديد الذي يستحوذ عليه بالاهتمام، والذي ربما يجعله أحياناً يصوغ مواقف تبدو للبعيد عنه مستهجنة وغريبة، وكأنها تستعجل الخلاص، وتدق باب الخزان بقوة نبض الحياة؛ والمفارقة أنك عندما تناقشه في مثل تلك المواقف ستجد الفاصل واضحاً بين "القناعة الوجدانية" أو تلك "القناعة العقلانية"، فعندما تسأله عن أهم درس اكتسبه طيلة سني اعتقاله الطويلة سيجيبك بلا تردد "التحدي"!!

لعل أمثالنا إذا قُدّر لهم استرداد حريتهم، والعودة إلى الزمن مرة أخرى فإنه ستُكتب لنا حياة جديدة، أما الأخ حسن سلامة فسوف تكتب له حيوات جديدة لأن نوعية إحساسه العالي بالحياة غنية لدرجة أنها تميز وتتذوق كل خطّ من خطوط الحياة المختلفة، ولعل أمثالنا الذين يفتقرون إلى التمييز بين تلك الخطوط سيتعلمون الكثير من الأخ وأمثاله من أصحاب الإحساس العالي والحيوية الملفتة.

أشياء عن مقامات تلك الخطوط ولو من باب العلم بالشيء، حتى لو كان هناك صعوبة باستعادة نفس الإحساس، كم تشدنا من أعماقنا تلك اللحظات المستقبلية الحالمة التي نود فيها مواكبة ومباركة أخانا حسن لحيواته الجديدة!

ملحق رقم 10:

صورة الأسير حسن سلامة في بدايات الاعتقال والمحاكمات

ملحق رقم 11:

إبتسامة الأسير حسن سلامة الساخرة من الاحتلال لحظة نطق القاضي بالحكم عليه بالسجن 48 مؤبداً و35 عاماً

ملحق رقم 12:

الأسير حسن سلامة قبل الاعتقال وبعده

قبل الاعتقال

بعد عام من الاعتقال

بعد 10 أعوام من الاعتقال

بعد 20 عام من الاعتقال

ملحق رقم 13:

الأسير حسن سلامة والأسير أحمد المغربي في أول لحظات دخولهم القسم في سجن نفحة بعد خروجهم من العزل، يتوسطهم الأسير النائب محمد جمال النتشة (أبو همام)، وكان قد رافقهم فترات طويلة في العزل الانفرادي

ملحق رقم 14:

الأسير حسن سلامة
بعد إضراب الكرامة سنة 2012، والذي
خرج على إثره من العزل الانفرادي

الأسير حسن سلامة
في سجن نفحة، 2012

ملحق رقم 15:

أول صورة للأسير حسن سلامة مع والدته بعد 13 عاماً من المنع

ملحق رقم 16:

والدة الأسير حسن سلامة وشقيقه الأسير المحرر أكرم سلامة

ملحق رقم 17:

غفران الزامل خطيبة الأسير حسن سلامة

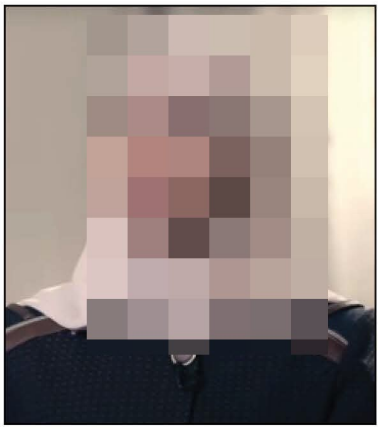

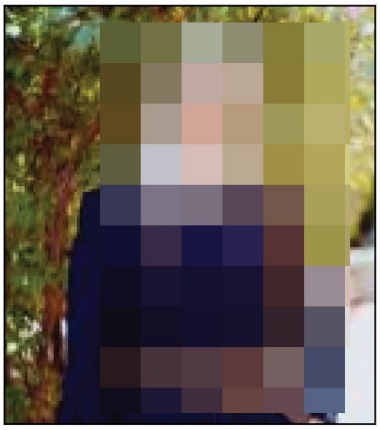

ملحق رقم 18:

والدة الأسير حسن سلامة مع إسماعيل هنية رئيس حكومة تسيير الأعمال، ورئيس حركة حماس في قطاع غزة، ويحيى السنوار عضو قيادة حماس في القطاع، 2012

ملحق رقم 19:

والدة الأسير حسن سلامة مع خالد مشعل، رئيس حركة حماس، في أثناء زيارته لقطاع غزة، 2012

ملحق رقم 20:

والدة الأسير حسن سلامة في حفل تخرجه من جامعة الأقصى وحصوله على درجة البكالوريوس من كلية الآداب تخصص تاريخ، 2015

ملحق رقم 21:

الأسير حسن سلامة في صورة له بعد حصوله على درجة البكالوريوس

ملحق رقم 22:

رئيس حركة حماس في قطاع غزة يحيى السنوار، خلال زيارة لوالدة الأسير حسن سلامة، 2021/4/14

فهرست

(أ)

أبو جاموس، محمد، 84
أبو حسنة، إياد، 130، 161، 163
أبو خيزران، إياد، 161، 163
أبو سيسي، ضرار، 159–162، 164
أبو طير، محمد، 41
أبو غلمة، عاهد (أبو قيس)، 144–146، 152–153، 155، 157–158، 160–164، 166، 169–172
أبو نعيم، توفيق، 162
أبو الهيجا، جمال (أبو العبد)، 91، 111، 114، 120، 131، 134، 144–146، 152–153
إذاعة الأقصى، 162
إذاعة أمواج، 146
إذاعة صوت الأسرى، 151
إذاعة صوت فلسطين، 57
الأردن، 113، 141
انتفاضة الأقصى، 122
أوكرانيا، 159
إيرز، 28، 40، 45، 49، 80

(ب)

بئر السبع، 85، 112، 142
بارود، فارس، 107
البرغوثي، عبد الله، 121، 123، 134–135، 145
البرغوثي، مروان، 75، 84–85، 103، 107
بلال، عثمان، 163، 165
بلال، معاذ، 163، 165
بن لادن، أسامة، 95
البيتاوي، حامد، 148، 150
بيت إيل، 28، 40

(ت)

تل أبيب، 146
التميمي، أحلام، 140–144
التميمي، نزار، 141

(ج)

جابر، محمد، 91
جابر، هاني، 91، 103، 107
جامعة بار إيلان، 110
جبارين، زاهر، 41، 91، 107، 166
الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، 141
الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، 18، 131، 133، 152، 161، 164، 170
جرادات، أنس، 91
جنين، 100، 102، 111
جهاز الأمن العام الإسرائيلي (الشاباك)، 25، 77، 83، 99، 109، 139، 163
جهاز المخابرات الإسرائيلي، 26، 49
الجولان، 95، 139

(ح)

الحاج علي، أحمد، 150
حامد، إبراهيم (أبو علي)، 114، 117، 122، 155–157

حرب 1948 (النكبة)، 113
الحركة الأسيرة، 81، 107، 112، 168–170، 183
حركة الجهاد الإسلامي، 115، 161
حركة حماس، 41، 47، 56، 63–64، 73، 91، 94–95، 102–103، 107–108، 112، 121–123، 139–140، 142، 157، 161–162، 170
– كتائب عز الدين القسام، 141، 166، 176
– المكتب السياسي، 91، 146
– الهيئة القيادية العليا لأسرى حماس، 121، 140، 157
حركة فتح، 41، 84، 102–103، 107، 114، 141
الحكومة الفلسطينية، 55

(خ)

خالد، وليد، 114، 123
خان يونس، 162
الخليل، 28–29، 64، 103، 131

(د)

دار موسى، صالح (أبو إسلام)، 114، 120، 122–123، 125، 128
دقماق، بثينة، 42، 62
دودوين، عايد (أبو حمزة)، 146
دودين، موسى (أبو محمد)، 103، 146

(ر)

الرازم، أيمن، 147، 171
رام الله، 28، 40، 102، 122
الرشق، محمد، 73، 91، 102، 107، 111
رفح، 130
رمضان، نزار، 73، 77، 81، 84
الرملة (مدينة)، 18، 113، 152
الرنتيسي، عبد العزيز، 154

(ز)

زامل، غفران، 122، 142–143، 145–152، 155، 160، 164
زئيفي، رحبعام، 152
الزّغَل، ربيع، 73، 77، 81، 82

(س)

سجن أيالون، 18، 27، 112–113، 153، 154
سجن بئر السبع (إيشل)، 15، 27، 65، 69–70، 176
سجن جلبوع، 27، 107
سجن رامون، 27
سجن الرملة، 30–31، 41، 48، 81، 112–113، 153–154
سجن ريمون، 124، 170–171
سجن ريمونيم، 27
سجن شطة، 27، 72
سجن عسقلان، 41، 43، 45، 47، 63، 71، 80، 102، 111، 162
سجن نفحة، 15، 27، 64–65، 69، 103، 108، 172
سجن النقب، 163، 165
سجن نيتسان، 112
سجن هدريم، 65، 70، 96، 121، 123، 170، 172
سجن هوليكدار، 142

سعدات، أحمد (أبو غسان)، 18، 131–132، 134–135، 141–145، 148–150، 152–153، 166، 169
سلامة، أكرم، 28، 48، 55، 113، 135، 146، 149، 152، 164
سلامة، نبيل (أبو باسل)، 49
سليمان، تيسير، 56–59، 61
السنوار، يحيى (أبو إبراهيم)، 69، 121–122، 139–140، 145، 154، 157، 165
السودان، 55، 113
السيد، عباس (أبو عبد الله)، 145، 148، 152

(ش)

شاليط، جلعاد، 111، 125
الشحاتيت، منصور، 127
شحادة، صلاح، 154
الشرباتي، هشام، 114، 131
شريم، مهند (أبو مجاهد)، 129، 170–171
شكري، أحمد، 63

(ص)

صفقة وفاء الأحرار، 41، 56، 64، 73، 91، 100، 103، 112–113، 125، 141، 146–147، 161، 168
صلاح، رائد، 119
الصليب الأحمر، 28، 50، 57، 92، 101، 117، 130، 144، 148، 151، 160

(ض)

الضفة الغربية، 84، 100، 104، 112–114، 122، 139، 142
الضيف، محمد (أبو خالد)، 139

(ط)

طولكرم، 171

(ع)

عابدين، محمد، 142
العاروري، صالح، 81
عبد الرازق، هشام، 55
عزل بئر السبع، 85–86، 102، 112، 128، 142
عزل جلبوع، 166
عزل رامون، 18
عزل الرملة (أيالون)، 18، 27–28، 30، 41، 109، 122–123، 131، 153–154، 179
عزل ريمون، 124، 128–129، 132–133، 144–145، 148–149، 164–166
عزل شطة، 71، 74، 76، 83، 85–86، 89، 147–148
عزل عسقلان، 18، 27–28، 63، 122–123، 130–133، 157–158، 164
عزل نفحة، 130، 153
عزل هوليكدار، 128، 131–132، 142
عقل، وليد، 157
العمور، عطوة، 125، 128، 132
عويس، ناصر، 102
عياش، يحيى، 166
العيساوي، شيرين، 141
عيسى، عبد الناصر، 163
عيسى، محمود (أبو البراء)، 63–64، 91، 102، 105، 107، 112، 114–115، 118–120، 134، 163، 165–167، 170

(غ)

غنيمات، عبد الرحمن، 64

(ف)

فاكسمان، ناخشون، 166
الفرنسي، أحمد، 91، 103، 107
فنونة، إياد، 114

(ق)

القاضي، مهاوش، 128، 132
القدس، 35، 56، 73، 82، 112، 125، 143، 166، 175
قطاع غزة، 40، 45، 64، 84، 99–100، 106، 108، 113، 129، 139، 144، 149، 157
قناة الأقصى، 146
قناة الجزيرة، 27
القواسمي، أكرم (أبو مالك)، 147، 170–171

(ل)

لبنان، 64، 112

(م)

مؤسسة مانديلا، 42، 62
المجلس التشريعي الفلسطيني، 150
مخيم شعفاط، 112
مرج الزهور، 112
مستشفى سجن الرملة، 28، 55، 112–113، 135، 149
مستشفى مراش، 152
المسجد الأقصى، 175
مشعل، خالد (أبو الوليد)، 162
مصطفى، أبو علي، 152
مصلح، عيد (أبو عبيدة)، 125، 129
معركة الأمعاء الخاوية (معركة الكرامة) (2012)، 168، 170، 176
المغربي، أحمد (أبو محمود)، 114، 131، 134، 172، 204
ملصة، مازن، 91، 111
الموساد، 159

(ن)

نابلس، 46، 102، 149
النتشة، محمد جمال (أبو همام)، 114، 119، 120، 145، 149–150، 152، 173
نتنياهو، بنيامين، 162
نعيمات، مهاوش، 125

(و)

وحدة السموم، 71
وحدة النحشون، 28، 30، 54، 64، 71–72، 113
الولايات المتحدة الأمريكية/ أمريكا، 146–147
– مكتب التحقيقات الفيدرالي (أف بي آي)، 147

(ي)

يغمور، جهاد، 125، 166

إصدارات مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

الإصدارات باللغة العربية:

أولاً: سلاسل الكتب (93 مجلداً وكتاباً):

1. **سلسلة التقرير الاستراتيجي الفلسطيني**، صدر من هذه السلسلة 12 مجلداً، تغطي الفترة 2005–2021.
2. **سلسلة الوثائق الفلسطينية**، صدر من هذه السلسلة 7 مجلدات، تغطي الفترة 2005–2011.
3. **سلسلة اليوميات الفلسطينية**، صدر من هذه السلسلة 8 مجلدات، تغطي الفترة 2014–2021.
4. **سلسلة أولست إنساناً**، صدر من هذه السلسلة 13 كتاباً.
5. **سلسلة تقرير معلومات**، صدر من هذه السلسلة 29 كتاباً.
6. **سلسلة ملف معلومات**، صدر من هذه السلسلة 9 كتب.
7. **سلسلة دراسات علميَّة محكَّمة**، صدر من هذه السلسلة 15 كتاباً.

ثانياً: كتب عامة (92 كتاباً):

1. وائل سعد، **الحصار: دراسة حول حصار الشعب الفلسطيني ومحاولات إسقاط حكومة حماس**، 2006.
2. محمد عارف زكاء الله، **الدين والسياسة في أميركا: صعود المسيحيين الإنجيليين وأثرهم**، ترجمة أمل عيتاني، 2007.
3. أحمد سعيد نوفل، **دور إسرائيل في تفتيت الوطن العربي**، 2007، ط 2، 2010.
4. محسن محمد صالح، محرر، **منظمة التحرير الفلسطينية: تقييم التجربة وإعادة البناء**، 2007.
5. محسن محمد صالح، محرر، **قراءات نقدية في تجربة حماس وحكومتها 2006–2007**، 2007.
6. خالد وليد محمود، **آفاق الأمن الإسرائيلي: الواقع والمستقبل**، 2007.
7. حسن ابحيص ووائل سعد، **التطورات الأمنية في السلطة الفلسطينية 2006–2007**، ملف الأمن في السلطة الفلسطينية (1)، 2008.

8. محسن محمد صالح، محرر، **صراع الإرادات: السلوك الأمني لفتح وحماس والأطراف المعنية 2006–2007**، ملف الأمن في السلطة الفلسطينية (2)، 2008.
9. مريم عيتاني، **صراع الصلاحيات بين فتح وحماس في إدارة السلطة الفلسطينية 2006–2007**، 2008.
10. نجوى حساوي، **حقوق اللاجئين الفلسطينيين بين الشرعية الدولية والمفاوضات الفلسطينية – الإسرائيلية**، 2008.
11. محسن محمد صالح، محرر، **أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان**، 2008، ط 2، 2012.
12. إبراهيم غوشة، **المئذنة الحمراء**، 2008، ط 2، 2015.
13. عدنان أبو عامر، مترجم، **دروس مستخلصة من حرب لبنان الثانية (تموز 2006): تقرير لجنة الخارجية والأمن في الكنيست الإسرائيلي**، 2008.
14. عدنان أبو عامر، **ثغرات في جدار الجيش الإسرائيلي**، 2009.
15. قصي أحمد حامد، **الولايات المتحدة والتحول الديموقراطي في فلسطين**، 2009.
16. أمل عيتاني وعبد القادر علي ومعين منّاع، **الجماعة الإسلامية في لبنان منذ النشأة حتى 1975**، 2009.
17. سمر جودت البرغوثي، **سمات النخبة السياسية الفلسطينية قبل وبعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية**، 2009.
18. عبد الحميد الكيالي، محرر، **دراسات في العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: عملية الرصاص المصبوب/ معركة الفرقان**، 2009.
19. عدنان أبو عامر، مترجم، **قراءات إسرائيلية استراتيجية: التقدير الاستراتيجي الصادر عن معهد أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي**، 2009.
20. سامح خليل الوادية، **المسؤولية الدولية عن جرائم الحرب الإسرائيلية**، 2009.
21. محمد عيسى صالحية، **مدينة القدس: السكان والأرض (العرب واليهود) 1275–1368هـ/ 1858–1948م**، 2009.
22. رأفت فهد مرة، **الحركات والقوى الإسلامية في المجتمع الفلسطيني في لبنان: النشأة – الأهداف – الإنجازات**، 2010.
23. سامي الصلاحات، **فلسطين: دراسات من منظور مقاصد الشريعة الإسلامية**، ط 2 (تمّ النشر بالتعاون مع مؤسسة فلسطين للثقافة)، 2010.
24. محسن محمد صالح، محرر، **دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس**، 2010.

25. مأمون كيوان، **فلسطينيون في وطنهم لا دولتهم**، 2010.
26. محسن محمد صالح، **حقائق وثوابت في القضية الفلسطينية: رؤية إسلامية**، 2010، طبعة مزيدة ومنقحة ومصورة، 2020.
27. عبد الرحمن محمد علي، محرر، **إسرائيل والقانون الدولي**، 2011.
28. كريم الجندي، **صناعة القرار الإسرائيلي: الآليات والعناصر المؤثرة**، ترجمة أمل عيتاني، 2011.
29. وسام أبي عيسى، **الموقف الروسي تجاه حركة حماس: 2006–2010**، 2011.
30. سامي محمد الصلاحات، **الأوقاف الإسلامية في فلسطين ودورها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي**، 2011.
31. نادية سعد الدين، **حق عودة اللاجئين الفلسطينيين بين حل الدولتين ويهودية الدولة**، 2011.
32. عامر خليل أحمد عامر، **السياسة الخارجية الإسرائيلية تجاه إفريقيا: السودان نموذجاً**، 2011.
33. إبراهيم أبو جابر وآخرون، **الداخل الفلسطيني ويهودية الدولة**، 2011.
34. عبد الرحمن محمد علي، **الجرائم الإسرائيلية خلال العدوان على قطاع غزة: دراسة قانونية**، 2011.
35. نائل إسماعيل رمضان، **أحكام الأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي: دراسة فقهية مقارنة**، 2012.
36. حسني محمد البوريني، **مرج الزهور: محطة في تاريخ الحركة الإسلامية في فلسطين**، 2012.
37. غسان محمد دوعر، **المستوطنون الصهاينة في الضفة الغربية: الاعتداء على الأرض والإنسان**، 2012.
38. دلال باجس، **الحركة الطلابية الإسلامية في فلسطين: الكتلة الإسلامية نموذجاً**، 2012.
39. وائل عبد الحميد المبحوح، **المعارضة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) 1994–2006: دراسة تحليلية**، 2012.
40. محسن محمد صالح، محرر، **أزمة المشروع الوطني الفلسطيني والآفاق المحتملة**، 2013.
41. بلال محمد، محرر، **إلى المواجهة: ذكريات د. عدنان مسودي عن الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وتأسيس حماس**، 2013.

42. أحمد جواد الوادية، **السياسة الخارجية الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية 2001–2011**، 2013.
43. ناصر عبد الله عبد الجواد، **الديموقراطية الزائفة والحصانة المسلوبة: زفرات نائب عن الضفة الغربية في المجلس التشريعي الفلسطيني**، 2013.
44. محسن محمد صالح، **الطريق إلى القدس: دراسة تاريخية في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء وحتى أواخر القرن العشرين**، ط 5، 2014.
45. عبد الله عياش، **جيش التحرير الفلسطيني وقوات التحرير الشعبية ودورهما في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي 1964–1973**، 2014.
46. محسن محمد صالح، **مدخل إلى قضية اللاجئين الفلسطينيين** (تمّ النشر بالتعاون مع أكاديمية دراسات اللاجئين)، 2014.
47. محسن محمد صالح، محرر، **حركة المقاومة الإسلامية (حماس): دراسات في الفكر والتجربة**، 2014، ط 2، 2015.
48. محسن محمد صالح، محرر، **منظمة التحرير الفلسطينية والمجلس الوطني الفلسطيني: تعريف – وثائق – قرارات**، 2007، ط 2، 2014.
49. ماهر ربحي نمر عبيد، **البناء التنظيمي والفصائلي للأسرى الفلسطينيين في سجن النقب**، 2014.
50. محسن محمد صالح، محرر، **قطاع غزة: التنمية والإعمار في مواجهة الحصار والدمار**، 2014.
51. محسن محمد صالح، محرر، **السلطة الوطنية الفلسطينية: دراسات في التجربة والأداء 1994–2013**، 2015.
52. عطا محمد زهرة، **البرنامج النووي الإيراني**، 2015.
53. باسم القاسم، **صواريخ المقاومة في غزة: سلاح الردع الفلسطيني**، 2015.
54. رائد نعيرات وسليمان بشارات، **النظام السياسي الفلسطيني: إشكاليات الإصلاح وآليات التفعيل**، 2016.
55. رامي محمود خريس، **الخطاب الصحفي الفلسطيني تجاه المقاومة الفلسطينية: دراسة تحليلية وميدانية مقارنة**، 2016.
56. فرحان موسى علقم، **النزاع على السيادة في فلسطين في ظلّ اتفاقيات أوسلو: المخزون المائي في الضفة الغربية نموذجاً**، 2016.

57. خلود رشاد المصري، **النسوية الإسلامية ودورها في التنمية السياسية في فلسطين**، 2016.

58. باسم القاسم وربيع الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (1) التغيرات الدستورية والانتخابات**، 2016.

59. باسم القاسم وربيع الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (2) الأحزاب والقوى السياسية**، 2016.

60. باسم جلال القاسم، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (3) الأداء الاقتصادي**، 2016.

61. باسم جلال القاسم، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (4) الأداء الأمني والقضائي**، 2016.

62. ربيع محمد الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (5) الأداء الإعلامي**، 2016.

63. ربيع محمد الدنان، **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة، (6) السياسة الخارجية**، 2016.

- **ملاحظة:** تمّ جمع الكتب الستة السابقة في مجلد بعنوان **مصر بين عهدين: مرسي والسيسي: دراسة مقارنة**، وصدر عن المركز في 2016.

64. أحمد حامد البيتاوي، **العملاء والجواسيس الفلسطينيون: عين إسرائيل الثالثة**، 2016.

65. عدنان أبو عامر، **منظومة الأمن الإسرائيلي والثورات العربية**، 2016.

66. أشرف عثمان بدر، **إسرائيل وحماس: جدلية التدافع والتواصل والتفاوض 1987–2014**، 2016.

67. أمل عيتاني ورنا سعادة وفاطمة عيتاني، معدّون، محسن محمد صالح، محرر، **الجماعة الإسلامية في لبنان 1975–2000**، 2017.

68. بلال محمد شلش، محرر، **سيدي عمر: ذكريات الشيخ محمد أبو طير في المقاومة وثلاثة وثلاثين عاماً من الاعتقال**، 2017.

69. أحمد خالد الزعتري، **العلاقات التركية الإسرائيلية 2002–2016**، 2017.

70. خالد إبراهيم أبو عرفة، **المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي في بيت المقدس 1987–2015**، 2017.

71. سعيد طلال الدهشان، **كيف نقاضي إسرائيل؟: المقاضاة الدولية لإسرائيل وقادتها على جرائمهم بحق الفلسطينيين**، 2017.
72. قتيبة وليد غانم، **الأصولية الدينية في الجيش الإسرائيلي: الأسباب والتداعيات على "الديموقراطية في إسرائيل" 1995–2014**، 2018.
73. وائل خالد أبو هلال، **حوارات في تاريخ الحركة الإسلامية في فلسطين المحتلة سنة 1948 مع الشيخ رائد صلاح**، 2018.
74. عبد الحكيم حنيني، **منهجية حركة حماس في العلاقات الخارجية: سورية نموذجاً 2000–2015**، 2018.
75. غسان محمد دوعر، **قواعد الشيوخ: مقاومة الإخوان المسلمين ضد المشروع الصهيوني 1968–1970**، 2018.
76. محمد أكرم بلعاوي وحسان عمران، **تفكيك الخطاب الموالي لإسرائيل: الهند نموذجاً**، 2019.
77. عزام عبد الستار شعث، **توجهات النخبة السياسية الفلسطينية نحو الصراع العربي – الإسرائيلي (دراسة تحليلية ميدانية)**، 2019.
78. شاكر الجوهري، **د. موسى أبو مرزوق: مشوار حياة: ذكريات اللجوء والغربة وسنوات النضال**، 2019.
79. أحمد مبارك الخالدي وأنيس فوزي قاسم، **رأي استشاري في حل المجلس التشريعي الفلسطيني**، 2019.
80. شادي سمير عويضة، **استغلال الغاز الطبيعي في حوض شرق البحر المتوسط وعلاقته بالنفوذ الإسرائيلي في المنطقة**، 2019.
81. محسن محمد صالح، **الإخوان المسلمون الفلسطينيون: التنظيم الفلسطيني – قطاع غزة 1949–1967**، 2020.
82. إيمان أبو الخير، **اعتداءات الاحتلال الإسرائيلي على المرأة في الأراضي الفلسطينية المحتلة 1967 (1967–2019)**، 2020.
83. بلال ياسين، **د. موسى أبو مرزوق: في العمق: قراءة في الفكر الحركي والسياسي لأول رئيس مكتب سياسي لحركة حماس 1997–2017**، 2020.
84. سعيد محمد بشارات، **دور تيارات الصهيونية الدينية في الحياة السياسية في إسرائيل 2000–2019**، 2021.

85. شيرين طارق عيساوي، **المسؤولية الجنائية الفردية عن الانتهاكات الجسيمة بحق الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين بموجب القانون الدولي العام**، 2021.

86. محسن محمد صالح، **القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة**، 2012، طبعة مزيدة ومنقحة، 2022.

87. محمد بلعيشة، **الصفقات الفاوستية: التغلغل الإسرائيلي في جمهوريات آسيا الوسطى**، 2022.

88. محسن محمد صالح، **أوهام في العمل الفلسطيني**، 2022.

89. محسن محمد صالح، محرر، **دراسات في التطبيع مع الكيان الصهيوني: الدراسات الفائزة في المسابقة البحثية الدولية "لا للتطبيع"**، 2022.

90. عبد اللطيف خضر سده، **الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية من منظور القانون الدولي**، 2022.

91. محمد عبد ربه مطر، **الطريق إلى صفقة وفاء الأحرار: "صفقة شاليط" 2006–2011**، 2022.

92. **خمسة آلاف يوم في عالم البرزخ: مذكرات الأسير حسن عبد الرحمن سلامة في العزل الانفرادي داخل السجون الإسرائيلية**، 2022.

الإصدارات باللغة الإنجليزية:

First: Serial Publications (24 Volumes and Books):

1. **The Palestine Strategic Report Series**, 12 Volumes (2005–2021).

2. **Am I Not a Human? Book Series**, 12 Books.

Second: Non-Serial Publications (13 Books):

1. Muhammad Arif Zakaullah, *Religion and Politics in America: The Rise of Christian Evangelists and Their Impact*, 2007.
2. Mohsen Mohammad Saleh and Ziad al-Hasan, *The Political Views of the Palestinian Refugees in Lebanon as Reflected in May 2006*, 2009.
3. Ishtiaq Hossain and Mohsen Mohammad Saleh, *American Foreign Policy & the Muslim World*, 2009.
4. Ibrahim Ghusheh, *The Red Minaret: Memoirs of Ibrahim Ghusheh (Ex-Spokesman of Hamas)*, 2013.

5. Mohsen Mohammad Saleh, editor, *Gaza Strip*: *Development and Construction in the Face of Siege and Destruction*, 2014. (electronic book)
6. Muslim Imran Abu Umar, *Egypt, Syria and the War on Gaza: A Study on the Egyptian and Syrian Foreign Policy Responses to the 2008/2009 Gaza War*, 2015.
7. Mohsen Mohammad Saleh, editor, *Islamic Resistance Movement (Hamas): Studies of Thought & Experience*, 2017.
8. Karim El-Gendy, *The Process of Israeli Decision Making: Mechanisms, Forces and Influences*, 2nd ed., 2019.
9. Mohsen Mohammad Saleh, *Introduction to the Issue of Palestinian Refugees*, 2019.
10. Mohsen Mohammad Saleh, editor, *The Palestinian National Authority: Studies of the Experience and Performance 1994–2013*, 2019.
11. Mohsen Mohammad Saleh, *Basic Facts on The Palestine Issue*, 2021. (Updated and Illustrated Version)
12. Mohsen Mohammad Saleh, *The Palestinian Muslim Brothers: Al-Tanzim al-Filastini – Gaza Strip 1949–1967*, 2021.
13. Mohsen Mohammad Saleh, *The Palestine Issue: Historical Background and Contemporary Developments*, 2014, revised and updated version, 2022.

الكاتب في سطور

الاسم: حسن عبد الرحمن حسن سلامة

لاجئ فلسطيني، من بلدة الخيمة قضاء الرملة

مواليد: 1971/8/9، من سكان مدينة خانيونس، قطاع غزة.

من أبناء حركة حماس، وأبناء كتائب عز الدين القسام، ورفيق درب قائدها العام محمد الضيف (أبو خالد).

أصبح مطلوباً للاحتلال سنة 1992، مما اضطره للخروج خارج فلسطين المحتلة في بداية سنة 1993 وحتى نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر 1994؛ حيث تلقى عدة دورات عسكرية.

عاد إلى قطاع غزة عبر رحلة تهريب طويلة بدأت من سورية إلى مالطا ثم إلى ليبيا ثم إلى مصر، ثم قطاع غزة، لتعتقله السلطة الفلسطينية في سجونها بعد عودته فوراً، ولعدة أشهر.

واصل عمله الجهادي بعد إطلاق سراحه، وعاش مع الشهيد المهندس يحيى عياش في قطاع غزة. وبعد استشهاد المهندس ذهب إلى الضفة الغربية بتكليف من قائد كتائب القسام محمد الضيف، حيث تولى تخطيط وتنفيذ عمليات "الثأر المقدس" ردّاً على اغتيال المهندس يحيى عياش سنة 1996، وأصبح مطارداً في الضفة؛ حتى تمّ اعتقاله بعد تمكُّنه من تجاوز حاجز لقوات الاحتلال في 1996/5/17 في مدينة الخليل، وإصابته إصابة خطيرة، وحُكم عليه بـ 48 مؤبداً و35 عاماً، قضى منها نحو 14 عاماً في زنازين العزل الانفرادي، وما زال حتى صدور هذا الكتاب معتقلاً في سجون الاحتلال التي أمضى فيها أكثر من 26 عاماً.

Five Thousand Days in the World of Barzakh (Isthmus)

The Memoirs of the Prisoner Hassan Abd al-Rahman Salameh in Solitary Confinement in Israeli Prisons

هذا الكتاب

يسطّر هذا الكتاب يوميات الأسير الفلسطيني حسن عبد الرحمن سلامة، المحكوم من الصهاينة بـ 48 مؤبداً و35 عاماً، قضى منها نحو خمسة آلاف يوم في زنازين العزل في السجون الإسرائيلية، التي هي حياة أقرب إلى عالم الأموات "البرزخ".

حسن سلامة... القائد العسكري القسامي، ورفيق درب محمد الضيف (أبو خالد)، ويحيى عياش، الذي نفّذ عمليات "الثأر المقدس" ردّاً على اغتيال عياش سنة 1996، وأصبح مطارداً حتى تمّ اعتقاله بعد إصابته إصابة خطيرة، ما زال حتى اليوم معتقلاً في سجون الاحتلال.

يشرح حسن سلامة جوانب من المعركة الشرسة التي يخوضها الأسرى مجرّدين من كل شيء إلا من إيمانهم بالله وبعدالة قضيتهم، لانتزاع ما يمكن انتزاعه من حقوقهم؛ ويسلط الضوء على جوانب رائعة من صمود الأسرى، وعلى الكثير من المواقف والقصص التي تجتمع فيها معاني الحرية والعزة والكرامة والتضحية، والحب والحنين والحزن والفرح.

يُعدّ هذا الكتاب من أهم ما صدر من كتب تُسلّط الضوء على معاناة الأسرى وتجاربهم في سجون الاحتلال الإسرائيلي، وهو بمثابة وثيقة وشهادة تاريخية تكشف بشاعة الاحتلال وظلمه وقمعه ولا إنسانيته.

ISBN 978-614-494-030-3

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب.: 5034-14 بيروت – لبنان
تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net